

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس
هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

الألف كتاب ٥٦٩

الدراما اليونانية القديمة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٥٦٩

الديانة اليونانية القديمة

تأليف
هـ . ج . رز

ترجمة
رمزي عبده جرجس

مراجعة
دكتور محمد سليم سالم

الناشر
دار نهضة مصر
للطبع والنشر
القاهرة

١٩٦٥

هذه ترجمة كتاب :
ANCIENT GREEK RELIGION
تأليف :
H. J. Rose

تمهيـــد

سرنا فى تأليف هذا الكتاب على فرض أن قراءه إنما يرغبون فى الإلمام بجانب هام من جوانب الحياة الذهنية والروحية لشعب من ألمع الشعوب فى التاريخ الأوربى ، دون أن يكون لدى هؤلاء القراء علم به كعلم الباحثين الأخصائيين . ومن ثم فهو لا يفترض حتى مجرد الإلمام بالحروف اليونانية ، رغم أنها كبيرة الشبه بالحروف الإنجليزية حتى ليستطيع المرء أن يلم بها خلال نصف ساعة . أما من تحدوهم الرغبة ، بعد قراءة ما قد سطر فى الفصول التالية ، فى أن يستزيدوا علما ، فليس عليهم إلا أن يرجعوا إلى المراجع المدرجة فى ذيل هذا الكتاب . وإذا وجد البعض ما يغريهم بتعلم اللغة اليونانية منبع الآداب والعلوم الغربية كافة ، فسيثلج ذلك صدر المؤلف أضعافا مضاعفة .

ولا محيص من أن ترد فى كتاب من هذا النوع كثير من الأسماء اليونانية ؛ نقلت نقلا حرفيا دقيقا إلى صورها اللاتينية ، فلغة هذا الكتاب ليست هى اللاتينية بل الانجليزية . غير أن هناك بعض الاستثناءات القليلة . فلبعض الأسماء ، مثل أثينا Athens صيغ إنجليزية ، وهذه قد استخدمناها . كما أن هناك لفظة أو لفظتين نالتا فى الصيغة اللاتينية من الشيوع والرواج ما جعلهما جزءاً من اللغة الإنجليزية ، كما هو الحال مع اسم ثوكيديديس Thucydides . وفى هذه الحالة أيضاً ابتعدنا عن طريقنا المرسوم ومبدئنا الثابت . ولعله من الجدير بالذكر أن الحرف u يمثل فى نقلنا ما كان ولا يزال يكتب باليونانية على صورة حرف مزدوج كما هو الحال فى اللغة الفرنسية . وربما أوحى استخدام الحرفين ou بأنهما ينطقان كما فى الكلمة الإنجليزية house (هاوس) ، الأمر الذى لم يقع فى أى كلمة يونانية فى أى عصر من العصور . أما الحرف اليونانى u الذى كان ينطق به بوجه عام فى اللغة اليونانية القديمة (وإن لم ينطبق ذلك على جميع اللهجات) كما ينطق فى اللغة الفرنسية ، فقد كتب على هيئة

الحرف y . وفى الألفاظ المنقولة عن اللغة اليونانية الحديثة يمثل الحرفان dh نطق الحرفين الإنجليزيين th فى كلمة then ، أما gh فهى حرف الجيم فى اللغة اليونانية الحديثة ، الذى يخرج فى الفم على عمق أكبر مما يحدث لحرف g فى الإنجليزية أو الألمانية (كما فى go و gehen) وإن كان يشبه حرف y الساكن فى اللغة الإنجليزية عندما يسبق حرفى ، i أو ê . والنبرة التى توضع على حرف العلة فى كلمة من للغات الحديثة تدل على التشديد stress ، أما فى العصور القديمة فقد كانت تعنى ارتفاعا فى نغمة الصوت . وفى مفردات اللغات الحديثة أيضا ينطق حرفا e و ai نطقا واحدا (كما فى الحرف e فى الكلمة الانجليزية let ، ولكن ai تمثل الحرف 1 فى الانجليزية . أما y, oi, i, ë فهى جميعها مثل حرفى ee فى الإنجليزية .

سنت أندروز ١٩٤٦ — هـ . ج . روز

الفصل الأول

مقدمة

على الطالب الذى لايعرف من الديانات غير تلك التى تعتنقها الدول المتمدينة فى هذا العصر ، أن يعمد بادئ ذى بدء إلى أن يخلص ذهنه من كثير من الأفكار التى تتلعق بالدين ومقوماته، وذلك إذا ما أراد أن يتفهم معتقدات بلاد اليونان القديمة وطقوسها، فالمسيحى أو اليهودى الجاد فى النظر إلى دينه يجد لزاما عليه أن يؤمن بطائفة من القضايا العليا الدقيقة ، فيما يتعلق بطبيعة الله وعلاقاته بالبشر فضلا عن أنه ينظر إلى عدد من الأفعال ذات الأهمية الخلقية باعتبارها فروضا يحتمها دينه ، مثال ذلك ، أن عليه إما أن يعيش أعزب أو يكون الزوج الوفى لزوجة واحدة ، لأن هذا هو ما أمر به ، كما أن عليه أن يلتزم جانب الصدق والأمانة فى كثير من الأمور من أجل هذا السبب ذاته . فإذا ما أهمل هذه الواجبات ، فإنه إنما يسلك مسلك المسيحى الطالح أو اليهودى الضال ، أما إذا ما أنكر بعض العقائد التى تلقاها، فهو إلى هذا الحد مهرطقا مارقا عن الدين. والخلاصة أن ديانته إنما هى ديانة عقائدية تنطوى على شريعة خلقية . بيد أن ديانة اليونان القديمة لم يكن لها قانون للإيمان ، كما أنه على الرغم من أن بعض الأفعال كانت تعد منافية للدين ومن ثم كانت بوجه عام هدفا للاستهجان والاستنكار باعتبارها مغضبة للقوى العليا ، فلم يكن ثمة قانون أو منهج خلقى يتحتم أن يسلم به كل من يتعبد للإلهة أثينا أو الإله زيوس . وفضلا عن ذلك فلم يكن لأية هيئة من الكهنة شأن بمعتقدات الفرد الشخصية طالمـــا أن هذه المعتقدات لم تسفر عن محاولته قلب الأوضاع القائمة للعبادة أو إدخال عبادات أخرى جديدة غير معترف بها ، أو أنها لم تصل إلى حد الإنكار التام لوجود مثل تلك الكائنات المعروفة فى العقائد الشعبية باسم الآلهة، مثال ذلك أنه كان من الجائز تماما أن يمضى الفرد فى عبادة الإلهة «هيرا» فى الوقت الذى يؤمن فيه بالمذهب

الفلسفى القائل بأنها تشخيص للهواء ويدعوله ، أو أن يطلب المشورة من وحى الإله أبولون فى حين أنه يؤمن إيمانا قويا بأنه هو الشمس . بل إن الألفاظ ذاتها التى تعبر فى لساننا عن معان دينية مثل « المذهب » و « العقيدة » و « الهرطقة » و « علم اللاهوت » كانت فى اللغة اليونانية فى العصر الكلاسيكى توحى بمعان مغايرة تماما . فالمذهب dogma هو الرأى الذى يأخذ به أحد الفلاسفة أو تعتنقه مدرسة فلسفية . والعقيدة (pistis) هى إما الثقة والولاء ، وإما التسليم بصدق ما يقوله شخص آخر أو الإيمان بكفايته فى النواحى العملية . أما الهرطقة haeresis فهى مذهب فلسفى وليس دينيا . وعلم اللاهوت Theology هو إلى حد بعيد أقرب إلى ما نسميه بعلم الأساطير « الميثولوجيا » على أنه كان كثيراً ما اقترن بمحاولة للكشف عما يختفى وراء الآراء التقليدية التى تتعلق بالآلهة وعملها من ضروب المعتقدات الفلسفية .

وتقترب الديانات القديمة والحديثة بعضها من بعض إلى حد ما من ناحية الطقوس والمراسم . ففى هذا العصر يجد المسيحى أو اليهودى أو المسلم ، وبخاصة ذلك الذى يتمسك بالطقوس القديمة والتقليدية فى ديانته ، أن عليه أن يراعى عدداً من الفروض التى ليست لها فى حد ذاتها قيم خلقية ، أو أن لها هذه القيم ولكن على نهج غير مباشر فهو يقتطع يوما من كل أسبوع ليكرسه أساسا للقيام بعبادات دينية من نوع محدد . وهو يمتنع على الدوام أو خلال مواسم معينة عن تناول صنوف مختلفة من الطعام . وهو يتحرز فى أوقات معينة من القيام بعدد من الأعمال التى تبدو بريئة كل البراءة فى حد ذاتها ، فهو إن كان يهوديا قويم العقيدة توقى السفر أو القيام بأى عمل فى يوم السبت . كما أنه يأخذ نفسه ، عندما يؤم مكان عبادته ، ببعض القواعد فيما يخص ملبسه وهيئته وإشاراته . كل هذه الأشياء تجد لها ما يقابلها بصورة قريبة فى أغلب الأحيان فى العالم القديم . مثال ذلك أنه كان يتحتم على أى فرد يريد أن يتناول شيئا مقدسا ، وقد كانت هذه الأشياء غاية فى الكثرة ، أن يغسل يديه أولا . كما كان على العابد الذى يدخل الحرم المقدس على الأكروبول فى أثينا ألا يصحب كلبه معه . وكان على كل من يدعو إلهاً سماويا أن يرفع يديه إلى السماء ، أما إذا كان

يدعو قوة من قوى العالم السفلى ، فعليه أن يمد يديه إلى أسفل ناحية الأرض .
وإذا ما قرب ذبيحة ، فإن نوع الحيوان الصالح للذبح ، وجنسه من حيث هو ذكر أو أنثى وكذلك لون بشرته ، والوضع الذى ينبغى أن يكون عليه عندما تنحر رقبته ، وغير ذلك من التفاصيل العديدة ، كانت مقررة جميعها بدقة وعناية على نحو أو آخر . وإذا ماشاء أن يزين هيكل أحد الآلهة بالأكاليل ، وكان هذا نذراً شائعاً كل الشيوع ، فلم تكن جميع النباتات ، مهما بلغت من الحسن والرونق جائزة الاستعمال ، فقد كان محرما ، على سبيل المثال أن يدخل نبات اللبلاب معبد الإلهة أفروديت Aphrodite . كما أنه رغم افتقار تقويمه إلى يوم للراحة والعبادة يعاود الظهور على فترات متقاربة مثل يوم الأحد المسيحى ، فقد كانت لديه أعياد أخرى ذائعة معروفة إلى حد بعيد، وكانت هذه تشغل جزءا لا بأس به من العام .

ولسوف نرى فى التوكيف أن هذه الأعياد كانت تسير فى الغالب الأعم على إيقاع المواسم المتوالية على مدار السنة .

بيد أن أعظم خلاف فيما يبدو بين الديانة اليونانية القديمة والعقائد السامية الحديثة هو أن هذه الأخيرة تخرج فى تصورها عن حدود هذا الكون ، إذ تمنى مريديها بآمال لا تتعلق بتحقيق الرفاهية فى الحياة الحاضرة بقدر ما تتصل بالسعادة الأبدية المقبلة . والحقيقة أن لهذه أيضا روابطها بمجريات الحياة اليومية ، وشاهد ذلك تلك المراسم المختلفة مثل الصلاة استدرارا للمطر أو طلبا لاعتدال الطقس أو التماسا للبركة تحل بأحد المشاريع العامة أو الخاصة ، وما شابه ذلك ، ولكن حتى فى هذا الصدد أيضا فإن الاهتمام لا ينصب فى الصلوات التى تتلى وقت أحداث الحياة الكبرى (المولد والزواج والمرض والممات) على الأمور المادية بقدر ما ينصب على أمور معنوية غير مادية . بيد أن هذه لم تكن هى الحال فى بلاد اليونان القديمة . مثال ذلك أنه كان يجرى على الطفل الرضيع طقس معين يشبه التعميد فى المسيحية إلى حد ما ، ولكن الأمر لم يكن ينطوى على أى فكرة لتخليصه من علل روحية بحتة ، تعود القهقرى إلى خطيئة آدم ، أو منحه قوة أو طهارة روحيتين . وحسبنا

أن نخضع الطقوس التي كانت متبعة إذاك لشيء من التحليل ، ليتبين لنا أن الطفل كان يجرى تطهيره ، بالوسائل المادية ، من الصبغة الأجنبية التي تتعلق فى معتقدات السذج بكل قادم جديد، وبذلك يتحول إلى إنسان كامل بل إنه يلاحظ إلى يومنا هذا أن الطفل اليونانى الرضيع الذى لم يعمد بعد يشار إليه فى بعض الأحيان باسم التنين أو الوحش الذى يشبه الغول الشائع فى القصص الشعبى .

كما كانت تجرى للطفل مراسم لعقد الصلة بينه وبين الأسرة التي سينتسب إليها فيما بعد ، ومن ثم يصبح موضع العناية الحقة التي يحتاج إليها الطفل . وإلى تلك اللحظة لم يكن هناك فى نظر العامة ما يمنع من أن يطرح الوليد ذكراً كان أم أنثى فى العراء ، أى أن يترك طريح الأرض فى بقعة منعزلة أو شبه منعزلة ليواجه مصيره ، فإما أن يلتقطه أحد الغرباء ، وإما أن يموت من الجوع والبرد ، ولا يعتبر هذا جريمة قتل عمد ترتكب ضد فرد حديث السن من أفراد الأسرة ، بل كان مجرد رفض لدخوله عضواً فى الأسرة ، وعضواً فى المجتمع الذى تنتمى إليه هذه الأسرة . وحسبنا كثرة ما يتردد عن هذه الحادثة فى المسرحيات اليونانية ، دليلا على أنها لم تكن نادرة الوقوع حتى أبان إزدهار الحضارة الهلينية ، ولنضرب مثلين فحسب من بين عشرات الأمثلة : فمسرحيتا «أيون» Ion ليوريبيديس و « التحكيم » لميناندر تدوران حول طرح أحد الأطفال وإنقاذه والتعرف عليه فى النهاية لقد كانت تلك الاحتفالات ، والطقوس ، التي تعيد إلى الأذهان ذكرى ما نقيمه نحن من مهرجانات فى مواسم جنى المحاصيل شائعة جداً فى بلاد اليونان ، بيد أنه من السهل علينا إلى أقصى حد أن نلحظ هنا أيضاً أن الهدف من تلك الاحتفالات كان منصباً فى المقام الأول على الرغبة فى إطلاق سلسلة من عمليات التبرك الخيرة ذات الطابع السحرى ، بقصد الاحتفاظ بخصوبة الأرض على الدوام . لقد كان دفن الموتى عملا دالا على الورع والنسك ، وفرضاً واجبا على الجميع ، سواء أكان المتوفى صديقا أم عدواً ، من ذوى القربى أو من الغرباء ، فما كان يحرم من مراسم الدفن الرسمية غير السفلة من المجرمين ، ولكن السبب فى ذلك هو أن الموتى ينتسبون إلى عالم آخر لا شأن للأحياء ولآلهة الأحياء به . وكلما عجلنا بتشييعهم إلى مثواهم ،

كان ذلك أدعى لراحة الباقين على قيد الحياة لأن الروح القلقة المشردة لهى شر وبيل .

ولما كانت الديانة اليونانية سارية على هذا النحو فى أكثر أهدافها ، فقد كانت دون شك شديدة الصلة بمجريات الحياة اليومية . فلم تكن الآلهة أسيرة هياكلها أو سماواتها أو عالمها السفلى بل كانت تحيا فى الطرقات وفى بيوت الناس . كانت كل مدفأة توقد فيها النار مقدسة ؛ فكلمة هستيا Hestia كانت تطلق على حد سواء ، على المكان الذى توقد فيه النار وعلى الإلهة التى تهيمن عليه ، وكانت هذه تبدو إلى حد ما غامضة متجردة من الشخصية .

وكان يقوم أمام البيت فى الغالب هيكل صغير ، قد يكون للإله أبولون Apollo إله الطرق (Agyieus) أو للإله هرميس Hermes ، حامى جميع المسافرين ومانح الحظ الحسن ، أوقد يكون فى بعض الأحيان للإلهة هيكاتى Hekate ، كما لم يكن من النادر أن يوقف الهيكل على أحد الأبطال héros أو على روح قوية تميل إلى فعل الخير . أما داخل المنزل ذاته ، فلم تكن خزانته تعد كاملة مالم تزود بإناء كبير يحوى أجزاء من أطعمة مختلفة ، وكان هذا هو زيوس كتيسيوس Zeus Ktesios ، وهو الإله الذى يحمى ممتلكات الأسرة ، فى الوقت الذى يقوم فيه زيوس هيركيوس Zeus Herkeios (إله الفناء) بمراقبة فناء الدار . وكان الحدادون من أتباع الإله هيفايستوس Hephaistos ، كما كان الرعاة يعبدون كلا من الإله بان Pan والإله أبولو نوميوس Apollo Nomios (إله المراعى) ثم الحوريات Nymphs ، أما الزراع فقد كانوا يعبدون عددا وافراً من الآلهة ، على رأسها الإلهة ديميتر Demeter ، « أم الحنطة » ، والملاحون يظاهرون عدداً آخر من الآلهة ، وخاصة پوسيدون Poseidon . ولعل الطقوس والاحتفالات الكبرى التى أقيمت تكريماً للآلهة فى مقراتها الرسمية ألا وهى الهياكل وغيرها من الأضرحة كانت قليلة نادرة نسبياً ، غير أنه بالنظر إلى كل ما يقع فى الحياة اليومية كانت الآلهة تبدو ماثلة أمام الفرد فى كل سبيل يطرقه ، بوسعه أن يدعوها

فى أية لحظة لكى تكون شاهدا على قسم أو لكى تدرأ خطرا أو تشفى مرضاً أو تبارك أى عمل من الأعمال . وكان من الطبيعى مراعاة قواعد خاصة للسلوك عند التعامل مع هذه الآلهة ، بالنظر إلى مرتبتها السامية بالنسبة للبشر ، ولكن هذه كانت فى الغالب قواعد بسيطة هينة ، كما لم تكن تحمل أى معنى للرهبة ، بل كانت خلوا من أى معنى من معانى العبودية . كان من عادة اليونانى أن يقول إنه يجل أو يرعى هذا الإله أو ذاك ، غير أنه نادرا ما يقول إنه عبد له ، فهذا تعبير شرقى .

وكان لانعدام فكرة العالم الآخر فى الديانة اليونانية أثره فى طريقة اختيار الآلهة التى تقدم لها فروض العبادة . فقد كان اليونانى القديم لا يجد غضاضة فى الاعتراف بألوهية طائفة من القوى التى لم يكن يرفع لها صلاة أو يقدم لها قرابين . ولم تكن هذه تشمل فحسب شخصيات جهمة عابسة مثل هاديس Hades «غير المرئى» ورب العالم السفلى (ولعل عبادته الوحيدة فى بلاد اليونان قد نشأت عن الخلط بينه وبين بلوتون Pluton (مانح الثروة Ploûtos والخصب) بل كانت تتضمن أيضاً كائنات باهرة ساطعة النور وإن كانت وديعة سالمة أو كانت محسنة كريمة . فأورانوس Uranos (السماء) لم يكن غير شخصية أسطورية بحت لا يتعبد لها إنسان ، كما لم تكن للشمس عبادة ببلاد اليونان الأصلية ، أما القمر والنجوم فلم تكن موضع عبادة على الإطلاق . والسبب فى ذلك واضح جلى . فإن هذه الكائنات السامقة الجبارة تقبع فى مناطق نفوذها ، ولا تحاول قط أن تهبط إلى الأرض لتتدخل فى شئون البشر . ومن ثم فهى لا تبدى اهتماماً بالبشر ، ولا حاجة بالبشر إلى إن يولوها من جانبهم أدنى عناية . غير أن الأمر يختلف بالنسبة للإله زيوس Zeus إله الطقس و «جامع السحب» الذى يمكن أن يرى وهو يجمع سحبه فوق قمم الجبال العالية ؛ أو بالنسبة للإلهة كورى Kore ، «عذراء الحنطة» التى تتجسد فى صورة المحصول الجديد عند ظهوره عاما بعد عام ؛ أو بالنسبة للإله هرميس الذى نشعر بقوته على طول الطرق وفى أندية المصارعة حيث يجتمع الشبان ؛ أو بالنسبة للحوريات اللاتى يعود إلى نفوذهن الفضل فى تدفق القنوات ونمو الأشجار ،

ثم بالنسبة لذلك العدد الغفير من الآلهة المحلية الصغيرة التي كان الاعتقاد السائد والعرف الجاري يقول بأن رخاء المجتمعات الصغيرة لا يزال يتوقف عليها الآن كما توقف عليها في الماضي أجيالا كثيرة . كانت كل هذه الآلهة وكثير غيرها تظهر قواها وتكشف من وقت لآخر عن وجودها في رؤى تتجلى لمن تختصهم من عبادها برعايتها ، في أماكن غير مميزة كالتي يلجأ إليها عادة عامة الرجال والنساء للعمل أو اللهو . وفي المنازل حيث يعيش الناس وفي الحقول والمصانع حيث يكسبون عيشهم . كانت الآلهة ، رغم سمو مكانتها وعلو شأنها ، أعضاء في المجتمعات الإنسانية ذاتها ، ومن ثم أصبح عقد الصلة معها أمرا محتوما ، ولم يبق إلا أن يعرف المرء أي ضرب من الصلات تفضل ، وأي أقوال أو أعمال ينبغي التقرب بها إليها ، وأي نوع من الهدايا حقيق بأن ينال غاية رضائها ، ثم ما الذي يغضبها ، ومن ثم ينبغي تحاشيه عند التعامل معها .

لقد كان لدى الإنسان أيضا ما يقدمه في مقابل ما يلقاه من نعم إلهية . ولعل قلة من اليونانيين القدماء هي التي أدركت مغـــزى ما ذهب إليه ارستوفانيس Aristophanes في إحدى مسرحياته الكوميدية الرائعة التي تدعى « الطيور » من أن الآلهة تعتمد في الحصول على قوتها على عبادها ، إذ أنها تحيا على نحو ما على الأطعمة الحيوانية وغير الحيوانية التي كانت تحرق فوق مذابحها أو تقدم لها على غير الصورة السالفة . ولكنه من المؤكد أن الشعور الذي كان سائدا هو أنها ترحب بالهدايا وألوان التكريم التي يرفعها إليها الإنسان . ومما يقرره بعض الزراع اليونانيين في العصر الحديث أن الأرض تقول لمن يفلحونها : « أعطوني كيما أعطيكم » ، ويبدو أن موقفاً قريب الشبه إلى حد بعيد بهذا الموقف كان يعزى إلى الآلهة القديمة . أما عن الطريقة التي كان يتم بها ذلك ، فمسألة سنتناولها بالدراسة في فصل مقبل .

وثمة نقطة أخرى ينبغي علينا إدراكها منذ البداية على نحو واضح جلي ، وإن كنا سنتناولها فيما بعد بمزيد من الشرح والتفصيل ، وهي أن الإغريق ، شأنهم في ذلك شأن أي شعب آخر عرفنا عنه القليل أو الكثير ، كانوا ينحدرون عن أصول متباينة ، ولنا أن نقول إن العناصر المختلفة التي تآلف منها الشعب اليوناني

قد أسهمت بعوامل مختلفة فى تكوين الشكل المعقد للديانة اليونانية فى العصر الكلاسيكى . وقد نجد من السهل فى بعض الأحيان أن نتتبع بعض هذه العناصر إلى مصادرها الأصلية ، ، ولكن علينا أن نقر بجهلنا فى كثير من الأحيان وأن نقنع بضرورة تجنب تلك النظريات المفرطة فى سهولتها أو التى تبدو جميلة منسقة الأجزاء ، إذا لم تجد سندا من الحقائق . مثال ذلك : أن الآلهة اليونانية دون ريب تنقسم إلى طبقتين رئيسيتين ، الآلهة الأوليمبية وموطنها الحقيقى هو السماء وأعلى جبل فى بلاد اليونان ، وهو جبل أوليمبوس Olympos فى تساليا الذى تبدو قمته وكأنها تلامس السماوات العلى ، والآلهة الأرضية (الإخثونسية) . وهم سكان الأرض Chthon وهى كلمة قديمة تعنى «الأرض». أما آلهة البحر فهم على نحو ما فى مركز وسط بين الاثنين . وتفسر إحدى الأساطير القديمة ذلك بقولها إنه عندما انتهت سيادة الإله القديم كرونوس Kronos على الكون ، اقترع أبناؤه الثلاثة على اقتسام مملكته السابقة ، فكانت السماء من نصيب زيوس ، والبحر من نصيب بوسيدون والعالم السفلى من نصيب هاديس ، أما الأرض وجبل أوليمبوس فظلا شيوعا بينهم . كما أن الرأى السائد كذلك هو أن آلهة الأرض أشد بداوة فى مظهرهم إلى حد ما من الأوليمبيين ، أى أنهم قريبو الشبه على نحو ما بذلك الضرب من الآلهة التى يتعبد لها الهمج والبرابرة ، فى حين أن الآلهة الأوليمبية الأصيلة تبدو أكثر تطورا من هذه وأشد منها ارتباطا بتقاليد الحياة لدى الشعوب المتحضرة. وعلى ذلك فقد شاعت حينا من الزمن نظرية تقول إن آلهة الأرض كانوا آلهة سكان البلاد الأصليين فى العصر السابق للعصر اليونانى ، فى حين أن الآلهة الأوليمبية جلبت إلى البلاد على أيدى شعب كان يفوق السكان الأصليين تقدما ، وهو الشعب الذى أدخل اللغة اليونانية ونقل معه طائفة من أبرز الخصائص المميزة للنظم اليونانية والحضارة اليونانية بوجه عام . أما عن وجود سكان فى العصر السابق على العصر اليونانى فهو أمر يدل عليه علم الآثار دلالة واضحة ، حيث إنه قد تمت دراسة آثارهم التى كانت تتكلم لغة تختلف اختلافا بينا عن اللغة اليونانية ظلت قائمة إلى العصور التاريخية . ثم إن القول إن عنصرا جديدا يتمثل فى تلك الأقوام التى يطلق عليها هوميروس اسم الآخايين

Achaians قد حل بالبلاد فى وقت مبكر إلى حد بعيد فى الألف الثانية قبل الميلاد، هو أيضا من الحقائق المقررة الثابتة ، وإن كان من المحتمل أن هذا الشعب هو الذى أوجد الحضارة المعروفة باسم الحضارة الموكينية ، إلا أن الثابت عنه أنه هو الذى أتى باللسان اليونانى القديم ، وهو الذى جاء أيضا بالأسس الأولية على أقل تقدير للنظم القديمة ، سواء السياسية منها أو غير السياسية . وليس هناك ما يدعو إلى الشك فى أنهم أتوا فضلا عن ذلك بآلهة خاصة بهم ، تختلف عن تلك التى كان يعبدها السكان القدامى الذين عرفهم يونانيو الفترة التاريخية باسم البلاسجيين Pelasgians .

وبوسعنا حقاً أن نشير إلى بعض الأماكن المقدسة التى كانت تقام فيها شعائر العبادة لأحد الآلهة اليونانية الخالصة جنباً إلى جنب بجوار إله آخر مجهول الاسم ، أو يحمل اسما لا دلالة له فى اللغة اليونانية ، كما لا وجه للشك فى أن أحد الآلهة الوافدة هو زيوس أعظم آلهة السماء قاطبة ، كما لا ريب فى أنه كان بين آلهة « البلاسجيين » آلهة أرضية . أما إذا ظننا أن الآخايين لم يكونوا يعبدون غير آلهة السماء ، وأن السكان الوطنيين السابقين لم يكونوا يعبدون غير آلهة الأرض ، فذلك مما لا يثبت بحال أمام طائفة من أوضح القرائن وأنصعها . فليس هناك من بين آلهة الأرض من هو أهم من الإلهة ديميتر ، ومع ذلك فاسمها يونانى صرف ، كما أن الإلهة أثينا تعد من بين الآلهة الأولمبية الهامة ، غير أن اسمها لا يمت بحال إلى اللغة اليونانية ، ولكنه يرجع فى تركيبه ، كما هو معلوم ، إلى اللسان القديم الدارس الذى كان يتكلم به السكان الأوائل .

وجملة القول أن الديانة التى نتصدى لها الآن بالدراسة ، تستمد أصولها من أحوال شعب مافتىء يعيش عيشة بسيطة ساذجة ، يعول فيها ، لتوفير قوته ، أساساً على ما يستطيع أن ينبته فى حقوله وبساتينه . أما التجارة على نطاق واسع نسبياً والصناعة المنظمة ، أو ما يشبه الصناعة المنظمة ، فقد جاءت فى وقت متأخر . ومن ثم فإنه عندما باتت المدينة الدولة هى الوحدة السياسية الاجتماعية الشائعة لدى الإغريق، لم يكن هناك مفر من أن يطرأ على الطقوس الدينية قدر معين من التغيير ،

فقد كان بوسع هذه المدن بعد أن تحقق لها من زيادة فى ثروتها وتقدم عظيم فى مهاراتها الفنية أن تقدم لآلهتها احتفالات أعظم بهاء وأكثر رونقاً وهيا كل بالغة الروعة والإتقان لتعيش فيها بدلا من معابدها الريفية .

وفى الوقت ذاته ، تسرب إلى طائفة من أقدس الطقوس وأقدمها عهداً عنصر من الزيف والبطلان والبعد عن الواقع ، ذلك لأنه قد أصبح من المحتم على هذه الطقوس وهى التى كانت فى الحقيقة قوام عبادة أهل الريف ، أن توائم ، بقدر ما تستطيع بين بيئتها وبين حاجيات سكان المدن .

أما عن النمو المطرد لروح الزيف هذه والبعدعن الواقع ، وعن المحاولات التى بذلت فى سبيل الكشف عن علل وأسباب جديدة للعادات والتقاليد القديمة (ذلك لأن الأديان محافظة بطبيعتها ولا تنظر بعين الرضى إلى تغيير وسائلها فى التعبير ، التى درجت عليها) فذلك ما سنفرغ لدراسته فيما بعد .

وثمة تغيير ليس من شك فى أنه قد وقع فعلا ، وهو أنه أصبح من الواضح أن مهمة الآلهة أو « المخلصين» ، كما كان يطلق بوجه خاص على الكثيرين منهم ، باتت لا تتعلق بدرء غائلة الجوع عن مجتمع زراعى صغير ، بل حماية دولة واسعة النطاق معقدة البناء نسبياً من الأخطار السياسية التى تتهددها .

وعندما بدت الآلهة القديمة عاجزة عجزاً مطرداً عن القيام بهذا الدور لم يكن ثمة مفر من أن ينهار الإيمان بكفايتها انهياراً كلياً ، أو أن يتخذ هذا الإيمان له صورة أخرى لا تنطوى على مثل ما انطوى عليه الماضى من نزعة مادية .

وفى الوقت الذى أخذ المجتمع فيه يزداد فى الاتساع والتضخم ، كانت أهمية الفرد بالنسبة لهذا المجتمع آخذة فى التضاؤل . ومن الواضح الجلى أن فرداً من جماعة تتألف من بضع مئات يمثل عنصراً أكثر أهمية بالنسبة للصالح العام ، مما لو كان الشعب الذى يضمه يعد بعشرات الآلاف . غير أن ذلك قد صاحبته زيادة هائلة من وعى الفرد نفسه .

والحال بالنسبة للبسطاء من الناس ، هو أن الفرد ينظر إليه فى الغالب ، كما كان يعتقد هو نفسه أيضاً ، على أنه عضو من جماعة تعمل فى العادة متكاتفة متآلفة من أجل غاياتها وأهدافها المشتركة ، ومن ثم فهى فى الغالب تؤدى شعائر العبادة جماعة ، لا باعتبارها تتألف من عدد من الأفراد . ومن ثم فإن جميع الديانات الأولى التى نعرفها هى ديانات جماعية وليست فردية ، بمعنى أن القوى التى تتخذها موضعاً لعبادتها كان يجرى التقرب إليها فى صورة من أبرز صور الإفصاح عن الحياة الدينية ، بوساطة الجماعة كلها . حين تؤدى مجتمعة طقوساً معينة .

وأضعف الإيمان أن أفراد الجماعة كانوا يجتمعون جميعاً إذا كان القائمون بتأدية هذه الطقوس من الخبراء المعروفين وهم الكهنة أدعياء الطب، وكانوا يرجون من ورائها فيما يبدو ، محاصيل طيبة أو زيادة فى عدد قطعانهم أو فوزاً فى الحرب مع قبيلة أخرى أو ما شاكل ذلك .

غير أنه فى وقت متأخر ، أصبح من دأب الفرد، بعد أن ارتفعت أهميته بالنسبة لنفسه وتضاءل شأنه بالنسبة للجماعة التى هو عضو فيها ، أن يسعى إلى لفت نظر الإله أو الآلهة التى يؤمن بها ، كيفما كانت هذه الآلهة ، إلى ما يرجوه من مطالب ومطامح شخصية . وعلى ذلك فإن ما نتوقعه بصفة عامة فى مثل هذه الحالة وما نقف عليه بالفعل فى الديانة اليونانية القديمة ، هو نمو العبادات الفردية وازدهارها . وآية ذلك أن من بين الآلهة اليونانية التى كانت تحظى بأعظم قدر من الشعبية فى مختلف أنحاء اليونان ، منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد حتى زوال العبادة الوثنية أمام قوى الديانة المسيحية الناهضة ، إله يدعى أسكليبيوس (أسقولاب) Asklepios . وقد كان هذا الإله رغم ما كانت تحيطه مختلف الجماعات من التكريم ، يتلقى بوجه خاص استغاثة أفراد يقصدونه والتماسهم ليبرئهم من عللهم بماله من مهارة طبية تفوق مهارة البشر . ولما لم يكن هناك عقيدة رسمية أو سلطة مركزية تعمل على تنظيم العقائد ، فقد كان بوسع الفرد أن يضع للطقوس التى يسهم فيها ، جماعية كانت أو غير جماعية ، من التفسيرات والتعليلات ما يشاء، وكان من

دأب هذه التفسيرات فى كثير من الأحيان أن تدعو إلى إيمان يغلب عليه فكرة الحياة الأخرى على نحو يفوق ما يمكن أن نجده فى أقدم العصور . لقد كانت ثمة أفكار سامية مستمدة من فلسفات لم تتأثر فى الأصل بأية ميول دينية خاصة ، تصطنع فى تعليل طقوس ومراسم ، لا جدال فى أن مبتدعيهـــا حقيقون بأن تستبد بهم الدهشة ويتولاهم العجب إذ يجدون أنفسهم وقد نسبت إليهم مثل هذه المقاصد والنوايا . وهكذا أصبحت الطريق ممهدة لنشأة نظريات دينية عالية بالغة الدقة ، توافرت لها القدرة ردحا من الزمن على منافسة الديانات الجديدة ذات الآراء المتطورة التى شرعت تستأثر بالعالم شيئا فشيئا ، فى اجتذاب أهل الفكر والورع والحظوة بتأييدهم . وهدف هذا الكتاب هو تتبع المعالم الرئيسية لمراحل هذا التطور الطويل الهام ، أما إذا قصدنا إلى دراسته تفصيلا فذلك يتطلب مجلدات كثيرة .

الفصل الثاني

آلهة العوام

الديانة اليونانية ، كما تتبدى لنا فى العصور التاريخية ، ديانة تقوم على تعدد الآلهة . وكان عدد آلهتها غير يسير ، تمثل فى أكثرها شخصيات محددة القسمات واضحة المعالم ، فى حين أن مهامها ووظائفها لا تصل فى تمييزها بعضها عن البعض إلى المدى الذى تصل إليه شخصياتها فى هذا المجال . مثال ذلك أن آريس Ares هو إله الحرب ، إلا أنه قد كان هناك عدد من الآلهة ممن كانوا يقومون بوظائف حربية ، وخاصة أثينا ، فى حين أن الديوسكوروى Dioskuroi كانوا يقدمون العون فى بعض الأحيان لا فى البحر فحسب بل فى ميدان القتال أيضا . ثم إن الإلهة ديميتر Demeter كانت هى إلهة الحنطة ، بيد أن من بين الألقاب التى كانت تطلق على الإله زيوس لقب « الزارع » Georgos . وعلى حين أن كلا من أبولون وزيوس كانا على حد سواء يوحيان بالغيب فقد كانت معابد الوحى الموقوفة على آلهة أخرى ، شائعة جداً ، هذا إلى أن عدداً من الأبطال أيضا كانوا يقومون بوظائف مماثلة . وعلى الرغم من أن أسكليبيوس أيضا كان الإله المتخصص فى الطب ، إلا أن معجزات الشفاء كانت تروى عن معابد لا تمت إليه بصلة . وكانت أرتميس Artemis تعتبر بوجه عام إلهة الصيادين ، إلا أننا نعلم بوجود أعمال سحرية تتصل بالصيد وتنسب إلى الإله بان Pan ، كما كانت لأرتميس وظيفة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، ألا وهى مساعدة النسوة عندما يأتيهن المخاض . وهذه الحقائق وحدها ، دون ذكر كثير غيرها مما يشير إلى الاتجاه ذاته ، تكفى للدلالة على نحو واضح جلى على أن الآلهة اليونانية لم تكن نتيجة تقسيم منظم لأوجه النشاط الذى يستأثر بأعظم قدر من اهتمام الإنسان ، بين عدد من الكائنات التى يظن أن لها سلطانا على العالم ، بل كانت ثمرة مرحلة طويلة من النمو الذى لم ينطو

فحسب على تطور أو تعديل لهذا الإله أو ذاك بل تضمن أيضا تجميعا لعدد من العقائد المختلفة فيما يشبه النظام الموحد ، ومن هذه العقائد ما جلبه إلى شبه الجزيرة المهاجرون الذين كانوا يتكلمون اليونانية ، كما جاء فى الفصل السابق، ومنها ما كان قائما قبل حلولهم بها ، ونعود فنقول إن لنا ما يبرر اعتقادنا فى أن الجماعات المختلفة التى كان يتألف منها جمهور الوافدين الجدد والجماعات المختلفة التى كان ينقسم إليها السكان القدامى كانت تعبد فى الأصل آلهة مختلفة . والمعروف أن الديانات القائمة على تعدد الآلهة تميل كقاعدة عامة إلى جانب التسامح ، وعندما يعلم أتباعها بوجود آلهة أخرى غير آلهتهم ، يحدث أمر من هذه الأمور الثلاثة : فإما أن يحتضنوا هذه الآلهة ويعبدوها جنبا إلى جنب مع الآلهة التى كانوا يعرفونها من قبل ، وإما أن يسلموا بها باعتبارها موضعا للعبادة من شعب آخر ، وعلى ذلك فإنه يبدو أن اليهودى ، من أبناء العصر القديم السابق على ظهور الأنبياء ، كان على تمام الاستعداد للتسليم بأن كيموش Chemosh أو بعل بيور Ba'al Peor من الآلهة ، وبأن فى الإمكان أن يعبده بعض الأجانب ، فى حين أنه وأبناء وطنه ظلوا يقدسون يهوه[1] ويحيطونه بألوان التكريم والتعظيم باعتباره أقوى سلطانا من الآلهة الأجنبية ، أو أنهم يقرنون ، وهذه آخر الحالات الثلاث ، القوى الجديدة بالكائنات العلوية الخاصة بهم ، وقد يتخذون من ذلك الاسم الأجنبى لقبا لإلههم المحلى ، أو يكتفون بالقول بأن هذا الشعب أو ذاك يعبد إلها من الآلهة التى يعرفونها هم ، وإن كان هذا الشعب المقصود يطلق عليه اسما مخالفا .

ومن ثم يؤكد لنا طائفة من الكتاب أن المصريين كانوا يعبدون هرميس وديميتر ويعنون بذلك توت وحتحور . وبوسعنا أن نقف فى بلاد اليونان على

---

(١) ولعله من الجدير بالذكر انه لاوجود لكلمة (يهوه) جيهوفاه كاسم وقد نشأ هذا الاسم فى الاصل عن مزج بين الحروف الساكنة فى لفظة يهوه ياهويه Yahweh (Jahveh) وبين الحروف المتحركة لكلمة « ادوناى » adonai بمعنى «ربى» وهكذا حل هذا التعبير عند القراءة بصوت مرتفع محل الاسم الالهى الذى يحرم النطق به .

أمثلة تنطبق على جميع هذه الحالات . فهناك من القرائن ما يقطع بأن ديونيسوس Dionysos وفد من خارج البلاد ، ويحتمل أن يكون قد جاء من فريجيا Phrygia خلال العصور التاريخية ، وقد اصطحب هذا الإله اسمه معه فيما يبدو . ثم إن كيبيلى Kybele وأنا يتيس Anaitis وطائفة أخرى من الإلهات الأمهات كن معروفات لدى الكتاب اليونانيين القدماء ، غير أن الإغريق تركوهن فى الغالب لعبادهن الأصليين . وعندما حل الدوريون بأسبرطة نحو عام ١٠٠٠ ق م ، جاءوا بإلهة جديدة هى أورثيا Ortheia أو أورثيا Orthia وكانت هذه تشبه ، فى بعض الوجوه ، الإلهة المحلية القديمة أرتميس .

ولم يمض وقت طويل حتى استقر الرأى العام على أن أورثيا هى أرتميس تحت اسم أو لقب جديد وقد اكتسبت أرتميس أورثيا Artemis Orthia أو أورثوسيا Orthosia كما عدلت التسمية السابقة لغرابتها على الأسماع ، شهرة غير قليلة .

بيد أن الديانة القائمة على تعدد الآلهة ، تتطور ، شأن أى ضرب من ضروب الديانات الأخرى ، بتطور الشعوب التى تمارسها ، فتتدرج من كونها عقيدة بسيطة فجة إلى أن تصبح عقيدة أسمى مرتبة وأشد تعقيدا فى الكثير الغالب . لقد كان أسلاف اليونانيين القدماء ، وحالهم فى ذلك لا يختلف عن حال أى شعب آخر ، همجا متوحشين ، خلال حقبة من الزمن ، وقد تخلف لدى ذريتهم ، سواء فى طقوسهم الدينية أو ما شابه الطقوس الدينية من عادات أخرى ، قدر ضئيل من آثار تلك المرحلة من مراحل التطور ، قدر له أن يتحجر ويصبح فى معظمه قليل الضرر . أما المرحلة البربرية ، وهى المرحلة التالية التى تسمو على المرحلة الهمجية ، فقد خلفت فى الحضارة الكلاسيكية القديمة آثاراً أوفر عدداً وأكثر وضوحاً . وفضلا عن ذلك ، فإنه لما كانت القاعدة التى قامت عليها حضارة العالم القديم زراعية وليست صناعية ، وأن منطقة واحدة من مناطق العالم القديم لم تكن تشتمل على ما يمكن مقارنته بحال بمصانعنا الهائلة المتشعبة ، فقد ظل الفلاحون

رغم ما حققته الحياة بالمدينة من تقدم ملموس ، يؤلفون نسبة كبيرة من السكان ، وقد كان من دأب هؤلاء ، بالنظر إلى عيشهم فى مجتمعات صغيرة وضآلة الفرص المتاحة لهم فى سبيل تحسين أحوالهم ، أن يحرصـــوا أشد الحرص على عوائد أسلافهم ، بخلاف أهل المدن الذين كانوا أقل منهم حظا من المحافظة ، ومن ثم ظل هؤلاء الفلاحون يقومون بشعائر العبادة فى أسلوب قريب الشبه إلى حد كبير بأسلوب أبناء الأجيال الغابرة . وعلى ذلك فقد تخلف لديهم ، إلى عصور متأخرة أيضا جانب كبير من تلك الأساليب القديمة الساذجة التى كانت تتخذ فى التقرب إلى آلهة محلية غير نابهة يمكن أن تقرن أو لا تقرن بتلك الشوامخ من أصحاب المعابد الضخمة والاحتفالات الفخمة الذين كان يألفهم من عاش فى بقعة مثل أثينا . وإذا أردنا أن نعرف كيف كانت أساليب العبادة الإغريقية فى أقدم ما يمكن أن نتوصل إليه من صورها ، فلا يجدر بنا أن نرجع إلى أقدم وثيقة مكتوبة لدينا ، وهى القصائد الهومرية ، حيث إن هذه قد نظمت من أجل طبقة أرستقراطية تفوق فى تقدمها الفكرى والتطبيق العملى الشعب البائس الذى تسوده ، بل ينبغى أن نعود إلى ما يرويه لنا الكتاب فى مختلف العصور فيما يتعلق بعادات أهل الريف وطرائق حياتهم . ومن حسن الحظ أن لدينا فى هذا الشأن مادة غنية إلى حد بعيد ، فضلا عن أن هناك من بين وثائقنا الرئيسية الهامة ، وثيقة ترجع أيضا إلى عصر متأخر ، وهى دليل بلاد اليونان الذى وضعه باوسانياس Pausanias (القرن الثانى الميلادى) وهو رجل نابه محقق ، لخدمة السائحين المغرمين مثله بالآثار والذين يكنون الاحترام لديانة البلد الذى يتكلمون لغته .

إن علم الإنسان أو الانثروبولوجيا يرشدنا إلى ما ينبغى أن نبحث عنه ؛ أى أنه يعلمنا بعبارة أخرى أن نتبين أهمية تلك العناصر التى تعد بدائية بالنظر إلى ما عداها ، عندما نعثر عليها .

وكيفما يكن الأصل الأول للأديان — وهى مسألة لن نضطر لحسن الحظ إلى الخوض فيها فى حدود ما رسمناه لأنفسنا من أغراض — فثمة ظاهرتان ترجعان دون شك إلى زمن مبكر سحيق ، إذ أنهما قد نشأتا خلال مرحلة حضارية أدنى

مرتبة من أية مرحلة أخرى يمكننا أن نقف لها على أثر فى الأقطار اليونانية فى الوقت الحاضر . وقد أطلق على هاتين الظاهرتين اسمان يبدوان على شيء من التحذلق ، ألا وهما الدينامية dynamism والروحانية animism ، فى حين أنهما تبلغان الغاية من حيث بساطتها وقربها من الأفهام ، ولا غرو فهما من بنات أفكار شعب بسيط ساذج .

أما الفكرة الأولى ، وهى التى تبدو بوجه عام غامضة مبهمة ويكاد يتعذر التعبير عنها بكلمات واضحة محددة ، فتقول بوجود قوة ما ، لاتختص حتما بكائن بعينه ، وإن كان الغالب أن توجد فى حوزة رجل من الوجهاء النابهين أو امرأة كريمة مرموقة، أو أى شيء آخر لا يمت إلى الآدمية بصلة وإن فاق البشر فى قدرته ، كأن يكون إلها أو روحا أودابة أوطائرا (وعادة ما تنسب إلى هذه قوات غريبة، نظرا لما يتمتع به كثير منها من بأس ودهاء حقيقيين أو لمجرد قصور فى معرفة طباعها) . وقد تكشف هذه القوة عن نفسها فى أشكال وهيئات أبعد ما تكون عن التصور ، كأن تكون عصا مثلا أو قطعة من الحجر فيظن أن لها خصائص معينة أو تحل بشارات سحرية ، أو تركيبات لفظية أو حركات طقسية . ولعل أشهر لفظة تتخذ فى الدلالة على هذه القوة هى الكلمة البولينية Polynesian أو الميلانيسية Melanesian "mana" . ورغم أن هذه اللفظة لم تكن تتعدى كونها اسما بمعنى القوة أو صفة بمعنى القوى ، ذلك لأنها فى الوقت ذاته اسم ، إلا أنها جنحت إلى التخصص فى معناها . وعمل مانا كما ، يقول الأسقف كودرنجتون الذى كان أول من لفت أنظار الباحثين الأوربين إليها « هو أداء كل شيء يفوق القدرة المعتادة للإنسان ويخرج عن نطاق التطورات العادية للطبيعة ... وحال أن يستحوذ المرء على هذه المانا يصبح فى إمكانه أن يسخرها ويوجهها ، غير أن قوتها قد تنطلق عند نقطة معينة جديدة كما أن وجودها يمكن إثباته بالأدلة... ورغم أن هذه القوة هى قوة مجردة غير مادية فى حد ذاتها إلا أنها دائما ماترتبط بشخص معين يقوم بتوجيهها ، وهى ملك لجميع الأرواح وغالبية الأشباح وبعض الناس » .

ويضيف الأسقف كودرنجتون قائلا : إن جميع الديانات الميلانيسية تقوم فى واقع الأمر على محاولة الفرد الحصول على هذه المانا لنفسه ، أو تسخيرها لخدمته » . (١)

أما الظاهرة الأخرى فهى الروحانية animism وهى لا تعدو تلك الحالة الذهنية التى يأبى فيها العقل أن يتصور شيئاً خالياً من الروح تماما .... وإنما يرجع الفضل إلى قرون عدة من التفكير العلمى ، فى أننا قد أصبحنا ندرك فى الوقت الحاضر أن النهر مثلا لا يعدو كونه كمية من المياه أو خليطا غير عضوى عاجزاً تمام العجز عن ممارسة أى نوع من الحياة ، وأنه يتحرك حركة آلية بفعل الجاذبية . وليس أدل على أن تلك الفكرة القديمة القائلة بأن النهر كائن حى قريبة كل القرب من مفاهيمنا الحالية ، من الذلاقة التى نتحدث بها عنه حين نقول إنه غاضب ووادع وثائر وخامل إلى غير ذلك من الصفات ، فضلا عن أن هذه الحال لا تقتصر فحسب على المؤلفات الأدبية الخيالية أو المنظومات الشعرية ، بل تتعداها إلى لغة الكلام التى لا ترتفع إلا قليلا عن المستوى الأدنى والأعم لأسلوبنا اليومى الدارج فى الحديث.

وفى المراحل الأولى لتطور الإنسان ، وقبل أن يبذل أيا من تلك الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل التفكير الدقيق المجرد حتى من جانب أقدر أفراد الجنس البشرى ، لم يكن يداخل الفرد أدنى شك فى أن النهر كائن حى" لأن سلوكه يشبه فى كثير من الوجوه سلوك الإنسان أو الحيوان . فهو يتحرك كما يتحركان ويلغط بالأصوات مثلما يلغطان ، وقد يضر أو ينفع ، وتصدر عنه أحيانا أمور غريبة تحير الألباب ، كأن يختفى تحت الأرض ثم يظهر مرة أخرى على سطح فى بقعة بعيدة ، أو أن يختفى صيفا ليعود إلى الظهور فى الشتاء . وفضلا عن ذلك فالأنهار ليست سواسية ، لأن بعضها سريع الجريان وبعضها الآخر بطىء فى تدفقه ، ومنها ما هو صافى المياه رائقها ومنها ما هو كدر يخالط الوحل ماءه ، وهكذا دواليك . وكان الرأى فى ذلك واضحاً جليا ، بالنظر إلى ما كانت عليه المعرفة

---

(1) R. H. Codrington, The Melanesians, Oxford, 1891, p. 118.

بالطبيعة من ضآلة متناهية فى ذلك العصر ، وهو أن النهر كائن حى بالغ القوة ، يتملك قدراً كبيرا من المانا ، ويمثل إما جسداً لشخص أعظم من الإنسان وإما مسكنا لهذا الشخص — وقد كانت هذه هى نظرة الإغريق الشائعة إليه — أو أنه يتمتع على نحو خفى غامض آخر بالحياة والإرادة الذاتية وبقسط عظيم من القوة أيضا يحسن معه بالفرد أن يعامله بالاحترام وأن يتجنب إثارة غضبه . ولا غرابة إذن فى أن الأنهار كانت تحمل صفة القدسية فى الفكر اليونانى القديم ثم فى التصور الشعرى اليونانى فيما بعد ، وأنه كان لكل نهر إله الكائن فيه ، وأن الناس كانوا يتصورونه عادة فى هيئة قريبة من هيئة الثور ، وكان هذا هو أقوى حيوان فى مجموعة الحيوانات التى يعرفونها ، كما كان أكثرها ضجيجا أثناء خواره . وبالنسبة لمن كانت تضطرهم أعمالهم بين الحين والحين إلى أن يعبروا خوضاً قنوات واسعة تمتلىء بفيض من أمطار الشتاء ، لم يكن هناك وجه للغرابة فى تلك الأحدوثة التى كانت تروى كيف أن النهر أخيلوس Acheloos قد اقتتل مع هرقل Heracles وكيف أنه لم يهزم إلا بعد صراع مرير . بيد أن موضع العجب فى القصة كان تجلى ذلك الإله النهر فى صورة مرئية ، أو على الأصح فى عدة صور فكان يظهر كثور مرة وكحية مرة أخرى . غير أن هيراكليس لم يكن بالإنسان العادى فهو نصف إله ، ومن ثم كان من المنتظر أن يرى أشخاص الآلهة ذاتها فى الوقت الذى لا يبصر فيه الإنسان العادى بغير تلك الأجزاء من الطبيعة التى تخضع لسيطرة هذه الآلهة خضوعا مباشراً . وكان من شأن هذا الميل إلى الروحانية ، مقرونا فيما يبدو بالإيمان بشىء شبيه « بالمانا » إلى حد بعيد ، أن نسبت الحياة والقوة إلى أشياء كثيرة تبتعد أشواطا أخرى عن المياه الجارية فيما تحمل من مظاهر الحياة . ثم إنه لا يمكن أن يطول الوقت بإنسان حتى يدرك قوة العاطفة الجنسية ، ومن ثم فليس بعجيب أن يكون لإله الرغبة (Eros) عداء فى ثيسبياى Thespiai فى بويوتيا Boiotia ولا وجه للغرابة فى أنهم قد اعترفوا بوجود مثل هذه القوة ، ولكن الغريب فى الأمر أنهم انتهوا فيما يبدو إلى الرأى القائل بأن قوة المانا التى لهذا الإله إنما تتركز فى قطعة خشنة من الحجر ، وهو أمر لم يكن متوقعا على الإطلاق .

كما لم تكن هذه القطعة من الحجر سوى واحدة من كثير من الأحجار المقدسة التى تماثلها والتى كانت تلقى التكريم والتبجيل فى مختلف أصقاع بلاد اليونان قاصيها ودانيها ، كما أنهـا ظلت لفترة طويلة من الزمن ، موضع احترام وتقديس بالغين وذلك بعد أن ألحقت بهـا فى معظم البلاد أصنام للآلهة التى كان يعتقد أنها تسكن هذه الأحجار. فقد كانت أورخومينوس Orchomenos وهى مدينة عريقة أخرى من مدن بويوتيا تقيم شعائر العبادة للخاريتيس Charites وهن آلهات يبدو أن تسميتهن هذه ومعناها الرشيقات أو الجميلات كانت تشير فى الأصل إلى مقدرتهن على أن يخلعن على الحقول ثوبا قشيبا وهو ما يأتى به المحصول الطيب . وقد وجد الفنانون اليونانيون فى هذه الإلهات مادة خصبة لفنهم فتمثلوهن فتيات رشيقات . وما من شك فى أن هناك تماثيل على هذه الصورة كانت مقامة لهن فى أورخومينوس وقت أن زارها باوسانياس .

بيد أن هذه لم تكن الأشياء الرئيسية لعبادتهن ، بل لم تكن تعدو هدايا حديثة أقيمت لهن فى العصر الذى كان باوسانياس يعيش فيـه . أما ما كان جديراً بالعبـادة فى واقع الأمر ، فهو مجموعة من الأحجار التى تعطى شكلا ما ، والتى لا تبعد أن تكون شهباً ، حيث إن هناك رواية تقول إنها سقطت من السماء فى عهد الملك الأسطورى إتيوكليس Eteokles ولعلنا نقف هنا على أحد الأسباب التى دعت إلى الإيمان بالأحجـار التى لم تمسها يد إنسان ، فالشهاب فى ندرته وتأثيره على النفس حقيق بأن يدفع إلى الإيمان بقواه الخارقة ، وبخاصة بين أناس لم يكن لديهم أى فكرة عن طبيعته الحقيقية .

ولعل البعض الآخر من هذه المقدسات القديمة لم يكن غير أحجار قائمة يرجع تاريخها إلى أزمنة سحيقة ، مثل تلك الأحجار التى تشاهد فى أنحاء كثيرة من أوربا إلى يومنا هـذا ، وهى من آثار شعوب العصر الحجرى الحديث . وكيفما كان الحال ، فمثل هذه العقائد كانت شائعة جداً فى الزمن القديم ، ولعل أقصى ما يمكن أن نبلغه فى تفسير نشأتهـا هو أن سكان البلاد قد استقر رأيهم استنادا إلى سبب

معين بدا لهم قاطعا دامغا على أن هذه الأحجار إما أن تكون موطنا لكائنات غير مرئية وإما أنها تحتوى على « مانا » .

وليس من الضرورى أن يستتبع ذلك أنهم شرعوا يقرنون تلك الأحجار التى لا شكل لها والتى اتخذوها موضعا لعبادتهم بأى من الآلهة الكبرى أو الصغرى التى كانت شائعة لديهم ، والتى بتنا نأنس لها نحن أيضا بفضل المؤلفات العديدة التى وضعت عن علم الأساطير . والحق أن مثل هذه الحالات التى كان يقرن فيها جسم مجهول بإله معروف لم تكن بالحالات القليلة النادرة . ذلك أنه فى مدينة فاراى Pharai بإقليم آخيا Achaia كانت تقوم إلى جانب تمثال هرميس (الذى شيد معبده بالسوق العامة) نحو ثلاثين قطعة حجرية غير خالية تماما من الصنعة ، إذ أنها كانت مصقولة الأسطح مقومة الزوايا ، وكان الأهلون يقرنون بكل منها اسم إله . بيد أنه لم يكن هناك محاريب فحسب موقوفة على آلهة مجهولة ، كما فى أثينا وإليس Elis ، بل لقد كانت ثمة طائفة من الآلهة تتلقى عبادة فى مجتمعات محلية دون أن تحمل فيما يبدو أى أسماء على الإطلاق . وعلى هذا النحو كان يقع على مسافة غير بعيدة من بلدة ميجالوبولس Megalopolis ، فى أركاديا Arkadia معبد لقوة كانت تعرف بكل بساطة باسم « الإله الخيّر » Agathòs Théos ، فى حين أن سكان منطقة بوليس Bulis المجاورة لفوكيس Phokis كانوا يخصون بعباداتهم — رغم اعترافهم وعبادتهم أيضا لبعض الآلهة والإلهات المعروفات — كائنا بعينه لم يكن يطلقون عليه اسما معينا بل ينادونه بلقب الإله الأكبر Mégistos .

ولعل فى هذه الحقيقة وأمثالها ما ينطوى تحت نظرية هيرودوتس القائلة إن البلاسجيين ظلوا على جهل تام بأسماء الآلهة ، حتى أخذوها عن غيرهم ، غير أن هذه الحقيقة تثبت بالنسبة لنا أحد أمرين ، إما أن فكرة المجتمعات المحلية عن الطبيعة الإلهية كان يخالطها شىء من الإبهام والغموض كأن يكون قد تبين للأهلين وجود قوة إلهية فى بقعة بعينها من المنطقة غير أنهم اكتفوا بأن أطلقوا على « المانا » التى تكشفت لهم فى هذه البقعة لقبا للإجلال فحسب — وإما أن اسم إلههم كان يعد سرا غاليا دفينا لا ينبغى كشف الستر عنه ، ومن ثم كانوا يأبون البوح به لأحد .

وهذه الحقيقة الأخيرة ترتبط فى واقع الأمر بفكرة غاية فى القدم ، مؤداها أن اسم الشخص إنما هو جزء منه وأن من يعرف الاسم الصحيح يكون له سلطان على صاحبه. هذه الفكرة ثابتة متأصلة تتجلى فى عدد لاحصر له من التعاويذ والطلاسم ، حين يزعم الساحر أنه إنما يستحضر القوة التى يرغب فى تسخيرها لخدمته ، بمناداتها باسمها الصحيح ، بيد أن جذورها تضرب إلى أبعد من ذلك فى تاريخ البشرية . وأيا كان التفسير الصحيح من هذين التفسيرين ، فإننا عندما نجد أن قوة غامضة مجهولة الاسم تعتبر أهم معبود فى مجتمع يونانى صغير ، فهذا قبس من نور يهدينا إلى أصول عبادتهم المعقدة القائمة على تعدد الآلهة ؛ ذلك أن دوائر كثيرة قد أسهمت فى الأسرة الأوليمبية الكبيرة التى يقف على رأسها — وفقا للأساطير الحقة — الإله زيوس ، وهذا من الأسباب التى أدت إلى تداخل خصائص الآلهة فى كثير من الأحيان ، الأمر الذى لم يكن ليحدث لو أن جماعة واحدة هى التى اهتدت بفكرها فى الأصل وفى وقت واحد إلى الآلهة أجمعين .

وكان من الطبيعى فى أى مجتمع قدر له أن يؤمن أصلا بمثل هذه الكائنات أن يلتمس منها فى الغالب هذه الهبات ذاتها ، ألا وهى الكفاية فى الطعام وسلامة نسائه عند الوضع وزيادة رءوس أغنامه وقطعانه وحمايته من أعدائه من الإنس والوحوش . وعلى ذلك فإذا ماقامت جماعة من الجماعات ، لسبب من الأسباب ، بتبنى إله جماعة أخرى ، فليس معنى ذلك بحال أنه قد تبين لها أن الإله أو الإلهة الجديدة قادرة على منح هبات مغايرة ، بل لعل السبب فى دعوتها هو الرغبة فى أن تنهض على نحو أكثر كفاية بتوفير النعم التى بدا أن القوة أو القوى التى تجرى عبادتها بالفعل عاجزة أو عازفة عن منحها بالقدر الكافى .

وإذا ما عاودنا النظر إلى تلك الآلهة التى كانت تعبدها المجتمعات اليونانية الصغيرة ، تبين لنا أنها كانت فى الغالب غامضة فى طبيعتها ، فضلا عن ضيق نطاق مهامها ووظائفها فى بعض الأحيان على نحو يفوق إلى حد بعيد ما كان عليه الحال بالنسبة للآلهة المعروفة جيدا . ولقد سبقت الإشارة إلى الإله (پان) Pan فى سياق آخر ، غير أن الجدير بالذكر هنا أن فريقا من عباده على أقل تقدير لم يكونوا

على يقين تام من أن هذا الإله يمثل شخصا واحدا أو عدة أشخاص. وعلى أية حال فإن أرستوفانيس وأفلاطون، بغض النظر عن الكتاب المتأخرين، كانا يعلمان بصيغة الجمع هذه «بانيس» Panes . بيد أن ذلك هو عين ما يحق لنا أن نتوقعه فى مثل هذه الأحوال، بل إن هذا هو ما لمسناه حقيقة فى عدة حالات مماثلة. وعلى أية حال فالمرجح أن اسمه كان يعنى «المغذى» أو «الراعى». وإنه لمن الميسور لنا أن نتصور كيف قامت فى أركاديا Arkadia حيث نشأت عبادته فى الأصل جماعات صغيرة كثيرة العدد من الرعاة، تعبد كل منها فى خشوع وقنوت «راعيها» الإلهى الذى كان يتمثل فيما يحتمل فى صورة عصا أو قطعة من الحجر تقام فى مكان مقدس، كما لا يستبعد أيضاً أن كل جماعة من هذه الجماعات كانت على أهبة الاستعداد لأن تعلن أن إلهها الرعوى «بان» يسمو على أمثاله من الآلهة الرعوية التى تدين لها الجماعات الأخرى. وقد يصدق هذا فى كلتا الحالتين، سواء عرف الإله فى الأصل على أنه كائن مفرد، أو عدد من الكائنات، لأنه كان من دأب العقائد المحلية أن تتفشت على النحو السالف. وإن كان ثمة ما هو مؤكد فهو أن مريم العذراء شخص واحد فى جميع المذاهب اللاهوتية المسيحية، كما أنه ما من عقيدة تفوق عقيدتها شيوعا فى بلاد اليونان الحديثة، ولكنى قرأت أن مزارعا من جزيرة خيوس Chios أبى إلا أن يعلن فى لهجة حازمة لا تنم أيضا عن رقة كبيرة أن «باناييا» Panaghià كنيسة قريته (وباناييا معناها «كلية القداسة» وهو الاسم الشائع لمريم العذراء) قادرة على أن تبز جميع «البانايايات» الأخريات أيا كن.

ولم يكن هذا الراعى الإلهى ذاته شخصية سامية كل السمو، كما لم يكن يقابل بالتوقير والتبجيل الصادقين، أو ما نعتبره نحن كذلك، حتى من جانب من كانوا يعبدونه بكل ماوسعوا من إخلاص ووفاء. وكانت وظيفته (لأن لكل إله واجباته بل إن زيوس نفسه كان يحمد له «إحسانه» إن أرسل أمطارا مواتية) هى العمل على توفير اللحوم لعباده من الرعاة بالقدر الكافى. وكانت السبيل الواضحة لتحقيق ذلك هى العمل على زيادة عدد قطعانهم وماشيتهم زيادة هائلة، وقد كانوا يرعون

فى الغالب الماشية الصغيرة والأغنام والمعز ، وخاصة الصنف الأخير فيما يبدو . وهنا يظهر أن العامل المباشر فى تكاثر قطيع من المعز هو التيس ، والإله « بان » كان ينظر إليه فى الأصل على أنه تيس إلهى . فإن قدر أن يتخذ له تمثال صنم يمثله ، كان يظهر عادة بسيقان معز ولحية كثيفة شعثة ، كما أن الأساطير القليلة التى تروى عنه تجعله لا يقل فى شبقه عن الأصل الذى نقل عنه . ولم تكن قوته بالقوة الثابتة التى لا يعتريها ضعف أو وهن ، ومن ثم فقد تدعو الحاجة من وقت إلى آخر إلى حفزها وتجديدها . كما كان الحال بالنسبة لعدد غير قليل من الآلهة فى مختلف ديانات كثيرة متعددة وكانت هذه هى الطريقة المتبعة فيما تعلم ؛ فقد كان من عادة الصبية إذا ما قلت موارد اللحم سواء المستمد منه من القطعان أو من الصيد ، أن يضربوا « بان » (أى تمثاله أو أى شىء آخر يمثله) بأعواد العنصل ، وهو نبات كان يعتقد أن من مميزاته طرد الشرور . وبذلك كانوا يستحثون الإله على بذل مزيد من الجهد ، ويخلصونه فى الوقت ذاته ، بقدر استطاعتهم ، مما قد يكون قد عرقل نشاطه من تأثيرات سيئة . أما أن يكون الأطفال هم الذين يقومون بهذا الطقس فذلك مما يميز كثيرا من الأعمال السحرية .

والحقيقة أن السحر — فى صوره البسيطة غير المتقعرة ، وهو الذى يختلف اختلافا بينا عن الأعمال السحرية المعقدة التى ظهرت فى عصور متأخرة ، بتعاويذها المركبة وتوائمها الرهيبة المتضمنة لأسماء قوى غريبة ، ثم صفاتها الشاذة ، وهو ما ينبغى أن نتعرض له فى إيجاز فى موضع آخر من هذا الكتاب — كان شائعا شيوعا كبيراً بين هذه المجتمعات الأولى . وبوسعنا أن نهتدى إلى قبس منه خلال ما قاله هسيود Hesiod ، وهو أول كاتب وصلت إلينا مؤلفاته ، لم ينبر للكتابة بقصد الترفيه عن قرائه فحسب بل لكى يسدى إليهم النصائح الرشيدة ويلقنهم المعلومات النافعة . وموطن هسيود هو أسكرا Askra وهى بلدة ريفية صغيرة تقع فى بويوتسيا ، أما عن وضعه الاجتماعى فقد كان مزارعا من صغار الملاك ، كما يرجع تاريخه فيما يرجح إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وهو إلى جانب مايورده من توجيهات خاصة بصناعة المحاريث ، وما يذكره من إرشادات تتعلق بالمواعيد

المناسبة للبذر وغيره من العمليات الزراعية الأخرى ، وما إلى ذلك من المسائل ذات الطابع العملى الواضح ، نراه يبسط — وهو لا يحيد أيضاً عن قصده الأول وهو إسداء النصيحة النافعة والإفضاء بالمعلومات المفيدة — طائفة من الوصايا التى لا بد أن تبدو للقارئ الحديث ، كخرافة غريبة فى حين أنها كانت دون شك تؤخذ فى عصره مأخذا جديا . وهاك إحداها :

لاتخض المياه الرقراقة التى تنساب فى جداول دائمة ، حتى تكون قد صليت موجها ناظريك إلى تلك المجارى الصافية ، وحتى تكون قد غسلت يديك فى مياهها الرائقة . لأن من يعبر نهراً بنفس شريرة ، ويدين غير طاهرتين يثير غضب الآلهة، وينال منها الويل والثبور بعد ذلك .

هذا مثل من الأمثلة البارزة على الروحانية التى سنتحدث عنها فيما بعد . فالنهر شيء حى ، ولا بد أنه سيستمع إلى صلاة عابر السبيل ، التى يسأله فيها دون شك أن يأذن له بإقلاق راحته وعبور مجراه . وهو صاحب سطوة ونفوذ لأن الإهانة التى توجه إليه تلقى الاستنكار من جانب « الآلهة » بصفة عامة ، وهو الذى ينتسب إلى جماعتهم الموقرة . ومن ثم وجب مراعاة آداب السلوك السليم عند التعامل معه . فعلى المسافر أن يبدأ أولا بأن يغسل يديه فى الماء، وبذلك يتخلص من أى رجس يحتمل أن يكون قد لحق بهما ، ويعقد صلته فى الوقت ذاته بالمجرى المائى ، على الصورة السالفة التى يبدو فيها وكأنه يصالحه بكفيه . ثم يسأله بعد ذلك ، فى أدب جم ، المعذرة عن تلك الجرأة التى يبيحها لنفسه ، وله حينئذ أن يقدم على عبوره . كما ينبغى أيضا التزام جانب الرقة والأدب عند التعامل مع مختلف القوى سواء الظاهر منها أو الخفى . وتخبرنا وصية أخرى بأنه يحرم تلبية الرغبات الجسدية الدنيا ، حيثما تستطيع الشمس أن ترانا ، أو فى مكان مكشوف ليلا «فالليالى ملك للباركين » ، بل ينبغى أن تتوافر لذلك كل أسباب العزلة الممكنة . وقد أضاف أحدهم — وقد يكون هسيود ذاته أو شخص آخر غيره فى ختام القصيدة (وهذا هو السبب فى أن جزءا من عنوانها المعروف يحمل عبارة « الأعمال والأيام ») — قائمة غريبة بالأيام السعيدة وأيام النحس فى الشهر

القمرى، فالغلام الذى يولد مثلا فى العشرين من الشهر ينتظر أن يكون ذكياً، واليوم العاشر أيضاً من الأيام الطيبة لولادة طفل ذكر ، وكذلك الرابع عشر بالنسبة للبنت ، واليوم الرابع عشر أيضا من الأيام المثلى للشروع فى تدريب كلب أو ترويض بغل أو ثور على العمل ، فى حين أن اليومين الرابعين فى بداية الشهر ونهايته لا يصلحان لأى عمل من الأعمال ، إذ أنهما لن يأتيا بغير المتاعب . ومن الحقائق الأخرى الثابتة ، وإن لم يكن يعرفها سوى القليل من الناس ، أن اليوم الأخير من الفترة القمرية هو أنسب الأوقات على الإطلاق لتدشين السفن . ولليوم التاسع عشر سويعاته الطيبة أيضاً وخاصة فى الصباح وأخريات الأصيل ، لكن ينبغى تحاشى اليوم الخامس لأنه يوم ميلاد هوركوس Horkos وهو القوة المتجهمة التى تنزل العقاب بالذين يحنثون فى أيمانهم (hoikoi) .

ومنذ عهد هسيود على وجه التقريب ، أخذ عدد القوى التى تقدم لها شعائر العبادة يزداد زيادة مطردة نتيجة لذيوع عبادة « الأعيان » (héroës) وهى العبادة التى تعرف لدينا عادة باسم عبادة الأبطال . والمعنى الأصلى الذى كانت تدور حوله كلمة « هيروس héros لم يكن يتعدى « الرجل الكريم المحتد أو النبيل » وخاصة من كان، فيما يبدو، ينتمى إلى أسرة من الأسر الآخايية القديمة التى تؤلف أعمالها المجيدة الموضوع الرئيسى للشعر الملحمى فى الكثير الغالب . ورغم أن أمثال هؤلاء الرجال كانوا يكرمون وهم أحياء « كما لو كانوا آلهة » ، إذا ما اثبتوا جدارتهم بالمركز الاجتماعى السامى الذى يحتلونه ، فليس ثمة ما يدل عند هومر على أنه كان يستشفع بهم بعد موتهم لمعونة الأحياء ، ولكن ذلك هو ما أصبح شائعاً أعظم الشيوع فيما بعد . ولعل الغزو الدورى الذى تخلل هذه الفترة والذى غير الطابع السياسى لشطر كبير من بلاد اليونان تغييراً كليا وأتى للفقراء من الأهالى بمجموعة جديدة ليست بذات شعبية كبيرة من النبلاء والسادة قد أحاط الطبقة الأرستقراطية القديمة بهالة من المجد براقة ملؤها الأسف من نقاط الضعف فيهم وتبرز فضائلهم وضاءة. وما من شك فى أن الآراء المتعلقة بمصير الإنسان بعد الموت قد تغيرت وتبدلت ، فبالنسبة لهومر وجمهوره كانت

هذه الحياة الدنيا هى كل ما يعنى به الإنسان فى واقع الأمر ، والموت ليس فناء بل إنه يعنى بالنسبة للجميع على حد سواء — فيما عدا فئة قليلة من ذوى الحظوة لدى الآلهة أو من بين أعدائهم — الانتقال إلى وجود هو خيال الظل، لا تستطيع فيه الروح أداء شيء غير مباشرة نوع أقرب إلى الصورة الباهتة للأعمال التى كانت تمارسها على وجه الأرض . ويظهر أن العامة كانت تؤمن أيضا بأن كل صاحب سطوة ونفوذ فى حياته أو كان قد نبه شأنه على وجه ما ، سيظل كذلك بعد مماته . وكيفما كان الحال ، فقد كانت بلاد اليونان فى عصرها التاريخى ، تكتظ بالقبور الحقيقية أو غير الحقيقية التى تنسب إلى مثل هؤلاء الأشخاص النابهين ، كما لم تكن العبادة المقدمة لهم تختلف عن تلك التى كانت تقام للآلهة الأرضية إلا فى كونها بوجه عام ، أهون منها شأنا وأشد منها التصاقا بالنطاق المحلى ، ويبدو أنه لم يكن فى وسع « البطل » أن يأتى بخير أو شر بعيداً عن النقطة التى تضم رفاته .

ولهذا السبب كانت تحتدم المنافسة من وقت لآخر فى سبيل إحراز هذه الرفات فقد جلبت أثينا من جزيرة سكيروس Skyros بعض العظام التى قيل إنها لثيسيوس Theseus ، كما عدت أسبرطة أن من الانتصارات الهامة التى أحرزتها ، استعادتها من تيجيا Tegea طائفة من البقايا الضخمة التى نسبتها فى ثقة إلى أوروستيس Orestes ، فى حين فاخرت طيبة بأن فى حوزتها جثة فيكتور التى جيء بها من طروادة تحقيقا لإحدى النبوءات . كما أمرت نبوءة أخرى باقتناء رفات كل من ثيسيوس وأورستيس ، لأن دلفوس Delphoi كانت تؤيـــد تأييداً حاراً تلك العبادة الرائجة التى كانت تقدم إلى العظماء الراحلين ، بل لقد ذهب الأمر بها إلى حد أنها باركت تكريم شخص غير معروف لا يتميز بغير صيت ذائع على أنه « بطل » . وفضلا عن ذلك فقد جر هذا الضرب من العبادة الذى لقى رواجا وشيوعا بالغين إلى الخلط بين عدد غير قليل من الآلهة المحلية الصغيرة المختصة بالأرض وثمارها وبين هذه الأرواح المكرمة التى تقدم لها التكريم والإجلال كما حدث على سبيل المثال فى أميكلاى Amyklae من أعمال لاكونيا Lakonia حيث زود معبود قديم هو هياكنثوس Hyakinthus بأسطورة حديثة نسبيا ، تروى كيف

أنه كان غلاما نال الحظوة لدى أبولون ولكنه لقى حتفه على يديه خطأ . بل لقد كانت الآلهة الكبرى عرضة لهذا الخلط من وقت إلى آخر، فليس هناك من مبرر للشك فى أن كاليستو Kallisto وهى « البطلة » التى كانت تعبد فى أركاديا Arkadia ليست إلا أرتيميس Artemis ذاتها التى اتخذ لقبها «البارعة فى الجمال» kalliste وجودا مستقلا .

وبالإضافة إلى كل هؤلاء ، فمن رأى هسيود أن هناك عددا لاحصر له من الكائنات الخفية التى تصيب البشرية بالخير أو بالشر . فقد كان يعيش إبان العصر الذهبي أناس أعلى منا من كل وجه ، وقد أصبحوا عند وفاتهم أرواحا من الجان daimones — أى من المستحوذين فى ظننا على المانا — يمشون على الأرض خفية ، لحماية البشر وجلب النعم والخيرات لهم ، ومن ناحية أخرى ، فإن أرواح المرضى تحوم حولنا ليل نهار ، وهى وإن حرمت ملكة النطق إلا أنها لم تحرم القدرة على أن تلحق بنا الأذى .

وهكذا كان يعيش الرجل العادى فى بلاد اليونان القديمة ، فى عالم مليء بشتى صفوف القوى العلوية ، الجليلة منها والحقيرة ، الصديقة منها والمعادية ، وكان من الطبيعى أن يحاول إقامة علاقات سليمة معها ، فضلا عن الإبقاء على هذه العلاقات وصونها .

وقد تحقق له ذلك ، كما أوضحنا ، بتحاشيه الأعمال والأيام المنحوسة بقدر استطاعته . ولم يكن مثل هذا التحاشي يرجع كلية إلى السحر والخرافات . ذلك لأنه قد راجت منذ عصر سحيق ، فضلا عن هسيود نفسه، الفكرة القائلة بأن بعض هذه الكائنات على أقل تقدير ، وعلى رأس هذه الفئة الإله زيوس ، كانت تهتم بسلوك الإنسان وخلقه . فمن تعاليمه أنه إذا ما أنصف الناس بعضهم بعضا ، سواء كانوا أبناء وطن واحد أو غرباء أجانب ، فسيجزيهم الآلهة باليسر والرخاء ، وستغل حقولهم المحاصيل الوافرة وتأتى أشجارهم من البلوط بثمر كثير ويقيم النحل البرى خلاياه فيها ، وتتكاثر قطعانهم وماشيتهم ، وتحمل نساؤهم أطفالا أصحاء .

أما من يقترفون جريمة « الهيبريس » hybris أعنى الاستهانة الطائشة بحقوق الغير ، فلن ينالوا أيا من هذه النعم ، بل أحرى أن تصيبهم الأوبئة والمجاعات والعقم وتنزل بهم الكوارث فى الحرب وتقتلع سفنهم فى البحر . ومع ذلك فلا ينبغى أن نحسب أن جميع أهل الريف اليونانى ، كانت تراودهم هذه الفكرة المتطورة حول أخلاق الآلهة وآدابها. فقد قيل المرة تلو المرة أنه كان من المعتقدات الشائعة أن فى الإمكان مداهنة الآلهة أو رشوتها فى سبيل التغاضى عما يرتكب من ذنوب ، وأنها كانت كثيرة الاحتمال تمهل طويلا ، وهلم جرا ، فى حين أن المشكلة التى كانت موضع جدال طوال العهد القديم والتى لم تكن تشغل أذهان البسطاء وحدهم ، أنه إذا ما كانت هناك آلهة تهتم أدنى الاهتمام بتحقيق العدالة ، فلِمَ لا نرى أن الصالحين سعداء موفقون على الدوام ، وأن الأشرار تعساء عاثرو الحظ أبداً ؟ . والحقيقة أن الإيمان على الصورة التى آمن بها هسيود لم يكن قط من صميم الديانة القديمة التى لم يكن لها — كما سبق أن أوضحنا — قانون للإيمان أو شريعة أخلاقية ، وإنما كان ثمرة تأملات شخصية حول المعارف التى كانت فى متناول يده .

وعلى ذلك فقد يحاول الشخص العادى أن يصلح من سلوكه خشية أن يستثير غضب زيوس أو أى إله آخر ، بيد أنه كان من المحتم عليه أن يأخذ بنصيب فى الطقوس المقررة رغبة فى نيل رضاء مختلف القوى سواء الكبيرة أو الصغيرة التى يغلب على ظنه هو أو ظن إخوانه أنها أدعى إلى أن تسبغ البركات أو تصب اللعنات عليه وعلى مجتمعه . وبوسعنا أن نجمع من عدة مصادر شيئا ما هو أقرب إلى الصورة المركبة التى قد لا تصدق بحذافيرها على مكان بعينه أو زمن بعينه، وإن كانت تبلغ فى خطوطها الرئيسية حداً بعيداً من الدقة ، تبين كيف كان سلوك سواد الإغريق تجاه آلهتهم . ولم يتعرض الفصل الأول إلا فى القليل للطقوس المرعية داخل الأسرة ، وبوسعنا الآن أن نضيف شيئا آخر وخاصة فيما يتعلق بالأحداث الكبرى فى الحياة، وهى الميلاد والزواج والوفاة .

ولقد كان ميلاد الطفل وخاصة الابن ، فى العادة ، من الأحداث السعيدة

التى تقابل بالحفاوة والترحاب فى بلاد اليونان القديمة كما فى غيرها من البلاد . ذلك لأن واجبات الابن لم تكن تقتصر على رعاية أبويه فى شيخوختهما عندما يصبحان عاجزين عن القيام بشئونهما فحسب بل كانت تشمل أيضا العناية بروحيهما عندما يقضيان — ذلك لأن الراحلين من الأسرة أو العشيرة (génos) لم تكن تنحسر عنهم بموتهم عضويتهم فى هذه الأسرة أو العشيرة ، ثم إنهم لما كانوا من أعضائها الكبار ، فقد كان من حقهم تلقى فروض الاحترام وكريم المعاملة . غير أن هذا شىء وعبادة الأبطال التى سبقت الإشارة إليها شىء آخر ، رغم ارتباطهما بعضهما ببعض ، والظاهر أن الرعاية التى كانت تسبغ على روح الأب أو الأم لم تكن تختلف اختلافا جوهريا من حيث النية على أقل تقدير عن تلك التى كانت تمنح للشيوخ والمقعدين ، وكان الاعتقاد الشائع هو أن أرواح الموتى تواصل الحياة فى العالم السفلى على نحو غير واضح أو محدد المعالم ، وتتضارب دقائق هذا الاعتقاد وتتعارض كما هى العادة ، إذ يبدو أن الموتى كانوا فى ظنهم يواصلون الحياة فى قبورهم مثلما يواصلونها فى أرض الأموات التى يسودها هاديس Hades (« غير المنظور » ، وقد استخدم اسمه فى زمن متأخر للدلالة على مملكته بدلا منه) ومليكته برسيفونى Persephone أو برسيفاسا Persephassa ، وأن أرض الأموات هذه يفصلها عن عالمنا هذا أحد الأنهار ، ويعتقد فى الغالب الكبير أنه نهر ستيكس Stysc (الممقوت) الذى يجرى حقيقة فى أركاديا ، وإن ظن فيما يبدو أنه يواصل مجراه فى مكان ما تحت الأرض .

وعلى أية حال ، فقد كان الموتى يحتاجون ، حيثما وجدوا ، إلى مثل ما كانوا يحتاجون إليه فى الغالب إبان حياتهم من غذاء وشراب وملبس ومياه للاستحمام ، لأن الإغريق كانوا من أشد الناس مراعاة لقواعد النظافة . ومن ثم كان الطعام والشراب من أكثر القرابين المقدمة عند القبور شيوعا . وقد حفظ لنا أيسخيلوس Aeschylus قائمة بهذه القرابين المسماة بقرابين الرحمة التى يعتقد أنها كفيلة بكسب رضاء الراحلين ، وهى : اللبن والعسل (الذى اشتهر بأنه أعظم ما يصون الحياة ، ومن ثم فهو دون ريب مقبول لدى من فقدوا حياتهم الطبيعية) والماء

القراح والنبيذ وزيت الزيتون . ولما كانت جميع هذه القرابين من السوائل ، فقد كانت تسمى عادة المسكوبات choai أى المواد التى يمكن سكبها ، وكانت تفرغ فى حفرة فوق القبر أو بالقرب منه لضمان وصول هذه المواد إلى وجهتها الصحيحة وكان يحدث من وقت لآخر — وذلك لكى لا يوجد هناك أدنى شك — أن تزود الجثة بما يشبه الأنبوبة التى تنحدر إليها من خارج القبر .

ونعود إلى الحديث عن ولادة الطفل ، فقد كان للأم عندما يأتيها المخاض أن تلتمس العون من أرتميس Artemis أو إيلايثيا Eileithyia ، الإلهتين المتخصصتين فى القبالة ، كما كان بوسع النسوة القائمات على رعايتها — سواء كن من القابلات المحترفات أو من الجارات العطوفات — أن يستخدمن الرقى أو العقاقير التى يعرف عنها أنها تعجل الطلق . وكان الطفل الذى ولد حديثا فى حاجة إلى مراسيم طقس خاص ليمهد لاستقباله فى الأسرة وبين ظهرانى المجتمع البشرى بصفة عامة ، وقد تأتى لنا أن نلم بعض الإلمام بالكيفية التى كان يتم بها ذلك . كان الأثينيون يطلقون على هذا الطقس اسم « الدوران عدواً » amphidrémia ، ويحدث فى اليوم الخامس بعد مولد الطفل كما جاء بأحد المصادر القديمة ، أو اليوم السابع أو العاشر كما يقرر آخرون ، وكان على جميع النسوة اللائى قمن بخدمة الأم أن يغسلن أيديهن وفق طقوس معينة ، وبذلك يتطهرن ؛ لأن الولادة كانت تعد ، فضلا عما يكتنفها من أخطار بدنية ، عملا بالغ الخطر ، من ناحية السحر كما كان كل من له علاقة به يعتبر « نجسا » فى نظر جميع شعوب الأرض على وجه التقريب ، ممن يقفون دون المستويات العليا للمدنية الحديثة .

وليس أدل على خطورة عملية الولادة فى نظر الإغريق من تحريمهم حدوثها فى مكان مقدس ، شأن العملية الأخرى التى لم تكن تقل عنها خطورة وهى الموت . بيد أن الطفل كان فى حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك الطقس دقة . ومن ثم فإن القائمات بهذا الطقس المنزلى كن يجردن أنفسهن من الثياب ثم تلتقط إحداهن الطفل وتروح تعدو به حول مدفأة الأسرة . والهدف من هذا المشهد واضح

جلى . فالطفل بحمله وجعله ملاصقا للجسد العارى لأحد أفراد الأسرة ، إنما يمنح أوثق وأقرب صلة ممكنة بينه وبين أهله وذوى قرباه . وهو فى الوقت ذاته يتحرك فى سرعة خلال الهواء أملا فى أن تطرح عنه غرابته ، ثم إنه يعرض لحرارة النار دون أن يدنو منها بالقدر الذى يؤذيه ، فتطهره لأنها نار الإله هستيا Hestia المقدسة ، وقد تذهب أيضا ، فيما يرجح ، بما قد يحمله القادم الجديد من ضروب النحس . لقد أصبح الطفل الآن فرداً من أفراد الأسرة ، وعلاوة على ذلك ورغبة فى دعم هذه الصلة الجديدة وتوثيق هذه اللحمة ، كانت تقدم له الهدايا من جانب الأصدقاء والأقارب ، ولعله مما يثير الدهشة أن هذه الهدايا كانت تتألف فى العادة من أسماك التمونيات والحبارات ، التى كانت ومازالت من الأطعمة الشائعة فى بلاد اليونان ، وإن كانت لا تكاد تصلح لأن تكون غذاء للطفل وكان اليوم العاشر من مولد الطفل ، سواء خصص هذا اليوم موعداً لحفل الاستقبال السالف الذكر أو أنه لم يكن كذلك ، وهو يوم تسمية الطفل ، غير أننا نعود فنقول إن البعض هنا يؤثرون اليوم السابع ، وفيه كان الأصدقاء والجيران يدعون إلى حفل هو الصورة اليونانية المكافئة لحفل التعميد المسيحى . وقد جرت العادة على تقديم الضحايا فى مثل هـــذه المناسبة ، وكان لحم الضحية يمثل أهم مافى الوليمة وعنصرها الرئيسى .

ولقد كان اللحم فى الماضى وما زال لونا من ألوان الترف بالنسبة لليونانى العادى الذى يتألف طعامه المعتاد من الخبز (والسلطات) والخضروات وزيت الزيتون والجبن والشهد ثم الأسماك كلما تيسر له ذلك . وكانت الآلهة تشارك النبلاء الآخايين أذواقهم وميولهم ، وقد كان هؤلاء يكرهون الأسماك ويحبون اللحوم ويأكلونها بشراهة . وكانت القاعدة هى أن يقدم للطفل مزيد من الهدايا فى المناسبات التى يراه الناس فيها لأول مرة ، سواء حدث ذلك عقب الولادة مباشرة أو فى وقت آخر كما كان يحتفل بأعياد الميلاد مثلما نحتفل بها نحن .

أما الزواج فقد كانت تراعى عند الاحتفال به طقوسه الأساسية الجوهرية

على نحو يفوق ما نعهده نحن فى احتفالاتنا ، ذلك أن ما يحدث بالنسبة لنا هو أن مراسيم الزواج الأصلية ، تنقل ، بل عادة ما كانت تزاح كلية عن موضعها ، من جراء بعض الإجراءات الدينية أو المدنية أو كليهما . وثمة أجزاء رئيسية ثلاثة كان ينقسم إليها طقس الزواج الحق وهى: ضرورة انقطاع صلة البنوة بين العروس وأبيها ، كما يتحتم حمايتها فى تلك الفترة القصيرة التى لا تكون فيهـا بنتا أو زوجة ومن ثم تعوزها الآلهة المنزلية الخاصة بها ، من التأثيرات السيئة الشريرة ، ثم إنها يجب أن تندمج مع أسرة العريس . أما عن الجزء الأول ، فمعلوماتنا عنه قاصرة ، ولكنه كان يليق بالعروس أن تبالغ فى إظهار إعراضها ، ولعل عبـــارة « يصرخ كالعروس » باتت من الأقوال المأثورة . وفى بعض البلاد كان ثمة إجراء رمزى يتخذ للدلالة على هجر العروس نهائيـا لبيتها ، وهو إضرام النار فى احتفال مهيب ، فى عاتق العربة التى أقلتهـا إلى بيتها ، إشارة إلى أنها لن تعود إليه مرة أخرى . وكان يصحبها فى طريقها الأصدقاء والداعون لها بالخير من كلا الطرفين، وهم يغنون ويمزحون ويرفعون عقيرتهم بالصيحة الطقسية التى تقول « هو هومين هوميناى » ô hymèn hymenaîe ، وكان معنى هذه العبارة ، إن كان لها أصلا أى معنى قد امحى من الأذهان فى العهود الكلاسيكية إلى الحد الذى أصبحت فيه ألفاظها التقليدية هدفا للشرح والتعليق فى أقاصيص تتفاوت دقة وحبكة ، تدور حول شخص يدعى هومين Hymen ، قد يكون إنسانا أو إلهـا ، قام بشىء له علاقة بالسعادة الزوجية . وكانت العروس تقابل ، حال وصولها إلى بيت زوجها بسيل من « الكاتا خسماتا » katachysmata أى الجوز والفواكه والحلوى التى كانت تلقى على الزوج أيضا ، وبغض النظر عن العلة الأصلية لذلك ، وهى نقطة مثار خلاف بين من يبحثون فى الطقوس القديمة فى العصر الحديث ، فقد كانت هذه طريقة معروفة لاستقبال أى قادم جديد، يصبح فيما بعد واحداً من أهل البيت، ذلك لأن هذه العادة كانت تحدث أيضا عند استقبال عبد اشترى حديثا. بيد أنه لا خلاف حول السبب الذى من أجله يقام هذا الموكب الصاخب ، ولاسيما فيما يتعلق بتلك النكات البذيئة التى كانت جائزة فى مثل هذه المناسبات .

فقد كان مثل هذا الضرب من المزاح والدعابة التى كانت تقابل بمزيد من الاستحسان كلما ازدادت عبثاً بغيضاً ممقوتاً عند قوى العقم والشر بوجه عام ، تلك القوى التى تظهر فى جميع بقاع العالم فى غاية الاحتشام والوقار . ومن ثم فإن هذا المزاح يقف حائلا دون هذه القوى أو يطردها بعيداً إن كانت قد حلت فعلا . وكان لكل من العروس والزوج مرافقوهما الذين يشبهون لدينا وكيل الزوج ووصيفات العروس ، وكانت رفيقاتها من الفتيات اللائى فى مثل سنها ، وكان من بين واجباتهن إنشاد «الإبيثالاميوم» epithalamium وهى الأنشودة التى تغنى عند انسحاب الزوجين إلى حجرة نومهما . كما وصلتنا شذرات من طقوس أخرى غير هذه ، ويرجع الفضل فى ذلك غالبا إلى جهود الباحثين القدامى الذين قاموا بتفسير أسمائها لعصور كانت تستخدم طقوساً مغايرة ، أو كانت على أقل تقدير تطلق عليها أسماء أخرى . وكان من بين أسباب الوقاية التى تكفل للعروس غربال يحمل فيه ، ومن الميسور أن نتبين السبب فى ذلك ، لأن الغربال كان يستخدم فى جميع أنحاء أوربا لتضليل الأرواح الشريرة ، إذ يبدو أن هذه الأرواح لا تستطيع مقاومة الدافع إلى محاولة عد ثقوب الغربال . وفى أثناء انشغالها بهذا العمل تصبح غير قادرة على الإيذاء .

وفى بعض الأشكال الحديثة لهذا الاعتقاد ، تظهر غير قادرة على نطق الرقم ثلاثة لأنه عدد الثالوث المقدس ، ومن ثم تظل تردد « واحد اثنين واحد اثنين » حتى يختلط الأمر عليها تماماً .

ولعل فى وسعنا أن نقول إن كل ما قد يصيب العروس اليونانية من شر ، كان يوقف بصورة مشابهة عند أحد الأعداد المقدسة القديمة ، ولعله الرقم ٧ المقدس للإله أبولوت . كما أننا نعلم طرفاً من الطقس الذى كان يقوم به الزوج عندما يتعرف رسمياً على عروسه ، ويتضمن هذا الطقس رفع خمارها وأن يقدم زوجها لها « هدايا رفع النقاب » anakalyptéria ، وكانت هذه فى حد ذاتها طقساً من طقوس الاتحاد ، لأن إهداء المرء لبعض متاعه إنما هو إهداء منه لبعض ذاته ، وبذلك يكون قد قام بما يشبه مخالطته للمهدى إليه .

وفى مناسبة أخرى وبعد مضى فترة على الزواج ، عندما كان الزوج يقوم بزيارة أسرة العروس زيارة رسميـــة ويقضى الليلة هناك دون زوجته ، فقد كان العروسان يتبادلان الهدايا ، أما هى فكانت هديتها عباءة قد تكون من نسج يديها تقدمها له ليرتديها . بيد أن الأمر كله منذ عقد الخطبة حتى يبنى الزوج بزوجته كان محوطا بالطقوس والمراسيم ، التى كان يقصد بها دون شك استدرار عطف الآلهة والتماس حمايتها .

وثمة طقس لم يكن بحال وقفا على الأعراس ، والزواج إذ يتردد ظهوره فى مناسبات شتى . وهو أن الفتاة كانت تعمد ، قبل زفافها ، إلى شىء من شعرها فتقصه وتهديه قوة من القوى الملائمة ففى أثينا كانت هيرا وأرتميس وربات القدر Moirai أى « مقسمات الحظوظ » ، وهؤلاء كن يشهدن (وما زلن كذلك فى فى معتقدات العامة) ولادة الطفل ويقررن بما سيكون عليه مصيره ، من المتلقيات مثل هذه النذور .

أما فى ترويزن Troizen أو تروزن Trozen من أعمال البليوبونيزوس Peloponnesos . فقد كانت خصلات الشعر هذه تترك عند القبر الذى ينسب إلى هيبولوتوس Hippolytos بن ثيسيوس Theseus وهو ابن ساء حظه . استمد يوريبيديس Euripides من موته المبكر موضوع مسرحيتين من مسرحياته .

ولعل من الواضح الجلى أن خصلة من الشعر ليست بالشىء الجليل الخطر ، غير أنه إذا وضعنا فى اعتبارنا ما كان يعتقد فى الغالب من أن السحرة يستطيعون إيذاء المرء بسحرهم إذا ما استحوزوا على شىء من شعره (وهو اعتقاد تؤيده المصادر الكلاسيكية القديمة) فنى وسعنا أن نقف على بعض ما يبرر هذا الطقس . فإن ذلك يجعل فى وسع الإلهة أو البطل أن يعمل سحراً طيبا ينفع صاحبة النذر . ولسبب قريب من هذا السبب إلى حد بعيد ، كان الغلمان عندما يشرفون على سن الرجولة ، يقدمون بعض خصلات من شعرهم إلى النهر المحلى فى غالب الأحيان .

وبغير الماء لا تكون حياة ، وإله النهر الرحيم ، عندما يستحوذ على خصلات الشعر هذه ، يصبح فى وسعه أن ينفث الحياة كذى قبل فى ربيبه السابق .

ولكنه على الرغم من أن هذا هو المعنى الأصلى الذى كانت ترمى إليه هذه الهدايا المقدمة إلا أن نشأتها تعود القهقرى إلى زمن سحيق حتى إن أقدم المؤلفات اليونانية التى آلت إلينا ، تنظر إليها ، فيما يبدو . على أنها لا تعدو اعترافا بالفضل السابق وقرابين للشكر لا على أنها أعمال تشبه السحر .

وقد كان على أفراد الأسرة من الذكور أو الإناث ، ومن ثم على أفراد العشيرة génos التى تنتسب إليها هذه الأسرة ، واجباتهم الدينية قبل عشيرتهم . وقد نجد بين الفينة والفينة عشيرة كهنوتية ، مثل اليومولبيداى Eumolpidai فى إليوسس Eleusis الذين كانت لهم وظائفهم المحددة فيما يختص « بالأسرار الإليوسية » . بيد أنه بغض النظر عن هذه الأسرة ، فإنه يرجح أنه لم يكن سوى قليل من الأسر ، إن لم تكن معدومة ، كما لم تكن — وهذا يكاد يكون مؤكدا — عشائر أو منظمات محلية مثل القرى أو الديميات demes (والديموس dêmos هو وحدة السكان والأرض التى كانت تستخدم فى أتيكا وتعادل على نحو ما الأبرشية لدينا) ليس بها عباداتها الخاصة التى تدور حول أحد الآلهة أو الأبطال المغمورين أو حول واحد من الآلهة الكبار، تنظر إليه ، فيما يبدو على أنه إله أبوى (theòs patrôos) ، وكان المعنى المقصود من ذلك فى الغالب هو أنهم فى زعمهم من نسله وولده . ومع ذلك فإننا لا نعلم الكثير عن دقائق هذه العبادة ، إلا أن معلوماتنا تعد وافية بعض الشيء فيما يتعلق بالطقوس التى لم تكن وقفا على أسرة دون أخرى بل كانت مشاعا بين الأسر جميعا . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض هذه الطقوس كان مقرونا باسم عظيم جليل هو اسم الإله زيوس ، وأن المدفأة « هستيا » Hestia كانت فى عداد الآلهات ومن ثم كانت تتلقى ما تستحق من عبادة من جانب من يطهون طعامهم عليها ويصطلون بنارها ؛ ونضيف إلى ذلك أنه عندما قامت عبادة الأبطال ، أصبح لعدد غير يسير من الأسر « هيروس أو كوروس » héros oikuròs يختص بها

وحدها ، وهو الروح الصديقة التى « تصون البيت » ، وكانت هذه تظهر عادة فى صورة ثعبان غير ضار ، مثل ذلك الذى لا يزال يحوم بالدور الريفية اليونانية ، ويعرف غالبا باسم « السيد » aphentikò ويلقى الحدب والعطف إيمانا بأنه يجلب الحظ السعيد . ولقد كان القدماء ينظرون إلى الحيات والأفاعى بوجه عام على أنها كائنات طيفية جنية ، كما كانوا ينسبونها ، نظرا إلى أنها تسكن عادة حفر الأرض وشقوق الجدران ، إلى العالم السفلى ، ومن ثم كانت فى نظرهم مركبات ملائمة كل الملاءمة لأرواح الموتى ، ورغم ذلك فإنه من الخطأ الفاضح أن نعتقد أن كل حية كان يلاقيها اليونانى القديم بالتكريم ، كان يعتقد أنها روح أو شبح . كما أننا نجانب الصواب أضعافا مضاعفة إن حسبنا أنهم كانوا يقدسون جميع الحيات ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان ينظر إلى غالبيتها على اعتبار أنها كائنات مؤذية ، ينبغى الإسراع إلى قتلها كلما وجد إلى ذلك سبيلا . غير أن ثمة أنواعاً معينة من الحيات ، كانت تعرف بأنها غير سامة أو كان يظن أنها كذلك ، فإن ظهرت إحداها فى المنزل ، أبدى صاحبه من الاهتمام قسطا كبيرا أو ضئيلا بقدر ما يكون عليه من تدين وتقوى . أما المتدين الخائف deisidaimon أى ذلك الذى يرهب ما فوق الطبيعة ؛ وكان لهذه اللفظة فى الغالب معنى غير طيب ، وإن كان من الممكن أن ترادف فى لغتنا لفظة الورع أو التقى أو عبارة (من يخشى الله) . فقد كان عليه ، كما يشير ثيوفراستوس Theophrastos ، حال أن يجد حية من هذا النوع « المقدس » أن يسارع إلى إقامة مذبح من مذابح الأبطال لها . ولعل من الإنصاف أن نخلص إلى أنه لم يكن من دأب السواد الأعظم من أرباب الأسر أن يقفزوا إلى رأى خطر كهذا الرأى ، بل كانوا يرقبون هذه الزاحفة ليروا ما إذا كانت ستعود مرة أخرى أو أنها ستأتى بتصرفات تستلفت النظر على نحو أو آخر .

وإذ كانت الآلهة تحيط بالإنسان حيثما حل ، سواء كان داخل بيته أو خارجه ، فليس من عجب أن كانت العلاقات الدالة على وجودها والمبينة لمقاصدها شائعة مألوفة . ولقد كان الإيمان بالفأل ذائعا ذيوعا بينا بين السواد الأعظم من أبناء العصر القديم كما ظل كذلك على مدى تاريخه ، والحقيقة أنه لا يمكن القول بحال إن

هذا الاعتقاد قد انمحى تماما فى عصرنا الحديث . وفى هذا أيضا يختلف المتدين المتنطع لدى ثيوفراستوس عن إخوانه ، لا من حيث إيمانه بمثل هذه الأمور ، بل لأنه يعانيها فى كل مكان . فإن وقع بصره على مشهد مألوف كفأرة تقرض كيسا جلديا تطير بذلك ، وهو أدعى كذلك إلى أن يشعر ببالغ السخط والقنوط إن استخف العراف الرسمى بالأمر ونصحه بأن يرتق الكيس من جديد ، فى حين أنه إذا ما مرق ابن عرس عبر الطريق ، فإنه ينتظر مرور شخص آخر به قبل أن يقدم على وطء هذه البقعة الخطرة ، أو يقوم ، وهذا أضعف الإيمان ، بعمل شىء من السحر المضاد لكى يبطل أثر هذا النذير المفزع الرهيب . ولقد كان للرجل العادى فى العصر القديم من رجاحة العقل وسلامة الطبع ما يربأ به عن الفزع من كل مخلوق صغير يبصره ، بيد أن بعض طبائع الحيوان كانت تستلفت النظر بوجه عام ، وبخاصة صياح الطيور الضخمة وتحليقها ، ولا سيما الطيور الجارحة التى تسهل مراقبتها بالنظر إلى أنها لا تطير فى أسراب .

ومن ثم أصبح الاسم الذى يطلق على هذه الفصيلة من الطيور « أوينوس » oinòs ، وكلمة «الطائر» عموما ، يعنيان «الفأل» ؛ والأمثلة كثيرة على مشاهداته الرسميين والأفراد لهذه النذر . ولم يكن راصد الطير فى الزمن القديم عالما طبيعيا ، بل كان مفسراً محترفا للنذر التى تصدر عنها ، كما أنه قد كان ثمة علم تقليدى للتنجيم ، يعود القهقرى على أقل تقدير إلى زمن هومر ؛ يلتمس الفأل الميمون أو غير الميمون فى دقائق مثل نوع الصيحات التى يطلقها الطير ، أو الناحية التى يتجه إليها فى طيرانه ومكانه (يمينا أو يسارا ، وكانت ناحية اليمين تشير إلى جانب السعد بوجه عام) بالنسبة للراصد ، وهلم جرا . والحقيقة أن تلك الرغبة العالمية الملحة فى التعرف سلفا على ماسيحدث فى المستقبل ، قد تفشت بين الحضارات القديمة اليونانية وغير اليونانية على اختلاف عصورها ، كما لم يكن هذا النوع من الفأل سوى أسلوب واحد من بين الأساليب العديدة التى حاولت بهـــا الحضارات القديمة أن تميط اللثام عما هو مقدر ولكى تكشف بوجه خاص عما يحتمل أن يصيب ما اضطلعت به أو ما تنتويه من مشروعات من نجاح أو فشل . وبطبيعة الحال كان من بين الطرق الشائعة

أعظم الشيوع فى مجال الاستخارة واستقصاء المعارف، التوجه لأحد الآلهة بالسؤال. لأن الآلهة يعلمون الحاضر والمستقبل ولهم القدرة على التحكم فى أحداثهما . ولسوف نتناول بالحديث فى موضع آخر مراكز العرافة الكبرى ، بيد أنه كان فى مقدور أى إله أن يبعث بحلم منذر أو أية آية أخرى، كما أن ثمة إلها واحداً على الأقل، وهو الإله هرميس ، كان يمارس فى معبده فى فاراى Pharai بآخليا Achaia ، نوعا من العرافة يعرف باسم «كليدون» kledòn ، وهى لفظة كتبت لها الحياة بين مفردات اللغة اليونانية الحديثة ، ولم تزل تدل على ضرب من ضروب العرافة الشعبية الرائجة . فقد كان طالب المشورة يتوجه إلى تمثال الإله حيث يقوم داخل المعبد ، ويملأ السرج المثبتة أمامه ويضيئها ، ، ويحرق بخورا فى المدفأة ، ويضع على المذبح قطعة برنزية من العملة المحلية ، ثم يهمس بسؤاله فى أذن الصنم. ويبرح المعبد وقد وضع إصبعيه فى أذنيه ؛ وفى اللحظة التى يصبح فيها خارج الحرم التى يقوم فيه المعبد ، يرفع أصبعيه عن أذنية وينصت إلى الحديث الدائر بين من يصادفهم من المارة. والعبارة التى يسترق سمعها هى الجواب الذى يريد. ولقد ساد الاعتقاد بأن أشخاصا عاديين كانوا يلهمون عند الضرورة باستخدام عبارات تتجاوز فى معناها حدود ما يدركون، وهذا هو «الكليدون» . ولقد كان هرميس ذاته دون شك هو الذى يوحى للمقيمين حول معبده ، فى فاراى بأن يذكروا الأرباح الطائلة التى عادت على شخص ما من وراء تجارته ، إذا ما كان صاحب السؤال قد استفسر عما إذا كان ينبغى عليه أن يجازف برأس ماله فى المشروع الذى ينتويه ، أو أن يتحدثوا عن غرق السفن إذا ما كان السؤال المطروح : «هل أقوم برحلة بحرية ؟ » .

وبغض النظر عن العرافة لم يكن اليونانى القديم من العامة بمنأى قط عن الدلالات الظاهرة على حضرة الآلهة ، فمزاراتها وتماثيلها وما شاكل ذلك كانت منتشرة فى كل مكان ، وعليه أن يقدم لها فروض الاحترام . وهنا نستدل أيضا من ضروب المبالغة والتهويل التى يذهب إليها المتدين المتنطع لدى ثيوفراستوس على ما كان يصدر عن الشخص السوى . فإذا ما وجد الأول حجرا مقدسا عند مفرق الطرق (وهو مكان ملائم فيما يبدو لوجود مثل هذه الأحجار ، لأن مفارق الطرق هى

مواضع مفزعة موحشة فى معظم البلاد ، ومن ثم كان من الخير للمرء التماس أكبر قسط من عون الآلهة عندها) ، فإنه يسكب عليه الزيت ويخر ساجداً أمامه ويقدم له فروض العبادة . ولقد كانت الغالبية فيما يرجح تعمد إلى الإعراب عن شعورها بالإجلال بطريقة أو بأخرى ؛ ولقد كان من بين الإشارات الشائعة أن يقبل المرء يده إزاء الشيء المقدس. بل إن أقل الناس اكتراثا كان يتحاشى الإضرار به أو تدنيسه على أية صورة من الصور ، فعندما كشفت ذات صباح حادثة تشويه تماثيل هرميس (Hermai) فى أثينا ، وكانت هذه تمثل أحجارا قائمة جرت فيها يد التعديل والتنسيق فنحتت عند قممها رءوس آدمية وعند أواسطها أعضاء تذكير ، كما كانت مقدسة فى العادة للإله التى تحمل اسمه ، عم المدينة سخط كبير وتلت ذلك سلسلة طويلة من المحاكمات بتهمة الزندقة والخروج عن الدين . ولم يتحقق لدينا حتى اليوم ما إذا كان هذا العمل قد نشأ عن نزوة خرقاء لنفر من الشبان المخمورين ، أو أنه كان مؤامرة سياسية ترمى إلى « نشر الذعر والسخط » بين الجماهير فى فترة دقيقة من تاريخ أثينا . وإن جعبة كتاب الأخلاق لتمتلىء بأقاصيص البلايا والكوارث التى نزلت بأشخاص متهورين ، أقدموا تحت ظروف الحرب القاسية أو لسبب آخر على سرقة المعابد أو انتهاك حرماتها بصورة أو بأخرى ، كما ترددت قصص أخرى حول أصنام أعربت بحركات عجيبة مثل إغماض عيونها أو ما شابه ذلك ، عن سخطها على الآثام التى ارتكبت فى حضرتها .

وفى مواسم معينة ، تمت بصلة فى العادة إلى أوجه النشاط الزراعى المختلفة ، مثل البذر والحرث ربيعا وخريفا ، والحصاد ، كان من المألوف أن يستأثر عيد من الأعياد إما بطاقات المجتمع كله أو بشطر كبير منها ، مثل النساء كافة أو المحصنات منهن خاصة . ولسوف نسترسل فى الحديث عن هذه الأعياد عندما نتناول ديانة المدن اليونانية ، وحسبنا الآن أن نوضح الطقوس الأساسية العادية التى كانت شائعة بينها جميعا كان من المحتوم دائما ، للتقرب من أى إله على النحو الصحيح ، أن يحمل إليه المرء هدية ما ، وكانت أعم الهدايا وأشيعها ، بغض النظر عما ينذر للمعبد من حلى كالتماثيل وغيرها ، هى الطعام سواء من الحبوب أو اللحوم أو منهما

معا ، ثم المشروبات والبخور . ولم يكن من طبع الآلهة التعنت، والشطط ، فلم تكن تطلب القرابين الباهظة ممن لا يطيقونها ، وإذا مارجعنا مرة أخرى إلى الأقاصيص التي كانت شائعة في القديم ، ألفينا قرابين لا تتعدى حفنة من الحب المجروش أو شيء آخر من هذه التوافه يقدمها فقير معدم ويعلن أنها لقيت غاية الرضى من الآلهة ، لأنها قدمت عن إيمان صادق . غير أن القرابين المعهودة كانت تتمثل في رأس من الماشية الصغيرة أو الكبيرة يختار في العادة من جنس القوة المقدم لها أنثى كانت أو ذكرا ، وإن كان لهذا الأمر بعض الاستثناءات . وبغض النظر عن العلة الأولى لمثل هذه الطقوس ، فما من شك في أن الهدف منها كان في نظر الفرد من أواسط الناس في القديم هو تقديم غذاء طيب للإله ، كما أنه عند عبادة إله أوليي ، كان مقدم الضحية وصحبه — وهم في حالة تقديم قربان جماعي ، يمثلون أفراد المجتمع كله أو نفرا منهم على أقل تقدير — يشاركون الإله الوليمة، بل يستأثرون في الواقع بأطيب أجزاء الضحية . وتوضح قصة قديمة كانت معروفة لدى هسيود السبب في ذلك ؛ ففي الزمن القديم خدع بروميثيوس Prometheus ، إله النار الذي كان صديقا للإنسان على الدوام ، الإله زيوس بأن نحر ثورا ليقربه قربانا ، ثم طلب من الإله زيوس ، بعد أن جعل اللحم في لفافتين ، أن يختار بينهما . وكانت إحداهما تحوي فضلات الذبيحة مموهة من الخارج بغشاء من الدهن، والأخرى تشتمل على كل القطع الطيبة وقد لفت بصورة لا تسترعي النظر أو تثير الانتباه . وتناول زيوس اللفافة البهيجة المنظر الأنيقة المظهر ثم اكتشف بعد فوات الأوان أنه قد خدع وغرر به . ولعل من الأرجح ، في نظر أبناء العصر الحديث ، أن أهم نقطة تتعلق بنحر الذبائح والتقرب للآلهة بالقرابين كانت في الأصل الرغبة في تقديم روح الضحية للآلهة بغية مضاعفة « المانا » لديهم ، ومن ثم كانت الأعضاء الحيوية الأساسية في الذبيحة هي الأجزاء المخصصة لهم . وكيفما كان الحال ، فقد كان نحر الدابة يتم وفق الطقوس المرعية . فكان المذبح ذاته وأيدي المستعبدين تطهر بالماء (خرنيبس chérnips تعني حرفيا « غسل الأيدي » . وكانت المشاركة في هذا الوضوء تعد رباطا مقدسا) . وكانت الدابة تساق إلى المذبح ، فإن بدت لينة منقادة كان ذلك في الاعتقاد السائد فألا حسنا وإن حرنت وقاومت عد ذلك طيرة

وشؤما . ثم ينثر الشعير كما تقضى المراسيم ، فوق الأرض فيما يرجح ، وتطرح الدابة أرضا وتصعق ببلطة ، ثم يوجه فكها إلى أعلى وتقطع رقبتها . وكانت النسوة ، إن كان بعضهن حاضراً يطلقن الصيحة التقليدية المسماة بالتهليل ololygé وهو صوت مزغرد حاد النبرة ينتهى بنغمة أشد حدة ويعرب فيما يبدو عن نشوة الفرح . ثم تسلخ الدابة وتقطع ، وتلف الأحشاء مع أجزاء تفصل من كل من الأطراف ، فى الدهن ، وتوضع فوق نيران المذبح .

أما بقية أجزاء الذبيحة ، فكانت تؤلف مادة الوليمة وقوامها ، وكان يتم على نحو أو آخر التخلص من الأجزاء التى لا تصلح للأكل . وإذا ما قام أحد الكهنة بالمعاونة ، الأمر الذى لم يكن ثابتا أو واجبا ، فقد كان الكاهن يشترط سلفا الحصول على جلد الذبيحة ، ولم يكن من غير المعهود ، بوجه عام ، أن تدفن فضلات الذبيحة مثل العظام فى الأرض المقدسة التى تحوط بالمكان الذى أقيمت فيه الطقوس ، وإن لم يكن هناك ما يمنع فيما نعلم من إقامة مذبح وتقديم أضحية على أية رقعة من الأرض لا تكون قد دنست على نحو ما أو يعتقد أنها بغيضة لدى الإله الذى يعبد لسبب أو لآخر . وفى العصور المتأخرة كان من الممكن على أى الحالات إذا ما كان هناك فائض من اللحم يزيد على ما يمكن تناوله فى التو ، أن يؤخذ هذا الفائض إلى أقرب سوق ويباع كأى صنف من اللحم . وإذا ما كانت الضحية ثوراً أو بقرة ، كانت جمجمتها تثبت فى الغالب فوق واجهة المعبد ، أما إذا ما كانت الضحية مقدمة من شخص عادى وبصفة فردية وعلم ممتلكاته وعقاره ، فتعلق الجمجمة خارج داره .

وهذه هى الوسيلة التى كان يطلق عليها الإغريق اسم « توسيا » thysia أى فرق الضحايا والقرابين . أما إذا كان الإله الذى يراد التقرب إليه غير أوليمبى بل أرضى ، فالطقوس التى كانت تتبع حينئذ تختلف عن هذه فى عدة وجوه . فالضحية التى كانت تختار بيضاء عادة للإله الأوليمبى ، ينبغى أن تكون بالنسبة للإله الأرضى سوداء اللون أو دكناء . كما كان رأسها يوجه عند نحرها إلى أسفل وليس إلى أعلى ، وفى كثير من الأحيان لم تكن تحرق الذبيحة بل يتم التخلص منها بصورة

غير هذه . وكيفما كان الحال، فقد كان إله الأرض . يمنح فى العادة الذبيحة برمتها ، والسبب فى ذلك واضح غير خاف ، فعلى الرغم من أن آلهة الأرض وآلهة العالم السفلى لم تكن بالآلهة الشريرة ، إلا أنها كانت تثير فى النفوس الخوف والفزع ، والاتصال الوثيق بها على النحو الذى يدل عليه مشاركتها الطعام إنما هو أمر لا يرتجى . ولم يكن التقرب بالقرابين للآلهة الأرضية يعرف باسم « ثوسيا » بل كان يسمى بوجه عام « إناجيسما » enàgisma وهو لفظ لا يتعدى فى معناه لفظة « التكريس » . وأخيراً ، فإن المواقيت الصحيحة لكل من هذين الضربين من القرابين كان يختلف بعضها عن البعض الآخر ، فالمواقيت الملائمة لآلهة السماء هى الصباح أو وضح النهار على أسوأ الفروض ثم البدر الكامل أو الهلال النامى ، والمواقيت الملائمة للآلهة الأرضية هى الليل أو الأصيل على أقل تقدير ثم المحاق .

ولم تكن القيود والتعليمات الخاصة بالقليلة النادرة ، فقد كان محرما إراقة الدماء فى بعض المذابح ، حتى إن القرابين المقدمة كانت لا تخرج عن الفطائر وما شابهها ، كما أن طائفة كبيرة من المذاهب الأرضية كانت تحرم سكب النبيذ ولا تسمح بغير الماء واللبن والشهد . وأغلب الظن أن ذلك إنما يقوم دليلا على قدم هذه المذاهب، فالنبيذ كان يعد حتى هذا الحين مشروبا أجنبيا رغم أن شعوب البحر الأبيض المتوسط القديمة كانت على علم تام بطرق صناعته ووجوه استخدامه ، فاسمه منقول عن لغة أناضولية غير معروفة . فاللفظة المحلية الدالة على مشروب مسكر تماثل فى تطورها اللغوى لفظة « ميد » mead الإنجليزية ، كما أنه من المحتمل أنها كاللفظة الإنجليزية كانت تعنى فى الأصل مشروبا ناتجا عن تخمير الشهد ، هذا على الرغم من أن طريقة صنعه كانت قد اندثرت تماما وطواها النسيان إبان العصر الكلاسيكى . ومن ثم فإن بعض الآلهة التى لم تكن تجارى روح العصر ، كانت تأبى استخدام المادة الجديدة نسبيا ، ولعل قرابين الشهد الشائعة كانت بمثابة تذكرة بالعهود التى كان يستخدم الشهد فيها فى صناعة ذلك المشروب المسكر .

وإن قضى أحد اليونانيين القدماء نحبه ، فإن مراسيم جنازته قد تصل الغاية

فى التعقيد ، فقد كانت هناك كما نعلم طائفة من القوانين التى تحرم ، فى المـآتم ، المغالاة فى إظهار مشاعر الحزن والإسراف فىالنفقة رغبة فى التظاهر . وكان المأتم يتلو الوفاة على وجه السرعة ، وذلك لأن مناخ بلاد اليونان مناخ حار ، ومن ثم فالتحلل من شأنه أن يصيب الجثةفى التو ، هذا من ناحية ، غيرأن الدافع الأقوى لذلك فيما يبدو هو أن الميت رجلا كان أو امرأة لاشأن له بهذا العالم ، ومن ثم فمن الخير كل الخير أن يسرع إلى حيث مثواه . وكانت المراسيم تبدأ بعرض الجثة (pròthesis) ، بعد أن تخلع عليها أبهى الثياب ، وتوضع على أحد الأسرة . ثم يدور حولها طقس من أقدم الطقوس ، وهو العويل التقليدى الذى كانت تباشره النسوة من أفراد الأسرة ، وقد تتزعمهن بعض المتخصصات فى فن النواح والعويل ، وقد كان المعهود دائماً أن تكون لهن فائدة من نوع ما ، أما الباقيات فكن ينتظمن فيما يشبه الجوقة النادبة . ويطلق على هذه المراثى فى الوقت الحاضر اسم « موىرولوغيا » moirològhia وكانت تتألف من أبيات تقليدية فى بعض أجزائها ومن أبيات مرتجلة فى أجزاء أخرى . وفى العصر القديم كان من الممكن أن يعهد أقرباء الميت ، عند وفاة أحد الأثرياء أو الوجهاء ، إلى شاعر محترف بنظم رثاء (thrêmos) تقوم إحدى الجوقات بإنشاده تكريما للراحل العظيم فى وقت مافىأثناء المراسيم ، وقد كانسيمونيديس Simonides الشاعرالغنائىالكبير، يجيد نظم هذه المراثى بوجه خاص . أما المرحلة التالية فكانت تشييع الجنازة (ekphorà ومعناها الحرفى « الخرجة ») وفيها تنتقل الجثة ، وهى لم تزل فوق السرير ، مسجاة فى العادة بثوب أبيض وعليها أكاليل من نبات يعتبر لائقا بهذه المناسبة ، إلى المدافن التى كانت تقع فى أغلب الأحيان خارج المناطق المأهولة .

وهناك إما أن تحرق ويحفظ رمادها فى قارورة تدفن بعد ذلك ، وإما أن توضع فى اللحد داخل تابوت فىالغالب ، دون أن تحرق . ولا يبدو أن هذاالخلاف بين الطقسين يرتبط بخلاف آخر فى المعتقدات المتعلقة بالعالم الآخر ، إذ أن أهم ما كان فى الأمر هو أن تبعد الجثة عن عالم الأحياء ويهال عليها التراب . وإذا ما عثرالمرء على جثة لم تدفن ، فأبسطواجباته نحوها أن يهيل عليها شيئا من التراب

وكان من حق الميت ، بعد أن يودع قبره . إذا كان قد خلف وراءه أحداً من ذوى قرباه ، أن يحظى بألوان الرعاية والعناية التى سبقت الإشارة إليها . وعادة ما كانت توضع مع الميت ، وقت الدفن ، بعض أنواع الأمتعة الخاصة بالمقابر ، التى كان مقدارها يتفاوت تفاوتا عظيما من عصر لآخر . وقد كان من دأب النبلاء الموكنيين أن يدفنوا معهم ثروات كبيرة ، كما يتضح لنا من الاكتشافات التى تمت فى مقابرهم ، غير أن العصور التالية كانت أكثر منهم توخيا لدواعى التدبير والاقتصاد ، إلا أنه لم يكن من المعهود أن يحرم الميت من أية مقتنيات على الإطلاق تكون فى خدمته فى العالم الآخر . وشاهد ذلك أنه قد تناهى إلينا أكثر من مرة أن النار قد أشعلت فى ملابس امرأة ميتة ، لكى تنتقل هذه الملابس إلى روحها. وجرت العادة فى أثينا ، فى عهد أرستوفانيس ، أن يزود الميت بنوع معين من الكعك المشرب بالشهد . وبغض النظر عن الأصل الذى نشأت عنه هذه العادة ، فقد أمكن التماس سبب لها ، كما يحدث غالبا عندما تتأصل إحدى العادات وترسخ دون أن يعرف القصد منها على وجه قاطع . فلقد كانت حراسة العالم السفلى منوطة بكلب مفزع كثير الرءوس هو « كربيروس » kerberos يحتمل أن يقف عقبة فى سبيل دخول القادم الجديد ، علاوة على أنه سيمنع دون شك خروجه ومن شأن الكعكة الحلوة أن تستأثر بانتباهه لحظة من الزمن ريثما تتسلل الروح إلى دارها الجديدة . وهناك عادة ، راجت فى العصر الحديث ، لكنها لم تكن فى الحقيقة شائعة شيوعا كبيراً فى العصر القديم ، وهى وضع قطعة من النقود فى بعض الأحيان فى فم الميت ، لأداء أجر صاحب السفينة فى العالم السفلى وهو خارون charon (والمرجح أنه كان إلها من آلهة الموت القدماء وأنه بقى بعد اندثار سائر آلهة العالم السفلى ومازال الإيمان به قائماً) وهو الذى كان يحمل الأرواح عبر النهر الذى يفصل بين هذا العالم والعالم الآخر .

وحين يعود المشيعون من الجنازة ، يدعون إلى الوليمة الجنائزية (perideipnon) ويتطهرون بالاغتسال من أرجاس الموت وشوائبه . أما القرابين المعتادة التى كانوا يقدمونها عند القبر ، فكانت تأتى عقب الوفاة فى اليومين الثالث والتاسع منها ،

وفى بعض البلاد ، إن لم يكن فيها كلها ، كان يقام طقس سنوى ، يطلق عليه فى أثينا اسم genésia أى الوليمة العشائرية . ومعلوماتنا عن هذا الاحتفال ضئيلة ، إلا أنه قد يستدل من هذه التسمية ، فيما لو دلت على شىء ، أن أفراد العشيرة كانوا يجتمعون بالقرب من مدافنهم فيما يحتمل ، ويشتركون فى وليمة جماعية ، بعد أن يقدموا قرابينهم المعهودة إلى موتاهم ، وقد تشمل هذه إلى جانب تلك التى ذكرت آنفا ، ذبائح من الماشية . وسنرى فيما بعد أن من بين ما كان يضمه التقويم الدينى اليونانى ، عيدا لجميع الأنفس المتوفاة (كالذى يقام فى الدول المسيحية فى الثانى من شهر نوفمبر فى ذكرى جميع الأرواح All Souls) . ولم يكن الهدف من هذه الاحتفالات هو تقديم الذبائح . كما لم يكن أيضاً إقامة شعائر العبادة ، بقدر ما كان اشتراك أحياء فى مائدة واحدة وهو ما كان قائماً وقت أن كان الموتى من أفراد العشيرة لا يزالون على قيد الحياة .

وأنه ليبدو فى واقع الأمر أن الأرواح اليونانية كانت فى الغالب الأعم تؤخذ على أنهـا طبيعية للغاية ، فليس هناك ما يوحى إلينا بأن الأحياء كانوا يحسون كقاعدة عامة ، برهبـة كبيرة نحوها ، وذلك إذا ما كانت قد أقيمت لها الشعائر الواجبـة لنقلها إلى العالم الآخر ، والإبقاء عليها هناك فى ظل ظروف معقولة من الراحة والعيش الكريم .

أما إذا ماقيل أنها تطارد الأحياء . فالقاعدة هى أن أرواح من ماتوا بطريقة قسرية جبرية أو من لم يتم دفنهم على النحو الصحيح هى التى تقض مضاجع الأحياء . وفى حالة ما إذا قتل رجـــل أو امرأة غيلة ، فرغبته أو رغبتها الطبيعية فى الانتقام قد تعزز بما هو أشد رهبة ، وأعظم هولا ألا وهو القصاص الذى تنزله القوى العلوية ، وإذا ما كان مقترف جريمة القتل أو أى إثم غير مشروع آخر ، ممن تربطهم بالمجنى عليه صـلة الرحم ، فالمنتظر أن تجتمع على عقاب المذنب داهية دهياء . وهؤلاء هن آلهات الانتقام Erinyes اللائى كن بمثابة تشخيص للنقمات

الإلهية صورت على هيئة نسوة مفزعات الخلقة ،وقد انضفرت الحياة بشعورهن ، يحملن إما المشاعل وإما السياط. وقد يظهرن للجانى، أو يعمدن بوساطة فنون سحرهن الرهيب ، إلى إصابته بالسحر بحيث يذوى وينحل شيئا فشيئاً حتى لا يعدو ظلا لنفسه ثم يموت فى النهاية ، وتمضى إلهات الانتقام فى مسرحية أومينيدس Eumenides لأسخيلوس قائلات فى قسوة وصرامة بالغتين « وهو بعد الموت أيضاً لن يكون مطلق الإسار تماماً » . وكان ثمة اعتقاد أيضا بأن من يقع ضحية اعتداء صارخ وجرم فاضح ، كان يبدى من وقت لآخر . بعض القدرة على مناداة من ليسوا من ذوى قرباه ، إذا ما كان هؤلاء هم مقترفو ذلك الجرم . ولكن الغالب فيما يبدو أن اليونانى فى ذلك العصر لم يكن يجد فى الأشباح ما يبعث على رهبة كبيرة ، وذلك إذا لم يكن قد أساء إليها أحد، وإن كان من الأصح والأفضل توقيها كلية .

بيد أنه إذا ما ألح قِصاص القوى التى تفوق الطبيعة ، سواء من جانب الأشباح أو من جانب أية قوى أخرى ،فى إيذاء أحد الأفراد ، أو إحدى الأسر فإن للأمر وسائل علاجه . فيبدو أنه قد كان هناك فى معظم البلاد وفى أغلب العصور اختصاصيون فى طقوس التطهير وطرد الأرواح الشريرة ، يمكن العياذ بهم عند الحاجة . وتدلنا إحدى القصاصات التى وصلت إلينا من سوفرون Sophron الكاتب الذى عاش فى القرن الخامس ق . م ، على ما كان يتبع فى مثل هذه الاحوال . فثمة منزل قد ابتلى بهيكاتى Hekate وهى من أبشع الإلهات الأرضيات . وأدعاهن للخوف والهلع ، وقد بدأت حياتها فيما يبدو إلهة للخصب والرخاء ثم تدهور الحال بها إلى أن أصبحت أشبه بالإلهات الساحرات، وكان فى مقدورها أن تبعث بأشباح رهيبة أو غير هـذه من العلامات الدالة على قوتها . فيستدعى أهل المنزل امرأة حاذقة بمثل هذه الأمور « لتسكن» الأرواح . وتحصل المرأة على المواد اللازمة وهى جرو (وغالبا ما تفضل الآلهة الأرضية الذبائح من الكلاب عن غيرها من الضحايا) . ونبات الغار (وهو النبات الذى يختص به أبولون ، ومن ثم فإنه قوى الأثر فى طرد الأرواح غير المرغوب فيها) وقطران لإطلاق الدخان بالمنزل (والروائح

النفاذة من الوسائل الشائعة لطرد الأرواح) وملح وبخور ومشعل . وتطفأ نيران الموقد بعناية ، وتفتح جميع الأبواب ، وتجلس الأسرة حول العرافة فى صمت وخشوع . وتذبح المرأة الجرو وتخبر الإلهة فى صلاة تقليدية بأنها قد حصلت على وليمتهـا الواجبة ، وأن عليها فى هذه الساعة أن ترحل . وغالبا ما كانت تستخدم وسائل أخرى أشد بساطة من هذه ، وبخاصة الأدعية ، بأشكالها المختلفة ، المنطوقة وغير المنطوقة ، التى كانت تستعيذ بالآلهة والأبطال ، وهم الذين كان يعتقد أن لديهم ، بوجه خاص ، القدرة فضلا عن الرغبة فى درء الشرور ودفع الأذى » وقد كان لأبولون ، وهرقل صيت ذائع فى مثل هذا المجال ، ومن هنا جاء لقبهم المشترك alexikakos أى « دافع الشر » . وعادة ما كان يقام أمام المنزل تمثال أو مذبح صغير للإله أبولون لكى يدرأ على هذا الصورة الأعداء غير المنظورين ، وكان هرميس فى كثير من الأحيان يقوم بالمهمة ذاتها ، وقد تختار هيكاتى أيضا إن اقتضى الأمر للقيام بهذا العمل ، ذلك لأنه إذا أمكن نيل رضائها ، فلا يحتمل أن تعمد أية قوى أخرى أقل مرتبة منها من قوى العالم الأرضى إلى إيذاء من رأت هى أن من الأوفق الصفح عنهم . ولدينا بعض الأمثلة على نقوش كانت تكتب فوق باب المنزل ، تعلن أن « المظفر المجيد هيرا كليس يعيش هنا » وتحظر الدخول على أية بلايا أو شرور ، ذلك لأن رسل الشر تتسم بالغباء فى العادة ، وقد يكفى الزعم بحضرة مثل هـذا البطل العظيم لحملها على الابتعاد ، دون أن تستوثق من صحـة هذا القول .

وعادة ما كان يستفسر من مركز العرافة عن الطقوس الواجب اتباعها أو قد تستحضر الروح ، إن دعت الحاجة ، بطريق السحر ، إذا كان الأمر متعلقا بإحداها ويطلب إليها أن تبرر مسلكها . ولا بأس من حمل التمائم والأحجبة ، كما كان ثمة ضرب شائع من ضروب التوقى ، ألا وهو تحاشى استخدام أية ألفاظ داعية إلى التطير كذكر الموت . ولقد ترك ذلك أثره على اللغة بطرق غريبة بعض الشىء . مثال ذلك أن اليد الشمال كانت شؤما فى العادة ، ومن ثم فإنها لم تكن تسمى باسمها إلا نادرا ، بل كانت تعرف باليد « الفضلى » أو اليد « اليسرى » . وبوجه

عام ، كان يحسن بالمرء ألا يكون مصدرا للإساءة . والواقع أن من يتخذ هذا المسلك الحكيم قد يؤمن إيمانا حارا بوجود شتى ضروب القوى ، وكثير منها يثير الرعب فى بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن يعيش فى خوف عظيم منها . فاليونانى العادى لم يكن فريسة الكاهن أو فريسة الشيطان ، ولو أنعمنا النظر فى الحقائق بعض الشىء لاتضح لنا السبب فى ذلك

فبلاد اليونان تقع خارج نطاق ذلك القسم الهائل من سطح الكرة الأرضية (ويمتد من هضبة إيران مجتازا آسيا الوسطى ثم من هناك إلى أمريكا الشمالية فيما وراء البحر) الذى يبدو أن به ميلا قديما متأصلا بعيد الغور إلى التثنية ؛ أى إلى ديانة تقسم القوى التى تعبد إلى خيرة وشريرة ، مع ملاحظة أن القوى الشريرة تناهز فى قوتها وبأسها القوى الخيرة ، وتجعل لكل حزب رئيسا إلهيا سواء كان هذا هو « أرمزد » و « أهريمان » كما فى بلاد فارس ، أو « جلوسكاب » وشقيقه الشرير كما هو الحال بين الهنود الذين يعيشون فى مقاطعة نوفا سكوتيا Nova Scotia [البحرية فى جنوب شرق كندا] . أما فيما عدا ذلك من بقاع ، فإنه رغم أننا قد نجد بها إيمانا بضرب من ضروب الجن ، إلا أن الشيطان أو أهريمان أو إبليس ما كانوا غير غرباء ، وهؤلاء كانوا فى الغالب موضعا للسخرية مثلما كانوا مثار خوف أيضا ، لأن جميع الغرباء مضحكون حتى وإن كانوا مكروهين كذلك . ولم تحل قط ببلاد اليونان القديمة أية كائنات من هذا القبيل ، بل إن أبشع ما تصوره أهلوها من أشباح لم تكن تنزع أيضا إلى الإيذاء عن طيش ونزق . فقد تقتص من المذنب دون رحمة أو هوادة ، وقد تتلمس سبل الانتقام لنفسها فى عناد وإصرار ، أو قد تقطع أشواطا بعيدة فى الانتصار لكرامتها ودعم هيبتها ، بيد أنها لم تكن ترتكب الشر قط طلبا للشر ذاته . وعلى ذلك فليس لمن يحيون حياة طاهرة وادعة أن يخشوا بأسا من جانب هذه الأشباح ، إذا ماتحاشوا على أية حال صحبة المجرمين ، لأن القصاص قد يحيق بهؤلاء فى أية لحظة ، وقد يؤخذ بجريرتهم من كانوا بالقرب منهم . وما كان هوراس ، حين يقول إنه لن يُبقِ تحت سقف بيته مجرما ارتكب إثما فظيعا فى حق ديميتر ، أو يبحر معه فى سفينة واحدة ، إلا معبرا عن فكرة

بالغة الذيوع فى عصره ، بقدر ما هى بالغة القدم أيضا . وما كان هوراس يتظاهر بالخوف منه ، وما كان أبناء العصور القريبة من النظرة يخشونه فى حقيقة الأمر ، هو أن ينهار المنزل على المجرم ، أو تغرق السفينة ، الأمر الذى يعرض الأبرياء ممن يتصادف وجودهم بأى من الدار أو السفينة لأفدح الخطر . وإلى ذلك يرجع السبب فى أن المجرمين كانوا فى الغالب الأعم يبعدون عن مجتمعهم بالإعدام أو بالنفى مدى الحياة . ولم يكن الدافع إلى ذلك ، هو الغضب لسنن الأخلاق بقدر ما كان الرغبة فى الوقاية من نوع من العدوى ، وهو الدافع ذاته الذى يحدو بنا إلى عزل المصابين بمرض معد . وإذا ما تيسر للمجرم التخلص من ذلك الدنس الذى اجتمع فيه الإثم وسوء الطالع ، بوساطة طائفة من تلك الطقوس التى وضعت لهذا الغرض ، ففى وسعه أن يعود مرة أخرى إلى حظيرة المجتمع الإنسانى ، وهناك كثير ممن سفكوا دماء بشرية ، تحقق لهم ذلك بعينه . وما إن يزول عنه هذا الدنس miasma ، فإنه يصبح غير معرض بعد ذلك للنقمة من جانب أى من الأشباح أو آلهات الانتقام ، كما أن من يحادثونه أو يشاركونه طعامه يصبحون فى مأمن أيضا .

ويرجع السبب فى أنه لم تقم ببلاد اليونان هيئة كهنوتية عليا إلى أن الكهنة لم يؤلفوا قط فيما بينهم طائفة أو جماعة مقصورة على أعضائها . فلم تكن وظائفهم تعدو تركيزا لما كان يفعله رب البيت من أوساط الناس كل يوم من أيام حياته ، حين يضع إكليلا من الزهر فوق تمثال أو مذبح إله فى داره ، أو يقوم بتقديم شىء من القرابين له ، كأن يسكب بضع قطرات من النبيذ أو يحرق كمية يسيرة من البخور . ويمكن القول بوجه عام إنه باستثناء بعض الوظائف الخاصة التى كانت موقوفة على قبائل وعشائر معينة ، كان فى وسع أى فرد رجلا كان أو امرأة ، أن يصبح كاهنا أو كاهنة ، ولا يلزم أن يشغل هذه الوظيفة مدى الحياة ، بل إنها قد تقتصر على سنة أو على أية فترة أخرى تقرر سلفا . ولم يكن منصب الكاهن يقطع الصلة ، إلا فى القليل النادر ، بين من يشغله وبين أوجه النشاط الدنيوية العادية ، وإن كان عليهم فى الغالب مراعاة طائفة من القيود فيما يتعلق بالملبس وفيما يختص بتحاشى أفعال معينة ، وما إلى ذلك . كما كان يناط بالحاكم ، رغم ما قد يتسم به منصبه من طابع دنيوى بحت ، بعض المهام الكهنوتية أيضا .

وكان منصب الملك ، فى أقدم العصور التى ألممنا بطرف من تاريخها ، يجمع بين كل من هذين الضربين من المهام ، كما أن ذلك الحاكم الآثينى المنتخب الذى ظل حتى هذا الحين يحمل لقب الملك خلال الاثنى عشر شهرا التى كان يعتلى فيها كرسى الحكم ، كان عليه أن يقوم ، بالإضافة إلى أعبائه الرسمية العادية على كثرتها ، بدور رئيسى فى احتفال من أقدس الاحتفالات السنوية ، تعاونه فى ذلك زوجه التى كانت تلقب بالملكة فى مثل هذه المناسبة على أقل تقدير ، تعظيما وتكريما لها . كما لم يكن يحتاج المرء إلى أية مؤهلات خاصة أكثر من الإلمام بأصول المهنة، لكى يصبح عرافا (màntis) . ولا شك فى أنه كان بوسع الكهنة أو المخبرين بالغيب كأفراد أن يمارسوا نفوذاً كبيراً ، إن نظر إليهم على اعتبار أنهم أشخاص ذوو حكمة وطهر فائقين، إلا أنهم لم يكونوا محوطين بهالات فنية ، تفوق ما يحيط به أطباءنا ومحامينا ، كما لم يكن بوسعهم أن يكتسبوا وعيا بطائفتهم ، من شأنه أن يحفزهم على تنسيق الجهود فى سبيل فرض سلطانهم الأدبى على إخوانهم .

وأخيراً فإن اليونانى العادى كان يحدوه البشر والتفاؤل فى موقفه من آلهته فمن بين صفاتهم الشائعة أنهم « مانحو الخير » ، والخير هو ما كان ينتظر منهم فى واقع الأمر .

وغنى عن البيان أن مطاردة الأشباح للأحياء ، حقيقة كانت أو متوهمة ، لم تكن تعد وحدها من الأمور الشاذة الخارجة عن المألوف ، وإنما كانت تشاركها فى ذلك الكوارث الطبيعية المادية مثل الأوبئة ومواسم القحط والفيضانات ، فعندما تقع إحدى هذه الكوارث كان يلتمس لها سبب أو آخر ، فى حين أن انقطاعها يؤخذ فى الغالب على أنه قضية مسلم بها وأمر لا يخرج عن مجراه الطبيعى وعلى ذلك ، فعندما كان الفرد من العامة يلحظ فى أغلب الأحيان أن الطقوس التى أداها ، على سبيل المثال ، رغبة فى ضمان حصاد طيب ، قد أعقبتها غلة وافرة من أرضه ، يصبح بطبيعة الحال أشد حماسا إلى الإيمان بأثرها الفعال . ولما كان يحى بموتى أسرته ؛ ولم تطارده أية أشباح ،فلا شك فى أن الطقوس أثبتت فاعليتها فى هذه المرة أيضاً .

وقد يصادف فألا حسنا وهو منصرف إلى عمله ، فيستحثه ذلك على مواصلة الجهد ، فإذا بعمله يكلل بالنجاح بفضل هذا الفأل وبفضل مثابرته وذكائه (وهما صفتان تميز بهما اليونانيون عامة فى كل عصر) . وعلى ذلك فالفأل صحيح، أرسله إله عطوف ليكون هاديا له . وجملة القول أنه كان شخصا معتدلا ، لا يعمد إلى القسوة ولا يمعن فى الظلم ، كما أنه يؤمن بآلهة تماثله تماما . أما القول بضرورة أن يكون هؤلاء فى مرتبة أسمى وأن يتحلوا بخلق بالغ الكمال ، فتلك فكرة لم تظهر إلا فى عصور متأخـــرة بعض الشىء كما لم تطرأ إلا على العقول المفكر وحدها .

أما بالنظر إلى ماقد يطرأ له ، حين يقضى نحبه ، بعد عدد من السنوات ليس بالكثير ، فيبدو أن هذا الأمر لم يكن يحظى باهتمام كبير طالما أن شئون الحياة الحاضرة كانت تسير سيراً مرضياً بالقدر المعقول . ولقد كان العالم السفلى كما أسلفنا ، موحشا كئيبا ، لا يمكن لامرئ أن تحدوه فى العادة رغبة فى الذهاب إليه . ومن ناحية أخرى فإن التطلع إلى الخلود لم يكن من السمات المميزة للسواد الأعظم من اليونانيين . كما لم يكن الفلاسفة الفيثاغوريون وغيرهم من الفلاسفة هم وحدهم الذين قرنوا اللانهائى واللاحدودى بالشر ، فقد كان الذوق العام يميل إلى الشىء المحدود المتناسب الأجزاء ، ومن ثم فهو فيما يتعلق بحياة الإنسان ، يتوق إلى مثل ذلك الكمال الذى يتحقق من العيش حتى شيخوخة طيبة فى ظل قدر معقول من سعة العيش ، وترك ذرية له ثم الموت ميتة كريمة مشرفة . وقد لا نجد الكثيرين ممن كانوا يخالفون القول المأثور عن سولون ، من أن تيلوس الآثينى كان أسعد بنى البشر أجمعين : « أولا : لأن مدينته ازدهرت وعلا شأنها ، وأنجب هو أبناء أفاضل ، ورآهم جميعاً وقد أنجبوا أبناء لهم : كلهم على قيد الحياة ، ثم إنه كان ، ثانياً : غنياً ، كما نقدر نحن اليونانيين الثراء ، وكانت خاتمته مشرفة مجيدة ، إذ أنه هب للنجدة فى معركة دارت رحاها بين الآثينيين وجيرانهم فى إليوسيس ، وحمل على العدو فولى العدو الأدبار ، ومات وهو يقاتل بشجاعة فائقة

وأقام له الآثينيون مأتماً على نفقة الدولة فى الموضع الذى لقى فيه مصرعه وكرموه أعظم تكريم » .

هذه هى النعم التى كان المهذبون من أواسط الناس من أبناء العالم القديم يلتمسونها من آلهتهم ، أما من تطلع إلى ماوراء ذلك ، وبخاصة من رغب فى الخلود ، فقد يحق له أن يتذكر تلك المشورة السديدة التى رددها شعراؤهم أكثر من مرة : « حذار أن تسعى لتكون زيوس » .

الفصل الثالث

أصول الآلهة

على الرغم من أنه ليس من الميسور دائما، كما أوضحنا من قبل، تتبع أصل أية عقيدة يونانية إلى منشئها، فلا بأس من أن نثبت هنا ما هو معروف على وجه التحقيق أو ما هو مرجح إلى حد كبير؛ حول تاريخ بعض المعبودات التى كانت تؤلف «البانثيون» أو مجموعة الآلهة اليونانية القديمة. فقد مضى منذ أقدم العصور التى تناهى إلينا من خبرها الشىء القليل أو الكثير، حتى زوال الديانات غير المسيحية من بلاد اليونان، ما يقرب من ألفين ونصف ألف من السنين، وفى خلال هذه الحقبة الطويلة لم يكن هناك مفر من أن تطرأ تغييرات كثيرة تتضمن إدخال معبودات أجنبية مع ما صاحبها من طقوس.

والجدير بالذكر أن لدينا قدرا كبيرا من الشواهد المتعلقة بالآلهة التى وجدها اليونانيون عند حلولهم بالبلاد لأول مرة. وهذه الشواهد تضمها الاكتشافات الأثرية الضخمة التى تمت فى كل من كريت، حيث ازدهرت الحضارة التى نطلق عليها اسم الحضارة المينوية، زهاء ألف وخمسمائة عام، وفى بلاد اليونان الأصلية التى كانت ذات حضارة مجيدة تعرف باسم الحضارة الموكينية، نسبة إلى المكان الأول الذى تمت فيه أولى الاكتشافات وأخطرها. أما من كانوا حملة هذه الحضارة، فمسألة فيها نظر، ولكنه يبدو بوجه عام أن هؤلاء كانوا فى الغالب من الغزاة؛ أسلاف الأشراف الذين تحدث عنهم هومر والذين أخذوا عن الكريتيين كثيرا من فنونهم وآداب سلوكهم؛ على أنه من المحتمل أيضا، ومما يذهب إليه بعض الباحثين، أنهم كانوا من المستعمرين الكريتيين الذين اجتذبتهم فرص الاتجار مع شعوب البلاد الأصلية. وسواء صدقت هذه النظرية أو تلك، فثمة دلائل واضحة

على أنهم كانوا يعبدون بعض الآلهة الشبيهة على الأقل بالآلهة المينوية، وأن عقائدهم هذه قد خلفت آثارها فيما وراءها فى صورة عدد من الأسماء الإلهية التى يتعذر تفسيرها فى ضوء أى من مفردات اللغة اليونانية، وفى طقوس وأساطير يماثل بعضها البعض وإن كان من السهل تمييزها عن الأساطير والطقوس اليونانية العادية. وبالجملة فلدنيا من الأسباب مايحدو بنا إلى الاعتقاد بأن الإلهات كن على رأس العبادات المينوية، وأنه قد كان لهن مركز الصدارة أيضاً فى بلاد اليونان الأصلية. كما أن الكثيرات منهن إن لم يكن كلهن كن « إلهات أمهات » وهو نمط ذائع كل الذيوع فى دول شرقى البحر المتوسط، كما يوجد غالبا فى أقطار أخرى. ذلك لأن الفكرة الشائعة فى واقع الأمر هى أن الأرض التى تخرج نباتات غذائية مختلفة الألوان، إنما هى شبيهة بالمرأة، أما الزرع فهو ذريتها. وفى أحيان كثيرة تكون هذه المرأة وهى « الأرض الأم » زوجة « للسماء الأب » الذى يبعث إليها بالمطر فيخصبها. وزيوس إنما هو « سماء أب » من هذا النوع، ومن السهل تعليل أزواجه الكثيرات من الإلهات والآدميات بأنها أشكال مختلفة لهذه الأسطورة القديمة المسايرة للطبيعة أشد المسايرة. ولكن هذه لم تكن هى الحال دائما. فقد تبلغ الأرض الأم من الأهمية شأوا بعيدا يبطل معه الاهتمام كلية بمن يكون زوجها أو عشيقها، والحق أنه فى بعض المدارج الأولى من أفكار الإنسان، لم يكن يدرك أن لكل طفل أبا، ولم تكن قصص ولادة العذارى تثير فيه أدنى عجب أو غرابة. ومن ثم فليس ثمة مايدعونا إلى الدهشة، فى أننا لانعثر إلا فى القليل النادر على أى شكل قد يمثل أحد الآلهة، بين الأعمال المينوية أو الموكنية الفنية العديدة التى تهدينا إلى قبس من ديانتها، فى حين أن الإلهات (ولا حق لنا أن نقول إنهن يمثلن جميعا إلهة واحدة) يبلغن من الكثرة حدا كبيرا، حيث يظهرن عاريات فى بعض الأحيان أو يرتدين فى الغالب ذلك الزى المعقد الذى عرفت به النبيلات المينويات، وفى حالة واحدة على الأقل ظهرت الإلهة نصف مختفية خلف درع هائل كانت تحمله، على نحو يذكرنا بتلك التماثيل الكلاسيكية العديدة للإلهة أثينا التى تظهر فيها وهى تمسك بدرع جندى المشاة اليونانى. وفى حين أننا لا نجـــد

أثراً واضحا على زوج إلهى لأى من هؤلاء الإلهات ، فإننا نقف على ما يبدو جليا أنه طفل إلهى :

اشتهر الكريتيون فى الزمن القديم بأنهم من دهاقين الكذب ، ومن أسباب ذلك أنهم زعموا أن زيوس قد مات وأن بوسعهم أيضاً أن يدلوا على قبره . ولا غرو أن ذلك قد بدا فى نظر اليونانيين سخفا محضا، وهم الذين لم يكونوا يفهمون عن الإله أنه ذو سلطان وقوة فحسب بل إنه خالد أيضاً . أما القول بخلوده فلم يكن يعنى فى العادة أنه كان كائنا روحانيا ، ومن ثم لايمكن أن يموت كما هو شأن الكائنات الحية التى تعيش فى الجسد ، بل إن روحه وجسده لايفترقان قط. ويترتب على ذلك أن القول بإله ميت ، ولا سيما القول بزيوس الميت ، إنما كان يمثل تناقضا فى التعبير . ولكننا إذا فحصنا قسطا آخر من القرائن التى عثر عليها فى كريت أيضاً ، تبين لنا على نحو أكثر وضوحا ما كانت تعنيه هذه الأكذوبة المزعومة فى واقع الحال . فإن الأمر لم يقتصر فحسب على الزعم بأن زيوس قد دفن فى تلك الجزيرة ، بل قيل أيضـاً إنه ولد بها ، وساد الاعتقاد بأن أموراً عجيبة تقع حولا بعد حول فى المغارة المقدسة التى شهدت مولده ، بما يوحى بأن هذا الميلاد لم يكن بأمر وقع مرة واحدة فى الماضى ، بل إنه أعجوبة متواترة متكررة . وفضلا عن ذلك ، فقد آلت إلينا أنشودة يونانية تنتسب إلى عصر متأخر نسبيا، يدعى فيها زيوس بأنه «أعظم الشبان» ويطلب إليه أن يأخذ بنصيب فى طقس يقصد به استدرار الرخاء للأرض . وهكذا ، فإننا نقف عليه طفلا حديث الولادة ، وشابا يافعا ، وجثة هامدة. وبمقارنته بآلهة مماثلة من مختلف أنحاء العالم يتضح لنا من هو ؛ فإنه لم يكن بحال «إله الطقس» كما رآه اليونانيون (أما عما دعا إلى تسميته بزيوس Zeus فذلك لغز محير ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه كان أبرز الآلهة التى عرفها اليونانيون فى كريت ، فطابقوا بينه وبين رئيس معبوداتهم ، بل كان أشبه بما يمكن تعريفه باسم إله السنة ؛ بمعنى أنه كان تشخيصا لاشعوريا للسنة، لا باعتبارها حقبة من الزمن ، بل باعتبارها دورة من المواسم ، تخرج خلالها إلى الوجود جميع الأشياء التى تغلها الأرض ثم تمر فى طور النضوج ثم تموت .

وهو على هـذا الاعتبار ابن دون شك « للأرض الأم » ، وهو على هـذا الاعتبار أيضا ينمو ويهرم ويموت ، لا لشىء إلا ليعود إلى الحياة فى العام التالى . وليس أدل على صلابة هـذه الفكرة ورسوخ قدمها على مر الزمن ، من أن هذا المعبود قد امتد به الأجل إلى عصر الحضارة المينوية وما اشتق منها من حضارات أيضا . أما فيما بين اليونانيين الذين لم تكن معتقداتهم تضم شيئا من هذا القبيل ، فقد ذوت هذه الفكرة واتخذت أشكالا مقنعة ، حيث صبح الابن الإلهى طفلا بشراً ، يطرح فى العراء ، إلا أن الحياة تكتب له من جديد بفضل رعاية حيوان أو كائن أعظم من الكائنات العادية كإحدى الحوريات .

ثم يشب بعد ذلك عن الطوق ويسلك حياة عامة مجيدة ولكنها حياة بشرية . وقد لا يصل قط إلى سن البلوغ بل يموت إما فى طفولتـه وإما وهو لم يزل حدثا صغيراً . ولقد سبق أن أشرنا فى معرض حديثنا إلى أشهر مثل لذلك . فليس ثمة سبب معقول يدعوا إلى الشك فى أن هيا كينثوس من أموكلاى كان واحدا من ذلك النوع من الآلهة الذى عرضنا له بالشرح منذ لحظات . فالثابت من اسمه أنه غير يونانى ، لأن المقطع الزائد فى نهايته وهو « نث » nth ، إنما يميز الأسماء القديمة التى يتعذر تفسيرهـا فى ضوء اللغة اليونانية فى عصر ازدهارها ، وهى فى بعض الأحيان أسماء أماكن مثل كورنثة (كورنثوس Korinthos) كانت تنتقل ، مع تغيير طفيف فى النطق بوجه عام ، من طبقة من السكان إلى أخرى ، وهى فى أحيان أخرى أسمـاء زهور أو نباتات أو أية معالم ثابتة أخرى للبيئة التى أحاطت بالوافدين الجدد ؛ ولنا أن نقارن أسماء البلاد مثل اسم تيمسكيمنج Temiskeming التى تنتشر فوق خريطة كندا وتنتسب إلى اللغة الأميرندية وليس إلى الأنجليزية أو الفرنسية . وألفاظ مثل « أوانانيشى ouananiche وكاريبو » caribou ويعنيان على التوالى سمكة ودابة ، لا توجد فى أوربا وإن كانت شائعة إلى حد كبير فى أمريكا الشمالية . وتشير الأسطورة التى تروى عن ذلك الإله أنه كان غلاما بيد أن الصور المنحوتة التى تزين العرش الكبير الذى يقوم عليه نصب قديم الطابع للإله أبولون فى المعبد الذى كان يتقاسمه هذان الإلهان فى الأزمنة التـاريخية ، لم

تصوره على هيئة غلام ، بل أظهرته رجلا ملتحيا . وصوره هـذا النحت أيضا محمولا إلى السماء على أيدى جماعة من المعبودات معظمهن من الإلهـات . أما الدوريون الذين فتحو أموكلاى بعد كفاح طويل وأدخلوا بها عقيدتهم الخاصة ، لم يدركوا فيما يظهر معنى للإله المحلى ولـكنهم قابلوه بالاحترام مثلما فعلوا مع المقاتلين الأشداء الذين يعبدونه ، وحاولوا أن يوائموا بينه على نحو أو آخر وبين الديانة التى يعرفونها . وجملة القول ، إذن ، أنه على الرغم مما لهذه الديانة الكريتية السابقة على اليونانية من أهمية تاريخية ، إلا أنهـا أثارت حيرة بالغة بين يونانى العصور الـكلاسيكية حالت دون تأثرهم بها تأثراً عميقا .

غير أن الأمر كان يختلف عن ذلك بالنسبة للآلهات . فقد كان الغزاة على شىء من العلم بكائنات تفوق الكائنات الطبيعية من الإناث وأمهات الأطفال ، لأنهم هم أنفسهم كانوا يعبدون واحدة على الأقل من هذه الـكائنات ، ألا وهى ديميتر Demeter . والدليل المؤكد على أصلها هو الحقيقة الماثلة فى أن اسمها يونانى ، فلا يمثل مقطعاه الأخيران سوى اللفظة الدالة على « الأم » فى اللغة اليونانية ، أما المقطع الأول فقد أمكن تفسيره على وجه مرض للغاية بافتراض أنه تركيب غير شائع للفظة التى تعنى الحنطة ، وهى ذلك الحب الحقير الرتبة الذى كان يمثل الطور المتقدم من القمح . فهى على ذلك « أم الحنطة » أو « أم القمح » أما ابنتها فهى كورى Kore أى العذراء ، وهى النظيرة الإلهية للحبة الجديدة التى تنمو وتحصد ثم تخزن . وعلى ذلك فقد كان هؤلاء الغزاة عند حلولهم بالبلاد التى قدر لهم أن يحتلوها على تمام الاستعداد لأن يعترفوا بألوهية شخصيات محوطة بالجلال والوقار مثل إلهة أرجوس الـكبرى . ولو أنه قد قدر لهذه الإلهة أن تحمل اسما على الإطلاق، فإنهم لم يلقنوه فيما يبدو ، لأنهم دعوها باسم هيرا Hera الذى لا يعدو ، فيما يظهر، أن يكون مؤنث هيروس heros ومن ثم فهو لا يزيد فى معناه على مدلول كلمة « سيدة » . وكان لها سلطان على كل ما يتعلق بالمرأة ، منذ نعومة أظفارها حتى كهولتها ، ومن ثم فقد كانت هى ذاتها أما . وترتب على ذلك أيضا أن تبين لأناس كهؤلاء الغزاة ، لا يحتكمون لغير المنطق والعقل ، أنه لا بد أن يكون لها زوج ،

ولم يكن هناك من زوج معروف يدانيها مهابة وجلالا سوى إلههم العظيم زيوس . وهكذا أصبح على رأس الأسرة الإلهية اليونانية زوج وزوجة ينتسبان إلى أصلين مختلفين جد الاختلاف . أما الزوجة الصحيحة والأصلية للإله زيوس ، فقد كانت ، كما هو مؤكد إلى حد بعيد ، من آلهات الأرض اللائى لم يثبت بأى دليل أن هيرا كانت من بينهن فى أى زمن من الأزمان ، كما كان اسم الزوجة كما يرجح ، استنادا إلى أن اسمها فى أقدم عبادة للإله ومقرها دودونا ، هو مؤنث اسم الإله ديونى Dione .

غير أنه كان من الصعب إلى حد ما المواءمة بين أرتيميس Artemis وبين التخطيط اليونانى العام . وليس من شك فى أنها كانت فى الأصل « إلهة أما » من ذلك النمط الذى لا نجد محيصا عن أن نسميها ، نظراً لجهلنا بما كان يدعوها به الكريتيون سيدة كل ما هو برى متوحش . أما عن ولايتها فكانت البرارى وما يعيش بها من حيوان ، فضلا عن أنها كانت تهيمن على النساء بطريقتين على جانب كبير الأهمية ، إذ قد تساعدهن فى أثناء الوضع ، كما أنه عندما تموت امرأة فجأة ، يقال إن سهم أرتيميس هو الذى أرداها . وكان من الطبيعى لإلهة مثلها ترتبط كل هذا الارتباط بعامل الخصب أن تكون هى ذاتها ولودا ، بيد أنها على خلاف بعض الإلهات اللائى كن يماثلنها فى غير ذلك من الوجوه ، لم يكن لها قرين . أما بالنسبة لمنطق الفكر اليونانى ، فقد كان ينبغى على الإلهات والآلهة أن يتمثلوا فى سلوكهم بالنبلاء العظام ، وقد تختلف قواعد السلوك لديهم عن مثيلاتها لدى البشر ؛ إلا أنه كان لهم قواعد السلوك الخاصة بهم ، وهم بالنظر إلى كونهم آلهة شعب يؤمن بالزواج بواحدة ، فلابد أنهم كانوا يقيمون وزنا كبيرا لعفة زوجاتهم وبناتهم وطهارة ذيولهن ، وإن كان للذكور منهم أن يسمحوا لأنفسهم بقسط كبير من الحرية مثلما كان يفعل النبلاء الآخايون . كان « الملك » فى ملاحم هومر (ومثل هذا اللقب يبدو أضخم من أن يخلع على أى ممن ذكرهم هومر ؛ وجعل لقب « نبيل » أقل بعدا عن التضليل) لا يحتفظ بغير زوجة واحدة ، بيد أنه كان له أيضا الحق فى أن ينجب نسلا من نسوة أخريات ، ولم يكن أحد من أبنائه هؤلاء أو أمهاتهم من المنبوذين ، فالنوثوس nòthos ،

أى ابن المولود من هؤلاء كان يعد فردا من أفراد العائلة التى يضمها بيت أبيه، كما كان له نصيب فى ميراثه، ولو أن نصيبه كان يقل عن نصيب الابن الشرعى . ولكن العادة جرت على إظهار النسوة من أقرباء النبيل، فى ثوب العفة والطهر ، فقد كانت جريمة شنعاء تلك التى اقترفتها زوجة أجاممنون حين اتخذت لها خليلا فى أثناء غيابه ، كما لم يكن من سبيل إلى غفران فعلة هيلانة عندما هجرت زوجها لتذهب إلى طروادة فى صحبة باريس ، إلا القول بأنها إنما كانت واقعة تحت تأثير أفروديتى ومن ثم فلم تكن تملك زمام نفسها . وعلى هذا القياس أيضا كان يسمح لزيوس بأن تكون له محظياته ، غير أنه كان يتحتم على ابنته إن لم تكن قد تزوجت أن تكون عذراء . أما القول بأن أرتيميس هى ابنته ، فتلك عقيدة لابد أنها ظهرت منذ زمن بعيد للغاية ، وأغلب الظن أيضا أنها نشأت عن محاولة للموائمة بين هذه الإلهة البالغة الأهمية وبين النظام الذى يقف هو على رأسه . وعلى ذلك فمحال أن تكون أرتيميس أما لأحد . وليس أدل على أن الإلهة الأصلية كانت محور كثير من الأساطير المحلية السابقة على الديانة اليونانية والتى تدور حول الأمومة وإنجاب الأطفال ، من القصص التى تروى عن نسوة مرتبطات بها أو حوريات يقمن على خدمتها ، ممن كن يعقدن فى الغالب ، وإن لم يكن هذا هو الحال دائما ، زواجا غير شرعى ، وكاليستو التى عرضنا لذكرها من قبل ، تعد شاهدا على ما نقول ، لاسيما وأنها تنقلب فيما تزعم بعض الروايات المختلفة لأسطورتها إلى دب ، وهو حيوان وثيق الصلة بأرتيميس . وهكذا ارتقت النظرة إلى إلهة البرارى القديمة فأصبحت بمضى الزمن رمزا كريما على البكارة ، وإن احتفظت ، رغم ذلك ، بشىء من عنفوانها القديم ، فى أنها ورفيقاتها كن من الصائدات .

وليس ثمة دليل شاف على أن أثينا كانت فى وقت من الأوقات « إلهة أما » ، إلا أن هناك من القرائن البينة ما يقطع بأنها كانت هى الأخرى بالبلاد قبل مقدم اليونانيين . وهى تشبه هيا كنثوس . فى أنها تحمل اسما يعد علما على العصر السابق على مقدم اليونانيين ، لأن المقطع الزائد فى نهايته وهو ra يعتبر من الخصائص المميزة للسان القديم غير المعروف الذى كان يتكلم به البلاسجيون ، إذ يظهر ، على

سبيل المثال ، فى ذلك الاسم الجغرافى البالغ القدم ، وهو موكيناى Mycenae . كما أن سلوكها ، كما يتبدى فى بعض أبيات من هومر ، يشير إلى أحد المعالم البارزة للديانة المينوية الموكينية ، وهو ما تكشف عنه فنونهم أيضا ؛ إذ تعرض الكثير من المشاهد التى يتضح منها أن الطيور التى تشاهد فى أماكن مقدسة وترتبط بأشياء مقدسة ، إنما هى أشكال مرئية للآلهة، ولقد كشفت أثينا لدى هومر، عن ألوهيتها ، فى أكثر من مرة ، بأن اتخذت بعد ظهورها فى هيئة بشرية بين الناس ، صورة طائر وحلقت بعيدا . والحقيقة أن رفيقها الدائم كان طائرا ، وهو البومة . أما إذا أردنا أن نقف على ما كانت عليه طبيعة هذه الإلهة فى الأصل ، وقبل أن يحيلها خيال اليونانيين وعميق شعورهم الدينى إلى تلك الشخصية النبيلة التى تتمثل فى ربة الحكمة وراعية المهارة والحذق ، وهى الصورة التى تبدو عليها الآن فيما آل إلينا من أدب اليونان ، فلدينا فى ذلك عدد من الأدلة غير الصريحة . لقد كانت أقدم عباداتها المعروفة ترتبط بالمعاقل الطبيعية ، مثل الأكروبوليس Acropolis أو القلعة فى أثينا، حيث كانت تقوم زمنا ما قصور السادة الموكنيين، وحيث لا يزال فى الإمكان الكشف عن آثار أساساتها . كما تبدو نزاعة إلى الحرب على الدوام ، مما يذكرنا بصورة تلك المرأة التى سبقت الإشارة إليها ، وقد حملت درعا موكينيا ضخما ، كما تبدو على لوح من الحجر الجيرى عثر عليه فى موكيناى ذاتها . ولكن ذلك من شأنه أن يثير من الوهلة الأولى التساؤل عما يدعو إلهة من الإلهات أن تبذل كل هذا الاهتمام بالحرب، خاصة وأنه قد كان لليونانيين فى العصور الكلاسيكية إله للحرب معترف به هو آريس Ares . وعلى أية حال ، ففى وسعنا أن نعثر على شىء من هذا القبيل ، إذا ما وجهنا أنظارنا شطر بلاد إيطاليا القديمة ، حيث تظهر الإلهة العظيمة جونو Juno ، وذلك فى لانوفيوم Lanuvium حاملة رمحا ودرعا . وكان للمعبود الرئيسى لدى أى قطر فى العصر القديم أن يتخذ لنفسه مهاما حربية ، بالنظر إلى جولات الصراع المتصل ضد المجتمعات المجاورة ، التى كانت تمثل أحد المعالم البارزة فى جميع تاريخها وعلى ذلك فإننا عندما نجد إلهة تلبس الدروع وترتبط بقصور النبلاء الموكينيين المقاتلين ـــ ذلك لأن كل ما نقف عليه من هذه الحضارة ينبئنا بأن تاريخها كان عاصفا ـــ فالنتيجة المنطقية أن أثينا بدأت حياتها إلهة حامية

لهؤلاء الأمراء ولدورهم ، وأنه عندما قضى عبادها نحبهم بقيت هى على صلتها بالقلاع الطبيعية التى كانت تقوم فوقها القصور المحصنة التابعة لهؤلاء الذين كانوا سادة البلاد زمنا ما ، كما ظلت موضع تقديس وعبادة من جانب الوافدين الجدد من سكان المدن التى تتكلم اليونانية والتى قامت حول المواقع التاريخية القديمة . أما أن يرتفع بها بعض الشيء ، شعب دءوب أريب عن مجرد كونها دريئة منيعة ضد أعدائه ، وأن تصبح على ذلك حامية للفنون والصناعات اليدوية فضلا عن الجنود المقاتلين وأسلحتهم ، فذلك ما لا يدعو إلى عجب أو غرابة . والحقيقة أن بوسعنا أن نقول فيما يختص بكونها إلهة الحرب ، إنها كانت إلهة الحروب المتمدينة مع ما يتصل بها من نظم عسكرية مستنيرة فى حين أن آريس ، الذى يبدو فى رأى البعض أنه كان فى الأصل إلها للموت ، ظل مقرونا بالمذابح وجنون الحرب والموت القسرى على اختلاف صوره ، بما فى ذلك الموت من أثر الإصابة بالأوبئة .

ويمكن أن نرجع بأصل إلهة أخرى تنتسب إلى نمط الإلهات الأمهات ، وهى أفروديتى ، إلى جزيرة قبرص ، ذلك المركز التجارى والصناعى البالغ القدم ، إذ يعرف معدن النحاس فى اللغة اللاتينية باسم aes Cyprium أو Cyprum نسبة إليها ، ومن المعروف كذلك أنه فى نهاية العصر الحجرى اكتسبت تجارة النحاس أهمية مطردة ، وهو معدن موجود فى الجزيرة . كما عثر فى هذه الجزيرة أيضا على تماثيل أثرية عتيقة تبالغ فى إبراز الخصائص الجنسية ، على النحو المعهود فى مثل هذه الأشياء البدائية . وقد أقام اليونانيون مستعمرة فى قبرص فى زمن مبكر ، كما يستدل من الحقيقة الماثلة فى وجود طائفة مختلفة بها من مفردات اللغة الأركادية العتيقة البالغة القدم ، ولابد أنهم عرفوا بطبيعة الحال الإلهة الرئيسية لهذه البلاد . وعندما حلت أفروديتى ببلاد اليونان الأصلية ، ألفت نفسها فى مواجهة خصوم ألداء ، وبخاصة هيرا ، ومن ثم أصبح نشاطها قاصرا إلى حد بعيد ، لا على الشئون التى تتسم بالوقار والاتزان مثل الزواج والتناسل ، وإنما بالأحرى على كل ما يتعلق بعاطفة الحب ، وهذا هو السبب دون ريب فيما هو شائع عنها من أنها أم لإيروس Eros ، وهو إله لم تكن لها به أية علاقة أصلا . أما الطابع الخلقى

لعبادتها فكان يختلف اختلافا كبيرا من معبد إلى آخر . وهكذا نجد أن فى أثينا وفى أماكن أخرى ، كانت شعائر العبادة تقام لها على اعتبار أنها « بانديموس » Pandemos أى تلك التى تقع فى دائرة نفوذها شئون الحب والزواج المتعلقة بجميع الناس » ، وتذهب القرائن التى بأيدينا إلى الدلالة على أن عبادتها كانت من نوع لا اعتراض عليه بتاتا . أما فى كورنثة وفى أماكن أخرى ، فإن الإلهة لم تحتفظ فحسب بلقبها القبرصى القـــديم ، وهو « أورانيا » Urania أى السماوية ، بل كانت لديها عاهرات ملحقات بالمعبد للقيام بخدمتها ، مثل بعض إلهات آسيا الصغرى . وثمة جانب من طبيعتها حقيق بأن يثير دهشة من لا يعرفون هذه الإلهة إلا من خلال خيالات الأدباء ، وهو أنها مثل أثينا ، تبدو من حين لآخر فى ثوب امرأة محاربة ، فهى (حاملة الرمح) فى جزيرتها الخاصة ، إذ تدعى أريا Areia (ومعناها المحاربة)فى جزيرة كوثيرا Kythera المواجهة للشاطىء الجنوبى من البليبونيز ، وكثيرا ما تقرن بالإله آريس Ares الذى يظهر فى شتى الأساطـــير المعروفة على أنه عشيقها ، أما زوجها فهو فى الغالب هيفايستوس Hephaistos رب الحدادين والصناع . غير أن ثمة ارتباطاً آخر ، يتعذر تفسيره إذا ما وضعنا فى اعتبارنا بادىء ذى بدء أنها إلهة حب ، إلا أنه سيكون ميسور الفهم إلى حد بعيد لو أننا تذكرنا طبيعتها الأصلية ، وهى ارتباطها بالموت . ففى دلفوى Delphoi كما يقول بلوتارخوس الذى كان على علم كبير بتلك البلدة ، كان يقوم لها تمثال صغير يسمى (أفروديتى بالقرب من القبر) حيث يدعو الناس الموتى إلى قبول القرابين المقدمة لهم . ولا غرو ، (فالأم الكبرى) التى تخرج إلى الوجود كل ما هو حى ، هى أيضا التى تتلقى كل حى فى النهاية عندما يقضى نحبه .

وإذا وجد الآخايون أن بلاد اليونان تحوى بالفعل عدداً كبيراً من الإلهات فقد دفعهم ذلك إلى أحد أمرين ، إما أنهم لم يصحبوا معهم سوى عدد ضئيل منهم وإما أنهم طابقوا بين إلهاتهم وبين الإلهات المحلية مطابقة تامة إلى الحد الذى اختفت فيه إلهاتهم باعتبارها موجودات لها كيان منفصل . وعلى خلاف المينوليين

والموكنيين ، فقد كان الآخايون يميلون بوجه عام إلى أن تكون رؤساء الآلهة لديهم من القوى المذكرة ، كما لم يكونوا يترددون فى أن يأخذوا عن الشعوب الأخرى التى لهم بها صلة ، أياً من الآلهة التى يبدو لهم أن الأصوب كسب رضائه . وليس هناك سوى إله واحد يمكننا أن نقول عنه . ونحن على يقين تام ، إنهم عبدوه على الدوام منذ أن انفصلت لغتهم عن اللسان المشترك الذى كان يتكلم به أسلافهم والذى يعرف إما باسم اللغة الهندية الجرمانية ، وإما اللغة الهندية الأوربية وإما لغة الفيرو . ذلك هو زيوس Zeus « الساطع » ، وهو من الناحية اللغوية ، يمثل المعبود ذاته الذى يعرف باللاتينية باسم يوبيتر Iuppiter وبالألمانية باسم تيو Tiu . وهو رب السماء التى كان ينظر إليها فى هذا المقام لا على أنها الطبقة الصلدة التى يقوم عليها سكن الآلهة السماوية ، وهى الصورة التى كانت ترتسم لها فى مخيلات معظم اليونانيين قبل أن يتقدم العلم لديهم ، بل باعتبارها المكان الذى تصدر عنه التقلبات الجوية . يقول ثيوكريتوس : « يبدو زيوس تارة صافياً ، وتارة مطيراً » ، وهذه العبارة إنما تبين أوجه نشاطه الرئيسية . كما تدل فى الوقت ذاته على ميل عام إلى المطابقة بينه وبين القسم الخاص به من الكون . وغنى عن البيان أنه قد كانت لديه سلسلة طويلة من الألقاب الدالة على إرساله الرعد والبرق والمطر والريح إلى آخره ، كما أنه بالنظر إلى أن اهتمام المزارع بالطقس ينصب على النواحى العملية ، فقد كان لزيوس أيضا سلسلة أخرى من الألقاب التى توضح علاقته بالزراعة .

ولكن أنى لذلك أن يأتى على جوانب طبيعته المركبة ؟ فهو بالنظر إلى عليائه وعظمته وقربه رغم ذلك من الأرض بالقدر الذى يكفل له أن يؤثر عليها ، لابد أنه عالم بكل شىء وواسع الحكمة أيضا ، كما هو حال « آلهة السماء » فى كافة أنحاء الأرض ، إذ أنهم يعاينون ويسمعون كل ما يجرى . وفضلا عن ذلك ، فثمة أشياء تتساقط من السماء على الدوام ، وهذه لا تقتصر على المطر فحسب ، بل تشمل أيضا الصواعق والنيازك . ولما كانت هذه تقوم شاهداً على القوة أو « المانا » التى يتمتع بها الإله السماوى ، فقد كانت تحمل اسمه فى بعض الأحيان ، فإننا نسمع من حين لآخر عن عقيدة زيوس كابوتاس Zeus Kappotas أى « زيوس الهابط » ،

وذلك على سبيل المثال ، بالقرب من جوثيون Gythion ، ميناء اسبرطة . كان الشيء المعبود هو قطعة من الحجر ، ولعله كان معلوما أو من المعتقد زمنا ما أنه حجر نيزكى ، رغم أن أبنـاء الأزمنة المتأخرة لم يعودوا يذكرون بالضبط السبب الذى من أجله يحـاط بكل هذا التقديس . وإذا كان لزيوس أن ينزل فى صورة حجر أو شؤبوب من المطر،فلا غرابة فى أنه قد ينزل أيضا فى هيئة جسمانية أو قد ينزل متخفيـا ، والأساطير التى تروى عن قيامه بمثل ذلك من أجل شتى المقاصد والأغراض ، لاتقع تحت حصر ، ويؤكد لنا عدد كبير من القصص وغير قليل من الألقاب أنه كان مهتما بسلوك الآدميين الذين كان يرقبهم من داره العالية . وعلى ذلك فقد كان من صفاته : « أكسينيوس » Xenios أى « إله الغريب » ، وقرى الغرباء فرض واجب . يقول هومر : « تتجول الآلهة بين البـلدان فى هيئة الغرباء القادمين من أقطار أجنبية ، متخذة فى ذلك مختلف الأشكال، ترقب جشع الناس وتعاين معاملاتهم المشروعة » وتحدثنا الأساطير فى أحيان ليست بالنادرة، كيف أن زيوس نفسه قام بهذا العمل ذاته ،مجازيا أو معاقبا حسبما يقضى الحال ، من قاموا بواجبهم نحو السائل المزعوم فقدموا له الطعام والمأوى أومن أعرضوا عنه . كما أن ثمة رحلات أخرى كان يقوم بهـا إلى الأرض ، لأغراض غرامية ، كلما استهوته هذه المرأة أو تلك.ومثل هذه الأسطورة وعدة أساطيرأخرى غيرها، ليست سوى أقنعة رقيقة ، تختفى وراءها الأسطورة القديمة التى تبين كيف اقترن الأب السماء بالأرض الأم ، ولـكن بغض النظر عن ذلك ، فإن سلوكه يشبه إلى حد بعيد سلوك النبلاء الآخايين الذين تحدثنا عن علاقاتهم الجنسية فيماسبق. ويجدر بنا أن نتنـاول فى موضع آخر التعليقات التى أثارتها هذه القصص خلال ما أتى من عصور تفوق هذا العصر سفسطة وبعداً عن الفطرة . ولم يكن فى هذه القصص كما كان يبدو لرواتها الأوائل ، مساس على الإطلاق بمقام الإله أو بسمعة النسوة اللائى اختصصن على هـذا النحو بعطفه . وثمة جانب آخر ، وجانب بالغ الأهمية أيضـا ، لهذا المعبود العظيم ، ألا وهو الاعتراف به منذ زمن بعيد بأنه رئيس الآلهة ، وأن قوته تفوق قوة سائر الآلهة مجتمعة ، وهكذا اتخذت الخطوة الأولى فى سبيل التوحيـد . أما عن الاستنتاجات الفلسفية التى توصل إليهـا المفـكرون

المتأخرون ، فسنتناولها بالبحث عندما نأتى إلى الحديث عن الديانة الشخصية ، بيد أن زيوس كان فى نظر الكثيرين ، من هومر قصـــاعدا : « أبا (بمعنى الحاكم الطبيعى ، ولا تعنى هذه اللفظة بالضرورة العلاقة الجسمانية) لكل الناس والآلهة ».

وكان زيوس أحد أشقاء ثلاثة ، ثانيهم هو بوسيدون Poseidon ، وقد ثبت أنه أقل قدرة من شقيقه الأكبر على النمو الخلقى واكتساب المحامد والفضائل ، ولكنه رغم ذلك يمثل شخصية جليلة مهيبة . أما عن أصله اليونانى ، فتلك مسألة لم تستقر الآراء حولها على وجه بات ، بالنظر إلى أننا لسنا على قدر ثابت من اشتقاق اسمه اللغوى ، ولكن الأرجح أنه يونانى . فلو كان الأمر كذلك لاستحال إلى حد بعيد القول بأنه كان فى الأصل إلهـا للبحر ، مثلما يظهر فى الأساطير الشائعة عنه وفى جانب كبير من عبـادته فى العصر الكلاسيكى القديم ، لأن أيا من الأصقاع التى انحدر عنها الآخايون لم تكن مناطق ذات سواحل بحرية . ومن ثم فمن المحال أن يكون بوسيدون سيد عنصر من عناصر الطبيعة ، لا يعلم عنه عبدته شيئا . والأرجح أنه كان إلها للمياه بوجه عام ، متمثلة فى الأنهار والينابيع ، وأخيراً وليس آخراً ، المياه الجوفية سواء التى تجرى بالفعل أو التى كان يتوهم وجودها ، ذلك لأنه كان إله الزلازل ، ولعله كان يعتقد فى العصور القديمة أن هذه إنما تنشأ عن حركة المياه الجوفية فى موضع ما بباطن الأرض ، ولو أن هذه ليست العلة الوحيدة التى نسبها خيال العامة إلى الزلازل .

وعلى ذلك فإن بوسيدون ، بالنظر إلى كونه إلها للمياه ، يدخل ، شأنه شأن زيوس ، فى علاقات مع « الأرض » التى لا يمكنها أن تثمر ما دامت جافة . ومن هنا يتضح المغزى الحقيقى لواحد من أقدم ألقابه وهو « جيا أوخوس » Gaiàochos ، أى حامل أو معانق الأرض ، أو بعبارة أخرى زوج « إلهة الأرض ». ولا يغمط من هذه الحقيقة أو يناقضها ، أنه وفق ما جاء فى الأساطير ، لم يكن زوجها بل حفيدها ، فإن مثل هذه الأنساب ، وهى المحاولات الأولى لضم شتات التقاليد فى نظام موحد ، إنما هى أمور لا قرار لها ، بل هى على أحسن الفروض أدنى إلى الزيف والبطلان . وكان بوسيدون ، لسبب لم يعد فى مقدورنا إدراكه ، إلها للخيل أيضا ،

بل كان يظهر هو نفسه فى هيئة حصان ، كما يقال عادة إنه كان صانع أول حصان وقعت عليه الأبصار خارجا من الأرض. كما كان ينسب إليه فى بعض الأحيان أبوة كائنات لها هيئة الحصان بكاملها أو فى بعض أجزائها ولكنه ، عندما عرف أتباع بوسيدون البحر ، أصبح ذلك هو النطاق الرئيسى لنفوذه وما لبثت معبودات البحر القديمة ، التى لا بد أنها كانت موجودة هناك قبل حلول الآخايين ، أن أخلت له مكانها تماما على نحو أو آخر . فواحدة من هذه المعبودات ، وتدعى أمفيتريت Amphitrite باتت تقوم بدور الزوجة المغموورة للإله العظيم . وثمة معبود آخر هو نيريوس Nereus استطاع أن يحتفظ لنفسه، على الرغم من أنه قد أصبح هو نفسه مغموراً خامل الذكر بمكان بين معتقدات العامة ، بالنظر إلى أنه كان أبا لحوريات البحر التقليدية المعروفة باسم نيرايديس Nereides (بمعنى بنات نيريوس] ، وما زال الاعتقاد بها قائما فى أنحاء الريف اليونانى ، ولو أن اسمهن قد حور فى الوقت الحاضر إلى نيريغديس Neraïdhes ، كما لم يعد نشاطهن قاصراً على البحر وحده . وقد بقى بوسيدون ، مثله فى ذلك كمثل مملكته ، فظ الطباع مقيتها ، عرضة لسورات غضب جامح ، كما أن أبناءه الآدميين ، إذ كانت له مثل زيوس خليلاته من البشر ، كانوا أهل قسوة وظلم على الدوام . وكان بوسيدون ، كما هو منتظر من شعب جواب للبحار ؛ وتبلغ شواطىء بلاده حداً هائلا من الطول بالقياس إلى المساحة الكلية للبلاد ، يتلقى الشيء الكثير من شعائر العبادة ، إلا أن ما كان ينتزعه من النفوس أقرب إلى الإكبار والإجلال منه إلى الحب .

أما عن الشقيق الثالث ، هاديس ، فلا حاجة بنا إلى أن نستفيض فى الحديث عنه . فقد رأينا فيما سبق أن الأحياء لم يكونوا يقيمون له شعائر العبادة ، أما الطقس الهام الوحيد الذى كانت له به صلة ، وهو الأسرار الإليوسية ، فسوف نتناوله بالبحث فى موضع آخر .

ولعل أصدق مثل للآلهة اليونانية ، وهو أبولون Apollo لم يكن فى البدء إلها يونانيا . وتختلف الآراء حول الموضع الذى عثر فيه الآخايون عليه ، فإن ثمة

أموراً كثيرة عن عقيدته وأساطيره تشير إلى الشرق الأدنى فى حين أن أموراً أخرى تشير إلى منطقة شمالية . ولكن بغض النظر عن منبته ، فقد تأقلم تأقلماً تاما بموطنه الجديد ، قبل تاريخ أقدم الوثائق التى آلت إلينا . أما عن نسبه فيونانى قلبا وقالبا ، شأن أنساب جميع الآلهة المجتلبة من الخارج فإنه ابن زيوس من ليتو Leto التيتانية ، وهى أحد نماذج الجنس القديم من الآلهة ، الذى سبق آلهة أوليمب وأرتيميس هى شقيقته التوأم . أما عما دعا إلى أن تقوم بين هذين الأخيرين اللذين ينتسبان إلى أصلين مختلفين جد الاختلاف ، مثل هذه الصلة الوثيقة على الإطلاق ، فذلك مالا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأى ، ولعله كان للحقيقتين المائلتين فى أن كليهما كان يحمل قوسا وأن كلا منهما كان مرتبطا بحيوان الغاب ، أثر فى ذلك . ويبدو أن أبولون كان فى أقدم صوره ، إلها للرعاة ، ومن هنا جاء اسمه « نوميوس » Nomios (إله المراعى)

وكان من دأب آلهة اليونان ، كما هو الحال مع آلهة معظم الأمم ، أن تتشبه بعبادها ، والحقيقة أنه لم يكن من النادر أن يحمل المعبود اليونانى ألقابا تدل فى الواقع على حال من يعبدونه . وهكذا يظهر زيوس فى بعض الأحيان على أنه « هيكيتيس » Hiketes بمعنى « الضارع » لأن من يضطرهم الأمر إلى التماس العون من شخص آخر ، سواء كانوا غرباء أو ضيوفا ، إنما يخضعون لحمايته ، وإيذاؤهم يعد جرما فى حقه . وكانت عبادة هيرا تقوم على أساس كونها « عذراء » و « زوجة » و « أرملة » ، إذ أنها كانت إلهة للنساء ، وجميع النسوة يندرجن تحت فئة من تلك الفئات الثلاث . ومن ثم كان على « أبولون إله المراعى » أن يسلك سلوك راعى الماشية الآدمى . وإن ذلك ليفسر على الفور علة حمله القوس ، ذلك لأن الراعى فى العصر الحديث ، الذى يعمل فى أرض موحشة وعرة يحمل سلاحا ناريا ليدفع به الحيوانات الضارية أو لصوص الماشية . كما أن فى ذلك ما يعلل اهتمامه بالطب ، فرعى الماشية فى المراعى الجبلية عمل يتسم بالوحدة والعزلة. وينبغى على من يشتغلون به أن يلموا ولو بقدر محدود ، بطريقة علاج الأمراض التى تصيبهم هم أو تصيب ماشيتهم . ويتضح من ذلك تماما السبب فى كونه ربا

للذئاب (Lykeios) لأن الذئاب التى انقرضت فى الوقت الحاضر فى كل من شبه جزيرة البلقان وما جاورها ، كانت تمثل آنذاك الخطر الرئيسى الذى يتهدد الماشية سواء الصغيرة منها أو الكبيرة . وقد يعيننا ذلك على تفسير اهتمامه بالموسيقى ، على الرغم من أن آلته الموسيقية المختارة كانت القيثارة ، وأن راعى الغنم أو الماشية اليونانى لم يكن يحمل أية آلة وترية بل كان يحمل مزماراً . بيد أننا لا نعلم من أين جاءته قدرته على التنبؤ ، كما يتعذر علينا أن نتتبع علمه وخبرته بكل شئون التطهير حتى أصلها الأول . ومع ذلك فإنه من الحقائق المعروفة أن أشهر مهابط الوحى اليونانية قاطبة ، وهو ذلك الذى يقع فى دلفوى ، كان ينسب إلى أبولون خلال العصور التاريخية ، على الرغم من أن أسطورة المعبد التى تؤكدها بعض القرائن الأثرية ، تنهى إلينا أن هـــذا المعبد كان قبل مقدمه هيكلا لإلهة الأرض (Ge Themis) رغم أنه كان قد اكتسب فعلا صفة العرافة . وعلى النقيض مما كان يفعله معظم من كانوا يدلون بنبوءات يونانية ، فلم يكن أبولون يبعث بأحلام منذرة إلى من يسألونه المشورة ، أو يستخدم الوسائل الآلية مثل ضرب القرعة . أو يلجأ حتى إلى الفأل ذاته ، بل كان يوحى مباشرة إلى نبيته وهى « البوثيا » Pythia (نسبة إلى پوثو Pytho وهو الاسم القديم لمدينة دلفوس) بالإجابة عن السؤال المطروح . فتنطق وهى فى حالة غيبوبة بكلمات قد لا تحمل أى معنى على الإطلاق بالنسبة للسائل ، الذى يتسلم بعد ذلك من أحد كهنة المعبد ردا مكتوبا فى الوزن السداسى عادة ، يمثل الترجمة الرسمية لما قالته . ولاشك فى أن الغش والخديعة كانا يتطرقان فى بعض الأحيان إلى إنشاء هذه الكتابات ، غير أنه ليس هناك أدنى سبب يدعونا إلى الاعتقاد بإن أيا من هؤلاء البيثيات لم تكن غير امرأة « وسيطة » أو « روحانية » ، كانت تعتقد دون شك تمام الاعتقاد بأن الإله قد حل بها وأنه تكلم من خلال شفتيها اللاواعيتين ، مثلما يحدث « الوسيط » فى جلسة روحانية حديثة . وكانت الصورة التى ترسم فى الأذهان لشخص الإله أبولون هى أنه شاب وسيم رشيق ، أما عن مزاجه فهو عطوف كريم ، وإن كان غضبه عند

الإساءة إليه أمراً لا يستهان به . ولما كان هو صاحب الحظوة لدى أبيه الإله زيوس، فقد كان يدلى بنبوءات صادقة لأنه كان يعلم مشيئة أبيه ومقاصده .

وقد ظهرت هناك إبان القرن الخامس قبل الميلاد ، لأسباب خافية علينا ، نظرية فلسفية تنادى بأن أبولون تشخيص للشمس . ولقيت هذه النظرية ذيوعا كبيراً ، الأمر الذى يستدل عليه ، على سبيل المثال ، من الأبيات الكثيرة التى يتضمنها الشعر اللاتينى والشعر الحديث والتى تزعم أن فـــويبوس Phoebus (وفويبوس Phoibos أى «الساطع» أو «الطاهر» من ألقاب أبولون) قد أشرق أو مال للمغيب ، وهى تعنى بذلك أن الشمس هى التى تشرق أو تغرب . ولعله كان من نتيجة ذلك ، أن ظن الكثيرون أن أرتيميس هى القمر .

أما عن آريس Ares .فقد سبق أن عرضنا له فى موضع آخر . وقد كان الأقدمون ينظرون إليه بوجه عام باعتباره وثيق الصلة بتراقيا ، وكان سكانها الذين كانوا أكثر تخلفا من بقية سكان بلاد اليونان ، ينقسمون إلى عدد من القبائل الهمجية الثائرة ، التى يناصب بعضها البعض العداء على الدوام . ولا يبعد أن كان آريس فى الأصل إلهاً تراقياً ، رغم أنه زود بنسب يربطه بالآلهة الأولمبية ، فقيل إنه ابن زيوس وهيرا . ولم يرق الحال به قط إلى ما يزيد على كونه مجرد سفاح علوى ، لا صلة له بأية مبادىء خلقية ، كالتى باتت تنسب إلى الكثيرين من ذوى قرباه المزعومين ، وبخاصة زيوس وأثينا وأبولون وبالنظر إلى أنه لم يكن بالإله المحبوب لدى الجماهير ، ذلك لأن اليونانيين رغم أحقادهم المتصلة لم يكونوا يرغبون فى الحرب قط ، فقد كان أوفر حظا فيما كان ينعت به فى الأدب من صفات غير حميدة من أى معبود آخر . وعلماء الدين إذ يضعونه فى مرتبة الإله مارس الإيطالى ، إنما يمنحونه أكثر مما يستحق ، لأن مارس يتجاوز إلى حد بعيد مجرد كونه إلها للحرب .

ومما لاشك فيه أن هينايستوس كان إلها أجنبيا ، الأمر الذى يستدل عليه ، إن لم يكن ثمة دليل آخر ، من مواقع مراكز عبادته ، لأن هذه قد بدأت فى

الانتشار من آسيا الصغرى . ولعله ظهر أول ماظهر فى صورة إله للنيران البركانية، وأنه قدم من تلك المنطقة التى يسميها اليونانيون المنطقة «المحترقة» من آسيا ، والتى تظهر بها دلائل ، لابد أنها كانت تبدو أشد وضوحا فيما مضى ، على نشاط بركانى سابق . ويقترن اسم هيفايستوس بجزيرة ليمنوس Lemnos التى كانت تظهر بها أيضاً دلائل على طبيعتها البركانية ، أو أن ذلك على أقل تقدير هو ماظنه القدماء عنها . بيد أنه عندما حل بالأجزاء ذات التقدم الملحوظ من بلاد اليونان ، أى تلك التى قطعت شوطا بعيـــداً نسبياً فى مضمار التصنيع ، مثل أتيكا ، فإنه أصبح ربا لأصحاب الحرف الذين يستخدمون النار فى صناعاتهم. وحين تقدم صوب الغرب، مع ركب الحضارة اليونانية حين سعت إلى إيجاد منفذ للفائض من سكانها فى إيطاليا وصقلية ، عاد إلى الارتباط من جديد بعنصره القديم ، إذ كان من بين الأقوال الشائعة فى تعليل النشاط البركانى لجبل إتنا هو أن هيفايستوس إنما يقيم كوراً للحدادة فى مكان ما أسفل هذا الجبل . وإذ كان كما تروى الأساطير ، إبنا لهيرا بلا أب ، فقد ظل غريباً بعض الشىء عن دائرة الآلهه الأوليمبية ، بحيث كان أقرب إلى معبود هربى .

وفى زمن غابر يرقى إلى أوديسية هومر (ولعل ذلك كان من قبيل الإضافات التى أقحمتها على الملحمة يد مجهول فى زمن مبكر أيضاً) يظهر هيفايستوس بطلا لقصة هزلية تروى كيف أن زوجته أفروديتى خانته مع آريس وكيف انتقم لنفسه من العاشقين انتقاما أريبا . ولعل فى إمكاننا أن نفترض سببا لذلك . إذ ينظر إلى الآلهة اليونانية ، كقاعدة عامة ، على أن لها من الجمال والبهاء قسطا لايتأتى للبشر ، بيد أن هيفا يستوس مصاب بالعرج ، ولعله يشبه فى هذا الصدد الحدادين من البشر فى المجتمعات الصغيرة ، حيث يجد الرجل الذى لايستطيع أن يسير مسافات بعيدة ، والذى يتمتع فى غير ذلك من النواحى بصحة جيدة أن من المحتم عليه أن يثبت نفعه للمجتمع بإصلاحه الأدوات والأسلحة وصنعها لسائر أفراده . وعلى ذلك فإنه يبدو على شىء من غرابة الخلقة وقبح الشكل. ويمكننا القول بالإضافة إلى ذلك إن طابعه الأجنبى الدخيل يبدو أشد وضوحا ، رغم شجرة نسبه المزيفة ، مما يبدو

بالنسبة لسائر الآلهة غير اليونانية الآخرين ، لأنه عندما حل الآخايون ببلاد اليونان ، عثروا بها على صناع يفوقون صناعهم مهارة وحذقا . ولذلك فقد شملت معتقداتهم ، إلى جانب هيفا يستوس حدادين علويين آخرين ، مثل «اليكخينيس Telchines الذين اشتهروا بمهارتهم البالغة وإن عرفوا بخبث طويتهم ونزوعهم إلى السحر الوبيل .

وعلى أية حال ، فلم يكن لدى العامل في صناعة المعادن متسع من الوقت للاهتمام بما كان يشغل النبلاء اليونانيين بوجه خاص ، ولقد كانت التقاليد اليونانية تقاليد أرستقراطية رغم ما قد تبلغه سياساتهم من نزعة ديمقراطية أو اشتراكية . ولا غرو وهو مشغول فى مسبكه أو مصنعه ، لا يشتغل بالصيد أو الزراعة أو القتال أو يحرز بطولات رياضية مثل العدو والقفز ، أن يعبد إلها على شيء من الغرابة ، وليس إلها عاديا أوليمبيا مثل أبولون .

ومن بين الآلهة الأجنبية البالغة الأهمية ، إله وفد فى زمن متأخر نسبيا هو الإله ديونسوس . ومن الممكن أن نعود بأصل هذا الإله إلى فريجيـــا ، حيث يدعى ديونسيس Diounsis ، يمكن أن نرجع به أيضاً إلى تراقيا ، وهى قطر يرتبط من حيث سكانه ولغته بشعب فريجيا واللسان الذى يتكلمون به ، حيث ازدهرت طقوس هذا الإله كما ازدهرت فى بلاد مقدونيا المجاورة . وتقدم لنا فريجيا أيضاً اسمين يمثلان فيما يبدو زوجين إلهيين ، وهما ديوس Dios وزيميلو Zemelo ولعلهما «السماء» و «الأرض» وهما دون أدنى ريب الأصل الذى نشأ عنه والدا ديونسوس فى الأساطير اليونانية ، وهما زيوس وسيميلى Semele، هذا على الرغم من أن الإلهة الأخيرة تتحول فى هذه الأساطير إلى امرأة آدمية ، وتنسب أبوتها إلى كادموس Kadmos مؤسس طيبة الأسطورى . ولما كان دينسوس إلها لقوى الطبيعة ، فقد تميزت طقوسه فى بلاده الأصلية بسمات تعد غريبة على العقيدة اليونانية الوقورة القديمة . فقد كان أتباعه وبخاصة النساء يعبدنه فى البرارى والأماكن الخلوية بإقامة حلقات الرقص الصاخبة الجامحة ، وإطلاق الصرخات الحادة العالية وتمزيق أنواع معينة من الدواب وبخاصة الثيران والماعز التى تعتبر وثيقة الصلة به وتعد

فى أغلب الأحيان تجسدات له ، ثم التهام لحمها نيئا. ويبدو أن الهدف من هذا كله هو استدرار حالة من الجذب الروحى تختفى فيها الشخصية الآدمية ويصبح العابد فى أثنائها، رجلا كانأو امرأة، واحدا مع إلهه أو إلهتها، ومن هنا شاع إلى أقصى حد استخدام ألقاب ديونسوس للدلالة على من حققوا هذه الوحدة الخفية معه ،فبالنظر إلى أنه كان يلقب فى أكثر الأحيان بباكوس Bakchos فقد كان هؤلاء يدعون الباكيين أو الباكيات بحسب جنسهم .

وعلى حين أن مبلغ علم هومر بديونيسوس لم يكن يتعدى ما يرويه من خبره فإن عقيدة هذا الإله كانت قد عرفت طريقها إلى بلاد اليونان واستقر بها المقام هناك قرابة القرن السابع ق . م رغم أن بعض سماتها البيئة البربرية تحولت هناك إلى مجرد محاكاة شكلية للطقوس الأصلية ومع ذلك فإن بعض هذه الطقوس احتفظ بقدر كاف من مظاهر النشوة والطرب ، فقد تضمنت فى دلفوى ، حيث لقى هذا الإله الجديد ترحيبا حارا وخصص له ثلاثة أشهر من كل عام لإقامة المهرجانات الصاخبة بالليل فوق قمم جبل باوناسوس على ضوء المشاعل . وثمة تطور طفيف طرأ على الإله ديونيسوس مؤداه أنه بالنظر إلى أن آلهة أخرى لخصب الطبيعة كانت معروفة تماما من قبله ، فإنه جنح إلى التخصص فى ناحية بعينها ، وإن بدا ذلك واضحا فى مجال الفن والأدب عنه فى الطقوس الدينية ، بحيث صار إلهاً للخمر . وإلى جانب أتباعه من بنى البشر ، التفت حوله أيضا طائفة من القوى التى تقل عنه مرتبة والتى تختص بالريف والبرارى .

وتضمنت هذه الطائفة فريقى الآلهة الساتورية Satyrs والسيلينية Seilenoi وهما تجسيمات مصغرة لفكرة الخصب ، يظهر فيها الفريق الأول فى صورة أقزام من الذكور الشهوانيين الغريبى الخلقة الذين تتدلى منهم ذيول خيل ، والحوريات Nymphoi ويمثلن إناثا يسكن أو ينفثن الروح فى الأشجار والجبال ومجارى المياه وغير هذه من مظاهر الطبيعة . والكلمة اليونانية numphe تعنى (العروس) أو (المرأة الشابة الصالحة للزواج) ، وتصور الحوريات فى الغالب فى صورة العاشقات ، كما يتميزن على الدوام ، شأن الأشياء المادية المرتبطة بهن بطول الأجل

وإن لم تكن لهن صفة الخلود . وعلاوة على ذلك فقد اكتسح القادم الجديد فى زحفه المظفر كل أنواع الآلهة المحلية الصغرى، بحيث تحولت هذه فى معتقدات العامة وحكاياتهم إلى آدميين ممن اختصهم ديونيسوس برعاية أو بشىء من هذا القبيل . وبمضى الزمن تحولت الأنشودة المميزة للمعبود الجديد، وهى التى تسمى بالديثيرامب dithyramb إلى طراز أدبى معروف ، بعد أن صاغها الموسيقى الكورنثى آريون Arion فى شكلها التقليدى الثابت ، ولسوف نرى فيما بعد التطورات الهامة التى اتخذتها عبادة هذا الإله فى أثينا ، والتى تقف على النقيض تماما من طقوس العبادة التراقية الهمجية .

وثمة معبود آخر، هو هرميس Hermes كان يحظى بشعبية كبيرة ، وإن لم يقترب بحال من ديونيسوس فى أهميته وخطره . وعلى قدر ما يمكننا تتبعه من تاريخ هرميس ، يتبين لنا أنه أركادى ويونانى قح . ويرتبط اسمه حسبما تقول أرجح النظريات ، بلفظة « هيرما » herma ، ومعناها كومة الحجارة . وإنه لمن العادات البالغة الشيوع فى الوقت الحاضر أن تميز أية نقطة يظن أنها معمورة بالجن أو أنها « مخوفة » على أية صورة من الصور ، بإقامة كومة من الحجارة عليها . وكثيرا ما تقوم هذه المواضع على طول الطرق والممرات ، ومن البدهى إلى أقصى حد أن يكون « رب كومة الحجارة » من الأرباب المألوفة لدى الرحالة والمسافرين ولو صح ذلك ، لكان من الميسور إلى حد بعيد تفسير معظم الخصائص المتعلقة بهرميس . ومن الطبيعى ، وهو الذى يعمر الطرق ، أن يوجه اهتمامه إلى تصرفات من يستخدمونها سواء لأغراض شريفة أو لأغراض دنيئة . وكان أرفع المسافرين شأنا وأعلاهم قدراً ، الرسل kérykes باليونانية ، وهم الذين يبعثون فى مهام رسمية بين جماعة وأخرى ، وينظر إليهم على الإطلاق على أنهم مقدسون ذوو حصانة لا يحل قتلهم حتى زمن الحرب . وكان راعى هؤلاء هو هرميس ، ولو أنه لم يكن نصيرهم الوحيد ، ففى اسبرطة إن لم يكن فى غيرها من البلاد ، راح تالثوبيوس Talthybios رسول أجاممنون عند هومر ، يواصل ، من جدثه اهتمامه بزملائه الشبان وكان يعرب من وقت لآخر عن غضبه عندما تنتهك حرمة واحد منهم .

وكان هرميس ، بصفته رسولا ربانيا ، يقضى للآلهة مختلف المهام التى يطلبون إليه القيام بها ، بما فى ذلك الرحلة إلى العالم السفلى ومن ثم فهو رفيق أرواح الموتى ، ويحمل فى ذلك لقب بسوخوبومبوس Psychopompos (مرشد الأرواح) غير أن المنتفعين بالطرقات ليسوا هم معشر الرسل وحدهم ، بل إن التجار يقطعونها لجلب السلع الأجنبية (أما السفر طلبا للمتعة فقد كان لايزال فى أطوار الغيب وقت أن ظهرت عقيدة هرميس) ومن ثم فإن هرميس هو ولى التجار كذلك وجالب الحظ السعيد فى التجارة وفى غيرها . أما من هم دون التجار شرفا ، فقطاع الطرق الذين ينهبونهم ، ولم يكن هرميس يلقى بالا للاعتبارات الأخلاقية ، ومن ثم فقد كان ولياً للصوص أيضاً . حيث يظهر فى صورة اللص العريق الذى بدأ حياته العملية فى اليوم الأول من مولده ، بأن عمد إلى سرقة قطيع أخيه غير الشقيق أبولون أما كيف أصبح هرميس حارسا إلهيا للملاعب الرياضية المعروفة باسم الجيمنازيا ، ومدارس المصارعة ، وإلهاً للبلاغة كذلك ، فهو مالا نجد له تعليلا واضحاً كل الوضوح ، ولعل مرد الصفة الأولى أنه كان يحمل فى الأذهان صورة الشاب الفتى ، كما قد ترجع صفته الثانية إلى حاجة الرسول إلى قسط وافر من البلاغة يمكنه من أن يدلى برسالته على نحو واضح مقنع . وأصبح هرميس ، بكل صلاحياته هذه ، وثيق الصلة بالإنسان ، وكان ينظر إليه عامة باعتباره إلها كريماً صدوقا ، وجالباً الخير للناس كافة ، ومن ثم جالبا لوجه من أوجه الخير ، هو أعظم مايكونون تلهفا عليه ألا وهو الخصب . وعلى أية حال فقد كان عضو التذكير من أشد رموزه شيوعا ، وقد نقشت صورته على تماثيل هرميس المعروفة باسم الهرميات كما سبق أن ذكرنا . وكما هى العادة ، فقد كان ينتسب إلى الآلهة الأولمبية ، إذ أنه ابن زيوس من مايا Maia ابنة الإله أطلس التيتانى الذى يقف ، على هيئة جبل ، حاملا السماء . وقد اعتبرت هذه واحدة من البليدات Pleiades .

وقد تقام شعائر العبادة لأى من هذه المعبودات أو لغيرها من المعبودات التى لا تصل إلى مثل شهرتها ، مستقلة عن بعضها البعض أو فى مجموعات صغيرة ،

او مقرونة بواحد أو أكثر من الأبطال . وبلغت بعض هذه المجموعات من الذيوع والشهرة أن بات من غير الضرورى ذكر أسماء الآلهة المؤلفة لها ، وهكذا فإنه إذا ما أقسم أحد الأسبرطيين « بالإلهين » علم الجميع أنه يقصد كاستور Kastor وبوليدوكيس Polydeukes ، اللذين يسميان عادة باسم « الديوسكوروى » Dioskuroi بمعنى ولدى زيوس . وواحدمنهما إن لم يكن كلاهما من صلب زيوس أما والدتهما فهى ليدا Leda زوج تونداريوس Tyndareos ، ملك اسبرطة فى الأزمنة الأسطورية ، وتختلف الروايات حول ما إذا كان أحدهما أو كلاهما يحملان صفة الخلود أو أنهما كانا مجردين من ذلك تماما ، ولو أنه من المؤكد أنهما كانا مخلدين فى نظر اسبرطة فى عصورها التاريخية . ولانعدم أن نجد فى بلاد اليونان الأمثلة على أزواج الآلهة التوائم ، وإن كان الغالب أن هذه كانت تتألف من أبطال وليس من آلهة . وثمة مجموعات أخرى كانت تتخذ لأغراض رسمية معينة كما فى صيغ القسم الرسمية ؛ وقد كانت المعبودات المعهودة فى أثينا ، وفق ما كانت تقضى به إحدى السنن التى تنسب إلى المشرع القديم دراكون ، هى زيوس وبوسيدون ثم أثينا أو ديميتر . وكان البعض يفضلون قوائم أشدطولا من هذه، فقد يقسم باثنى عشر إلهاً أو ماينوف على ذلك ، إذا ما كان لليمين أهمية خاصة وإذا ما كان يؤديه — نيابة عن دولة بعينها مفوضوها الرسميون ، عند إبرام إحدى المعاهدات . وكان الأطباء ، عندما يؤدون قسم أبقراط الشهير ، يقسمون بآلهة صناعتهم وهم أبولون وأسكليبيوس وعائلته . وفى أنواع الأيمان العارضة الدائرة على الألسن والتى تكاد تعتبر أيمانا حقيقية ، كان الذكور يميلون إلى القسم بالآلهة، أما الإناث فيقسمن بالإلهات . غير أن أضخم مجموعة من المعبودات وأدومها كانت تلك المجموعة المعروفة باسم « الآلهة الاثنى عشر » الذين كانوا يعبدون سوياً فى أغلب الأحيان . وهؤلاء هم زيوس وبوسيــــدون وأبولو وآريس وهيفايستون وهيرميس ، ثم هيرا وأثينا وأرتميس وأفروديتى وديميتر وهستيا . وإذا كان الأمر قد ذهب إلى أن أصبح من الممكن أن تشترك مجموعة من المعبودات التى تنقسم بين ذكور وإناث ويقوم بينها مثل ذلك الخلاف الكبير

من حيث الأصل والنشأة فى الطقوس ذاتها ، فلا مراء فى أن عملية الإدماج بين العقائد ذات الجنسيات المختلفة والعصور المتباينة ، كانت قد تمت فى ذهن السواد الأعظم من المصلين الذين لم يكونوا يأبهون فى القليل بتاريخ دياناتهم، بل كان جل اهتمامهم منصبا على المنافع العملية التى يمكن أن تعود عليهم من وراء إقامتهم لطقوسها .

الفصل الرابع

حياة المدينة

إلى هذا الحد كان يعنينا أساسا العابد الفرد أو المجتمع الريفي الصغير . غير أن أبرز تطورات ديانة اليونان ، كما هو حال حضارتهم أيضاً بوجه عام ، قد وقعت في المدن وليس بين أرجاء الريف . فلم يكن ثمة يوناني من أبناء الفترة الكلاسيكية القديمة ، يتصور وجود مدينة خلوا من عباداتها الرسمية ، كما لا يتصور سكان اليونان الحاليون وجود مدينة خلوا من الكنائس . ولقد كان في استطاعة المدن اليونانية — هذا رغم أن أضخمها يتضاءل أمام الحجوم الكبيرة التي تبدو عليها مراكزنا البلدية الواسعة ، وإن كانت مع ذلك أوفر حظا في مضمار المجد والجاه والتقدم الحضاري ، من قرى شعوب تعيش على الزراعة البحت ، أن تقيم شعائر العبادة وسط أعظم مظاهر الأبهة والجلال، وأن تنشد من آلهتها نغما أشد تعقيدا، على الرغم من أنها تخلص في النهاية إلى ما كانت تطلبه من قبل ، وهو الخلاص من العوز ومن الانحدار أمام العدو ومن البلاء . وعلاوة على ذلك ، فإن مآثر المدينة وأمجادها كانت تدعو ، بالنظر إلى أنها بطبيعتها تستهوى الأفئدة وتؤثر فيها ، إلى طقوس للذكرى والشكر تتميز بالروعة والمهابة ، وأخيرا فإن إقامة شعائر عبادة أحد الآلهة ، كان من أكثر المناسبات لإقامة المحافل الكبيرة التي لا يدعى إليها المواطنون فحسب بل والأجانب أيضاً ، وكانت هذه المحافل وسائل طيبة للدعاية لقوة الدولة ومجدها . وقد أسفر كل ذلك عن إحدى النتائج التي يقابلها المؤرخ بكل ترحاب . فمن شأن مظاهر مشهودة للورع كهذه أن تسجل في شيء من التفصيل ، وقد ترتب على ذلك أن أصبح ما نعرفه عن الحياة الدينية بالمدينة ، يفوق إلى حد كبير ما نعلمه منها عن الريف ، وبخاصة أكثر هذه المدن إفصاحا ، وهي أثينـــا . والأدب الأثيني ، شأنه شأن أدب اليونانيين كافة ، يزخر بالإشارات إلى الآلهة وأعيادها ، كما أن ما أثاره من إعجاب دائم ومـا

خضع له من دراسات متشدة جادة خلال العصور التالية تمخض عن وفرة من المواد التفسيرية والشروح والمعاجم ، إلى غير ذلك مما آل إلينا منه جانب هائل. وتبعا لذلك ، بات فى وسعنا أن ننشئ لأثينا ، إن لم يكن لأية مدينة يونانية أخرى تقويما دينيا يكاد يكون كاملا ،وأن نقدم وصفا مفصلا نسبيا للجانب الأعظم من أعيادها التى نعلم أسماءها وتواريخها .

ويتحتم علينا قبل المضى فى إجمال وصف هذه الأعياد ، أن نوضح كيفية حساب السنين والشهور فى بلاد اليونان . فعلى حين أننا نستخدم السنة الشمسية التى اصطلح على تقسيمها إلى اثنى عشر شهراً ، قد يبدأ أى منها والقمر فى أى وجه من أوجهه ، فقد ظل القدماء حتى عصور تمتد إلى ما بعد عصور بلاد اليونان ، الكلاسيكية بزمن طويل ، يستخدمون الشهور القمرية التى تحسب من غرة كل شهر قمرى إلى آخر. وتقدر هذه الفترة بنحو ٢٩ ½ يوم، ولكنه لما كان من أشد ما يدعو إلى الارتباك والحرج أن يتألف الشهر من عدد من الأيام لا يمثل بحال من الأحوال عدداً صحيحا ، فقد أصبحت الشهور تحسب على التعاقب ٢٩ أو ٣٠ يوما ،وكانت تسمى فى الحالة الأخيرة أشهراً « كاملة » ، وفى الحالة الأولى أشهراً « ناقصة » . واثنا عشر من هذه الأشهر تكون ٣٥٤ يوما ، وسرعان ما تبين أن بضع سنوات من هذا النوع ، تؤدى إلى اختلاف التقاويم عن الفصول ، بحيث تبدأ أشهر الربيع مثلا قبل حلول فصل الربيع بفترة من الزمن .وكان ذلك يسوى بطريقة عرجاء لا تنم عن مهارة كبيرة ، وهى كبس السنة بالأشهر ، أى السماح بحلول الشهر الواحد مرتين خلال العام .

وعلى ذلك فإنه فى نهاية دورة معينة من السنين ، تقدر غالبا بثمانى سنوات ، تكون الأشهر الزائدة قد أطالت السنوات بالقدر الذى يكفل للدورة التالية أن تبدأ فى موعدها الصحيح على وجه التقريب ، ولكن أية سنة بعينها كانت إما أطول وإما أقصر مما ينبغى، بحيث كانت تتعارض فى كثير أو قليل مع ما يجرى فى الطبيعة .

وعلى ذلك فإن عيدا للبذر على سبيل المثال يحتفل به وفقا للتقويم الرسمى لمدينة من المدن ، قد يقع فى موعد جد مبكر أو جد متأخر بصورة ملحوظة للغاية، وكان من دأب الزراع بتجربتهم العملية ألا يأبهوا لمحاكات أهل المدن ، بل يحرثون ويبذرون ويحصدون وفق المواسم الحقيقية ، مهتدين فى ذلك ببعض الظواهر الطبيعية مثل رؤية صور نجومية معينة على خط الأفق فى الصباح وفى المساء أو عودة الطيور المهاجرة ، أو تفتح النباتات البرية ، وكان ذلك فى حد ذاته كفيلا بتوسيع الشقة بين رسوم البلدان وحقائق الريف ، ومن ثم أضفى عنصراً من الزيف على الديانة الرسمية . ومما ينبغى إدراكه بصورة قاطعة ، أن وجود الآلهة والنشاط الذى تمارسه كانا يبلغان فى نظر عامة اليونانيين مبلغ الحقيقة البينة الواضحة ، فلم يكن يخطر على بال أحد ، سواء فى ذلك العصر أو فى غيره من العصور ، كما أنه ما خطر إلا لبعض الأذهان التقدمية النازعة إلى التمحيص والنقد ، أن أبولون وديميتر وسواهما ، كانوا من نسج الخيال الشعبى وأنه لم يكن لعبادتهم أدنى تأثير على مجريات الطبيعة التى كانت ستسير على النهج ذاته دون تغيير أو تبديل ، لو أن جميع سكان الأرض كانوا من الكافرين . ففكرة التخلى عن الدين كلية لم تدخل قط فى اعتبار الجمهرة الكبرى لبنى البشر فى العصور القديمة ، كما أنه عندما تداعت الوثنية فى النهاية ، حل محلها على الفورطقس جديد ؛ ولم يكن البديل لها توقف العبادة . ولا ريب فى أن الفلاح حينما كان ينظر إلى الكهان الرسميين للمدينة وهم يقومون بالطقوس التقليدية التى ينبغى أن تصاحب الحصاد ، مثلا، والتى كانت تعتبر جزءاً مكملا له لا يقل أهمية عن عملية جنى الحنطة فى حد ذاتها ، فى وقت لم يزل الحب فيه فجا أو بعد أن يكون المحصول قد ضم بالفعل ، كان ذلك يقع من نفسه موقع العجب والدهشة ، بل كان يبدو له أقرب إلى الزيف والبطلان ، رغم أنه قد لا يبدو هكذا لساكن المدينة الذى لا يكسب عيشه بالحرث والبذر ، بل بالعمل فى مصنع لتشكيل الزهريات مثلا أو صنع الأدوات والأسلحة . فإن أرستوفانيس الذى كان على الدوام مدركا لأحاسيس العامة ، يضع على ألسنة جوقته المؤلفة من

« السحب » فى المسرحية التى تحمل هذا الاسم ، شكوى من تقويم أثينا المهوش المضطرب ، فتقول :

« يبعث القمر بتحياته إلى الأثينيين ، وحلفائهم ، ويضيف إلى ذلك أنه مستاء أشد الاستياء من المعاملة البشعة التى يلقها فى مقابل كل ماله من منافع .... فإنكم تأبون حساب الأيام على الوجه الصحيح ، بل تقلبونها رأسا على عقب . حتى إن الآلهة غالبا ما يهددونه ويتوعدونه عندما يضطرون إلى العودة إلى ديارهم دون أن يحظوا بالوليمة التى كانوا يترقبونها فى موعدها الصحيح . ففى الوقت الذى يحق عليكم فيه نحر الذبائح وتقديم القرابين، تستجوبون الشهود وتفصلون فى القضايا، ويوم نكون نحن الآلهة صائمين تسكبون القرابين وتمرحون » .

ومع ذلك ، فقد كان التقويم الرسمى هو الإطار المسلم به للطقوس الرسمية ، وكانت الأشهر الأثينية جميعها تحمل أسماء الأعياد ، الصغيرة منها أو الكبيرة ، التى تقع خلالها وتستهل السنة، وذلك فى نحو منتصف الصيف ، بشهر «الهيكاتومبايون» Hekatombaion ، أو شهر « الذبيحة الكبرى » (تعنى hekatòmbaia فى اليونانية ذبح مائة رأس من الماشية كما هو مفروض) وهذه لا نعلم من أمرها شيئا سوى أنها تقام فى تكريم أبولون ، وبذلك تحل فيما يحتمل فى يوم عيده وهو السابع . وأكثر من هذا طرافة، ذلك العيد الذى يقع فى اليوم الثانى عشر ، ويسمى « كرونيا » Kronia أو عيد كرونوس Kronos وهو إله قديم (لا يعنى اسمه شيئا فى اليونانية) جعلت منه التقاليد الشعبية أبا لزيوس . ومن الواضح البين إلى حد بعيد أن ذلك كان عيد حصاد ، والحق أن الإله يظهر فى فنون التصوير حاملا أداة مقوسة لا يبعد أنها كانت فى الأصل منجل حصد، ولو أن الأسطورة تضع لذلك تفسيرا مغايرا تماما .

وفى ذلك اليوم كان السادة يقومون على خدمة رقيقهم ، ويطعمون معهم من مائدة واحدة ، وبالتالى يقدمون جانبا من المادة الصالحة لأسطورة أخرى، تزعم أنه خلال العهود التى كان فيها كرونوس هو الإله الأعلى ، لم تكن ثمة فوارق اجتماعية،

بل كان الجميع على السواء ينعمون بالسلام والرخاء . ولكن أبلغ من ذلك أهمية العيد الكبير الذى كان يقع فى اليوم الثامن والعشرين من شهر « هيكاتومبايون » وهو عيد «الباناآ ثينايا» Panathenaia أو عيد جميع الآثينيين . فقد كان يقام فى ذلك اليوم من كل عام ، وهو يوم ميلاد آثينا ، احتفال تكريما لها، وكان الاحتفال الذى يقام كل أربعة أعوام يتميز بمزيد من الأبهة والروعة ويعرف باسم عيد الباناآثينايا الكبير . أما احتفالات العيد فكانت تستهل آنذاك ، فى وقت ينبغى لنا أن نسميه عشية اليوم السابع والعشرين — إذ أن اليوم فى الحساب اليونانى يبدو بغروب الشمس — بالغناء والرقص فوق تل أثينا المقدس ؛ الأكروبوليس Akropolis ، وبسباق لحملة المشاعل فيما يحتمل . وعند الفجر يبدأ موكب ضخم فى الزحف صاعدا التل إلى معبدها ، تتقدمه حاملات السلال Kanephòroi ،وهن فتيات من اسر عريقة كن يحملن فوق رءوسهن ما يلزم للطقوس . تليهن الضحايا المهيأة للنحر ، من الماشية والأغنام ، التى يلحق بها عدد هائل أيضا من الخدم والمباشرين للطقوس ، ثم حشد كبير من المواطنين، من الراجلين وراكبي الجياد ، كل فى موضعه الصحيح بحسب ما تقضى به التنظيمات التقليدية ، رافلين فى لباس العيد. ووسط هذا المشهد الباهر - يقع مزج غريب بين القديم والجديد . فقد كانت الإلهة تتلقى من شعبها الأمين كسوة جديدة ، وهو طقس من طقوس العبادة يرجع إلى تاريخ موغل فى القدم (وقد كان للإلهة « ديونى » فى دودونا عدد ضخم من الثياب) ولا يستوحى من النظرات الاستشرافية العلوية شىء أرفع من الفكرة القائلة بأن المعبود ، سواء كان يمثله نصب أو أى جسم عديم الشكل وإن كان قدسيا، لا ينبغى أن يترك عاريا خشية البرد غير أن هذه الكسوة كانت تنشر كالشراع فوق سارية وقارية سفينة تجرى على عجل ، رمزا على قوة أثينا البحرية التى تمكنت فى عهودها الزاهرة من أن تدرأ عن بلاد اليونان غائلة الفرس وأن تجعل للمدينة مركزا أمبراطوريا مجيدا . وغنى عن البيان أن رداء على هذه الدرجة من القدسية لم يكن يصنع جزافا أو بأيد غير نقية . فقد كانت تقوم على حياكته نسوة محصنات وغير محصنات من علية الأسر الأثينية ، تساعدهن فى ذلك فتاتان

تسميان « الأريفوروى » arrhephoroi كما كان يوشى بطرز غاية فى الفخامة والروعة ، تتضمن الموضوعات التى تعرضها حروب الآلهة مع التيتان والعمالقة كما تظهر فيها أثينا ذاتها وهى تخوض غمار المعارك فى جرأة واستبسال .

ولعل الشهر التالى « ميتاجيتنيون » Metageitnion يذكرنا بمدى ما نحن عليه من جهل بدقائق الديانة اليونانية . ومن الواضح أن اسمه مشتق من العيد المسمى « ميتاجيتنيا » ، الذى يدلنا أصله اللغوى على أنه يمت بصلة إلى العلاقات بين الجيران « جيتونيس » geitones . وفيما عدا الحقيقة الماثلة فى أن الذبائح كانت تقرب فى هذا العيد إلى أبولون الذى كان يحمل فى هذا المقام لقب « ميتاجيتونيوس» Metageitnios فلا نعلم من أمره شيئا حتى مجرد يوم حلوله. وخير من ذلك — نوعا ما — ما نعرفه عن عيد آخر يحل فى هذا الشهر هو عيد إليوسينيا Eleusinia . ولا علاقة بهذا العيد وأسرار إليوسيس ، رغم أنه يقام تكريما لديميتر وكورى ، كما لم يكن يجىء سنويا بل كل عامين ، وكان الاحتفال الثانى فى كل مرة يتميز بأبهة خاصة ومن ثم يسمى عيد اليوسينيا الكبير . وكانت هذه الاحتفالات التى تأتى كل أربع سنوات من بين الاحتفالات اليونانية الكثيرة التى تعرض فيها الألعاب الرياضية كما كانت تعرض فى عيد بانآثينايا الكبير . ولا مجال هنا للخوض فى المشاكل المتعلقة بالألعاب الرياضية اليونانية ، إلا أنه يمكن القول بوجه عام إن وقائعها لم تكن تختلف اختلافا كبيرا عما نعرفه فى الوقت الحاضر ، إلا من حيث إن ألعابنا الجماعية مثل كرة القدم أو «الكريكيت» لم يكن لها فى الغالب أدنى وجود ، كما لم تحظ قط بالاهتمام .

وكان أشد مظاهر الخلاف استلفاتا للنظر ، إلا فيما يختص بالعصور الأولى هو ظهور المتبارين عراة تماما ؛ فلم يلبث اليونانيون طويلا حتى خلصوا أنفسهم من دواعى الخفارة المصطنعة والحياء الكاذب فيما يتعلق بجسم الإنسان ، تلك التى تعد أثرا من آثار الخرافات الهمجية البدائية حول وظائف الجنس . وأهم من ذلك ارتباط الألعاب الرياضية بالاحتفالات الدينية . فجميع المباريات الرياضية المشهورة التى تسمى « بالألعاب الكبرى » أو « المقدسة » كانت ذات صلة

وثيقة بالاحتفالات التى تقام تكريما للآلهة . وأعظم هذه « الدورات » الرياضية قاطبة ، وهى « الألعاب الأوليمبية » كانت تقام فى عيد زيوس رباعى الدورة عند أوليمبيا من أعمال إليس Elis ، أما الألعاب البوثية فتقام فى دلفوى، حيث كان الإله الذى يقصد تكريمه هو أبولون بطبيعة الحال ، و « الألعاب الاسثمية » فى خليج كورنثوس تكريما لبوسيدون ، والألعاب النيمية » تكريماً لزيوس مرة أخرى بالقرب من معبده القديم فى نيميا . وكان الفائز يتوج بإكليل من نبات يرتبط بالمعبودات المحلية ، ففى دلفوى مثلا كان ذلك النبات هو الغار ، وهى الشجرة المفضلة لدى أبولو ن ، كما كان ينعم برضائها فيما يقال . ونشأ عن ذلك رأى خطير نوعا ما يقول بأن الوقائع الحقيقية لهذه الألعاب كانت تمثل طقوسا دينية ، بيد أنه يتضح بموالاة البحث والتقصى أن الأمر على خلاف ذلك . ولعل هؤلاء المتبارين كانوا من بعض الوجوه بمثابة ضيوف للإله تظلهم حمايته دون شك ، وينعم هو كما كان الاعتقاد أغلب الظن ، بما يقومون به من عرض لقوتهم ومهارتهم ، بيد أن مبارياتهم لا تعدو فى حد ذاتها أن تكون ألعابا عادية للغاية ، لاتخرج عن مألوف اللهو والتسلية لدى حشد من اليونانيين ، الذين عرفوا بولعهم الشديد بالرياضة ،حين يجتمعون فى يوم عطلة . ويصدق هذا أيضاً على الاحتفالات الآثينية ، غير أن اهتمام الإله الذى ينسب إليه الاحتفال كان يظهر فى طبيعة الجوائز المقدمة . ففى احتفال « البانآثينايا » كانت هذه عبارة عن جرار من الزيت المستخرج من الزيتون المقدس الذى يكثر فى أتيكا ، كما تحمل الجرار ذاتها التى آل إلينا عدد منها صورا للإلهة أثينا . وفى إليوسيس كانت الجائزة شعيرا من سهل راريا وهى بقعة وثيقة الصلة بديميتر وهديتهـا إلى البشرية من الحب الذى يصنع منه الخبز .

والشهر التالى هو شهر بويدروميون Boedromion الذى يقع فيه « عيد الأعوان » Boedromia ، ويرتبط هذا بدوره بأبولون ويحل فى يومه المقدس أى فى اليوم السابع . غير أن ماهو أخطر من ذلك وأجل ، بل ما هو أهم من الاحتفالات التى تقام فى مواعيد متفرقة من هذا الشهر ، إحياء لذكرى انتصارات

« بالاتايا » و « ماراثون » ، كان ذلك الطقس الشهير من طقوس بلاد اليونان القديمة ، والطقس الذى حظى بأوسع دراسة وأعمقهـا ، وهو « الأسرار الإليوسية » التى كانت تستغرق بمقدماتهـا المدة من الخامس عشر إلى الثانى والعشرين . وقبل أن نعرض لهذه الأسرار بالشرح والتحليل ، يحسن بنا التخلص من طائفة من الأفكار الخاطئة . فلم يحدث أن علمت هذه الأسرار بل لم يكن فى وسعها أن تعلم بعقيدة سرية لايجوز الكشف عنهـا لغير المؤمنين فلا يقتصر الأمر على أن الديانة اليونانية ، كما سبق أن رأينـا ، لم يكن لها عقائد ومذاهب أو علم لاهوتى بالمعنى الذى نفهمه ، بل إن التلميحات العديدة إلى ما كان يجرى فى قاعة التكريس (Telesterion) فى إليوسيس تتحدث عن أمور من شأنها أن تقع أو تشاهد ، لا عن أمور تلقن بأية حال . وكان يطلب إلى المتقدمين للتكريس أن يؤدوا يمينـا بكتمان السر ، وقد حفظ هؤلاء عهودهم إلا فى القليل النادر ولكننا نعلم أنه فى الأحوال التى نقض فيها العهد وهتك السر ، لم يحدث إفضاء للغير بأية عقيدة لقنهـا المرء ، بل أداء بعض الطقوس أو محاكاتها هزؤا وسخرية . والحق أنه من بين العبارات الدالة على هذا الضرب من المروق الدينى مايعنى حرفيا «رقص الأسرار» مما يشير إلى أنه كان يقام فى أثناء احتفال التكريس ذاته ما هو أشبه بالرقص الدينى أو الرقص الدرامى التمثيلى . وقد يكون لنا أن نقارن به طقسا دينيا مسيحيا مثل القداس البابوى الذى لايجرى فيه أو يتلى فيه من شىء يقع فى نفوس الحاضرين موقع الكشف الجديد عن عقيدة لم يكن لهم بها علم ، ومع ذلك فقد تستثار فيهم أعمق المشاعر الدينية . غير أن هذه المقارنة ناقصة مبتورة ، فوراء تلاوة خادم القداس وأفعاله تكمن تلك العقيدة الضاربة فى الفكر الميتافيزيقى والقائلة بالاستحالة [بمعنى استحالة المادة أى القربان إلى جسد ودم المسيح] فى حين أن ما يكمن وراء الأسرار لايعدو أسطورة شيقة ، تجرى على النحو التالى . أحب هاديس ابنة « ديمتر » فاختطفها إلى العـالم السفلى ، فراحت أمها ، وقد روعت حزنا ، تنقب عنها فى كل أرجاء العالم .

وفى أثناء تجوالها الذى لم يكن يفتر ليل نهار ، حيث كانت الإلهة تحمل مشعلا لينير لها الطريق فى الظلام ، ابتلى العالم بالمجاعة ، ذلك لأن الأرض ، وقد حرمت

من نشاط « الإلهة أم الحنطة » لم تأت بثمر . وفى النهاية بلغت « إليوسيس » ، حيث أكرم وفادتها — وهى تستتر وراء مظهر امرأة عجوز — الملك وأهل بيته وأقاموها مربية لابنه الرضيع الذى أنجبته الملكة « ميتانيرا » . وفى مقابل ما لقيته من كرم الضيافة ، عقدت الإلهة عزمها على أن تمنح الطفل الخلود ، فكانت تحرق عنه صفته البشرية كل ليلة بنيران المدفأة . ولما كان الطفل يدهن بالأمبروزيا ، وهى طعام الآلهة ، فلم يكن يصاب بضرر من هذه العملية السحرية ، ولكن « ميتانيرا » أبصرت ابنها ذات مساء راقدا فى النار فصرخت هلعا . فقطعت ديمتر لذلك علاقاتها بالأسرة المالكة ، وكشفت عن نفسها فى صورتها الحقيقية ، وأعلنت أن الطفل سوف يموت فيما بعد كسائر البشر . ومع ذلك فقد أظهرت حدبا على شعب إليوسيس ، وطلبت إليهم أن يقيموا لها معبدا ، كما لقنتهم طقوسها . وفى هذه الأثناء تم الاتفاق بينها وبين بقية الآلهة على أنه إذا لم تكن كورى قد تناولت طعاما فى عالم الموتى فإنها تعود إلى أمها ، أما إذا كانت قد فعلت ذلك ، فلا بد أن تبقى زوجة « لهاديس بلوتون » واستطاع هاديس أن يحملها بالحيلة والخديعة على تناول بضع حبات من الرمان كانت كفيلة بربطها به وبمملكته ، غير أن ثمة اتفاقا عقد بينه وبين ديمتر ، مؤداه أن تبقى كورى معه شطرا من السنة ، على حين تقضى البقية مع أمها على سطح الأرض . ويظهر فى هذه الأسطورة ، كما آلت إلينا ، وهى تعود دون شك إلى تاريخ موغل فى القدم ، قدر معين من الخلط بين فئتين من الآلهة ، كلاهما ينتمى إلى الأرض ، وهما « هاديس » (غير المنظور) رب الأموات ، و « بلوتون » مانح خيرات التربة وبين « برسيفونى » الملكة وقرينة هاديس ، وبين كورى « عذراء الحنطة » . وهذا الأمر من الأهمية بمكان ، إذ يوضح التفسيرات التى وضعتها عقول المتقين منذ زمن مبكر للطقوس الإليوسية .

ويبدو أن الأسطورة برمتها تقرير باللفظ لما كان يعرض بالفعل بوساطة رقص تمثيلى أو تشخيص مبسط بدائى ، وذلك فى إليوسيس فالألفاظ والأفعال توضحان على حد سواء ما كان يجرى حقيقة عاما بعد عام ، فإن « عذراء الحنطة » تهبط بالفعل إلى بطن الأرض فى صيف بلاد اليونان . ويحل موسم الحصاد فى موعد

جد مبكر عن موعده فى إنجلترا ، ولقد سبق أن رأينا أن ثمة احتفالا بالحصاد كان يحل فى شهر هيكاتومبايون الذى يوازى بصورة تقريبية للغاية شهر يوليو) وما إن يتم الحصاد حتى تترك الحقول عارية مقفرة تحت وهيج شمس الصيف المحرقة ، حتى تهل أمطار الخريف ، فيحين وقت الشروع فى الحرث . وكانت الحنطة تحفظ فى العادة فى صوامع تحت الأرض . كما كانت المحاصيل الرئيسية هى التى تنضج وقت اعتدال الشتاء ، وهو وقت اخضرار الحقول ، بحيث تكون قد ارتفعت عن الأرض بمقدار لا بأس به فى أوائل الربيع . وعلى ذلك فقد كان يحل فى شهر انثيستريون Anthesterion الذى يقع تقريبا فيما بين شهرى فبراير ومارس ، احتفال آخر لديميتر وكورى فى أجراى Agrai وقد بات هذا الاحتفال بعد قيام أثينا بضم أجراى إليها ضمن حركت ترمى إلى توحيد أراضى أتيكا فى ظل حكومة واحدة ، مرحلة ضرورية تمهد لطقوس التكريس فى اليوسيس ، وكان يعرف فى الغالب باسم الأسرار الصغرى على اعتبار أن الكبرى هى أسرار إليوسيس . ومما هو قريب الاحتمال للغاية أن هذا الاحتفال كان يقام احتفاء بعودة كورى ، بيد أننا لا نعلم أية تفاصيل عنه .

بيد أن لدينا لمحات قليلة عما كان يجرى بقاعة التكريس (التلستيريون) فى إليوسيس . فإن بعض الدقائق الهينة الصغيرة كانت فيما يبدو ذائعة معروفة إلى حد كبير ، ولكونها لا تمثل جوانب جوهرية من الرؤى القدسية ، فقد كان من الجائز الجهر بها أو عرضها فى صورة فنية . وكان بعض المسيحيين من المهتدين فى الفترة المتأخرة ، من بين المكرسين بطقوس إليوسيس ، وقد ذكر البعض منهم نزرا يسيرا مما شهده . وعلاوة على ذلك ، فلم يكن ثمة سر فيما يتعلق بأسماء طوائف الكهنة الإليوسيين وأشخاصهم . وقد كان بين هؤلاء ، فيما نعلم ، كاهن باسم « هييروفانت » hierophant (أى عارض المقدسات) وآخر باسم « دادوخوس » daduchos (أى حامل المشعل) بالإضافة إلى أسرة أو عشيرة كهنوتية برمتها هى « الكيروكيس » kerykes (الرسل) . ونعلم أنه كان ضمن المعبودات التى نالها التكريم إلى جانب الأم والابنة ، إله يسمى إياكخوس Iakchos (ولعل معناه

صاحب الصرخة العالية » ، وقد قرن بديونيسوس أو باكوس ولكنه لم يمت إليهما فى الأصل بصلة) بالإضافة إلى زوجين مجهولى الاسم يشار إليهما فحسب « بالإله » و « الإلهة » . وثمة ما يحدونا إلى الاعتقاد بأن بعض المداعبات الطقسية ذات الطابع الفاضح ، كانت تجرى خلال جانب من المراسيم وأنها كانت تقام فى ظنهم احتفالا بذكرى الحركات الهزلية المازحة التى أتتها فتاة استطاعت أن تحمل ديميتر على الابتسام ، وسط حزنها وقلقها . ولدينا ما يكاد يبلغ مبلغ البرهان على أن ثمة مشهدا لاختطاف وهمى كان يجرى فى هذه الأثناء ، ولا ريب فى أن ذلك إنما يرمز إلى حادثة اختطاف كورى . ونعلم أن رأس المتقدم للتكريس كانت تحجب بخمار خلال نقطة بعينها من الاحتفال ، وأنه كان يتحسس أو يتذوق شيئا من المقدسات . كما قد نمى إلينا أنه عندما يبلغ الاحتفال ذروته ، كانت تعرض على الأنظار وسط السكون والصمت سنبلة من حصيد القمح . ويبدو أن ثمة كلمات للسر ، أو ما هو أشبه بذلك ، كانت متداولة بين المكرسين وبعضهم البعض ، إذ كان يعلن عن مولد طفل مقدس باسم بريموس ، من شخص يدعى بريمو ، ولكننا أبعد ما نكون مقدرة على أن نؤلف من جديد صورة كاملة لهذه الأفعال « الدرومينا » drὸmena (أى ما يجرى من أشياء) على حد تعبيرهم . أما عن الكلمات المستخدمة ، فلدينا ما يفيد بأن ثمة صلاة مقتضبة بسيطة تتألف من لفظتين هما « أمطرى ! » و « أخصبى ! » ، كانت توجه فيما يرجح إلى السماء والأرض ، ولعله من الجدير بالذكر أن تلك العبارة الشهيرة كنوكس أومباكس knox ompax التى هولت منها بعض الكتب القديمة التى عرضت لاليوسيس لم يكن لها وجود جملة وتفصيلا . لقد كانت ثمرة فهم خاطىء لفقرة سيئة التركيب بالفعل ، ولا تمت دون شك بصلة إلى اليوسيس أو إلى أى طقس دينى آخر ، وردت فى معجم اللغة اليونانية القديمة وضعه الباحث البيزنطى هيسوخيوس Hesychios .

وإذا نحن ألفنا بين معلوماتنا جميعاً ، بدا لنا أن هذا الطقس الذى لا شك فى قدمه البالغ ، إذ كان ثمة موضع مقدس بإليوسيس منذ العصور الموكينية ذاتها ، قد نشأ أصلا عن احتفال يحمل من الطابع السحرى قدر ما يحمل من الطابع

الدينى [1] ويقصد به زيادة خصب الحقول واستمرار إنتاجها. وغالب الظن وأرجحه أن هذا الاحتفال كان يشتمل على ضرب من التمثيل الإيمائى الذى يصور مايقع للقمح عاما بعد عام، بالإضافة إلى أداء بعض الطقوس الدينية التى يقصد بها عقد أوثق صلة بين المشتركين فى الاحتفال ، وهم أنفسهم من مزارعى المنطقة المجاورة لإليوسيس وبين الآلهة المعنية ، حتى يتيسر لهؤلاء المزارعين الاستحواذ على شىء من المانا التى لدى الآلهة، بحيث تتبارك أعمالهم جميعا فى فلاحة الأرض ويتحقق لهم فى ذلك من الضمان والسرعة مالايتحقق لغيرهم من البشر الهالكين . ولكنه لا بد أن ينشأ ثمة خلط ، كما سبق أن أشرنا ، بين تلك القوى الإخثونية أو الأرضية التى تخرج النبت من الأرض ، وبين تلك التى تتكفل بأمر الموتى ، ولا تستثنى ديميتر من هذا الخلط ، كما لا تعفى « كورى » بالأحرى منه . وإذا كانت تعقد ثمة صلة وثيقة بين المكرسين وبين هاتين الإلهتين وغيرهما من المعبودات التى تقام لها الشعائر فى إليوسيس ، فقد ترتب على ذلك أن نشأت منذ زمن مبكر فكرة تقول بأن التكريس يمهد للنعيم فى العالم الآخر ، وذلك للحظوة التى سيلقاها المكرس من القوى القائمة هناك . وهذه الفكرة قديمة قدم الترنيمة التى تقال فى مديح ديميتر والتى تنسب تقليديا إلى هومر (الأمر الذى لايعنى فى هذه الحال كما فى كثير غيرها سوى أنها قديمة فحسب وأن أحداً لا يعرف من هو مؤلفها ، ولعل تاريخها يعود إلى القرن السابع ق.م) . ومع ذلك ، فما لاشك فيه أن هذه الفكرة لم تكن تمثل جزءا من الطقوس ذاتها ، بل تفسيرا لها فى ضوء آمال أجيال لاحقة ومراميها . ونالت هذه الفكرة تأييدا وقبولا واسع النطاق ، وكانت دون شك من الأسباب

---

(١) الخلاف بين السحر والدين يقوم أساسا على الاعتقاد بأن الاول ذو فاعلية فى حد ذاته ، بمعنى أن لكلمات الساحر وأفعاله وما الى ذلك القدرة على ارغام كل من الطبيعة والآلهة التى تهيمن عليها — على الاذعان له ان لزم الامر . فى حين أن الموقف الدينى اكثر من ذلك اتكالا ، اذ يتطلب التوجيه بالابتهالات والتضرعات الى أى من الكائنات التى يعتقد بانها قادرة على تحقيق رغبة المتعبد دون محاولة حملها على الانقياد . ويؤكد المرحوم السير ج.ج . فريزر هذا الفارق فى مؤلفاته جميعا .

التى دعت الآثينيين إلى فتح باب الأسرار على مصراعيه لكل من يفهم اليونانية، ولا تدنسه جريمة قتل أو أى رجس خطير آخر يسىء إلى أقل الآلهة تمسكا بقواعد الخلق أو سنن الآداب .

وثمة سؤال لم يجد بعد جوابا شافيا ، يتعلق بالأسباب التى دعت إلى إحاطة هذه الطقوس أصلا بالسرية . وقد سبق أن لاحظنا بالفعل فى العصر القديم أن طقوسا مماثلة كانت تقام فى كريت علنا ودون أى تظاهر بالسرية والتكتم . ومما هو بعيد الاحتمال أن تكون العبادة التى قامت شعائرها فى إليوسيس أو فى أى مكان آخر ، قد اضطرت فى أى وقت من الأوقات إلى مواجهة الاضطهاد من جانب ممارسى ديانة أخرى ، خلال مرحلة تقلبات السكان التى تمخضت بعض الزمن عن نشأة الشعب اليونانى المعروف فى التاريخ .

فالديانة القائمة على تعدد الآلهة كما أسلفنا ديدنها التسامح ، كما كان الشعور الغريزى الفطرى لدى الشعوب القديمة بوجه عام هو التصالح بقدر الإمكان مع آلهة أى بلد يدخلونه بالسلم أو بغيره . وأغلب الظن أن الإليوسيين كانوا يعلقون أهمية كبرى على طقوسهم ومن ثم كانوا يضنون على أى غريب بالتعرف على الأسماء الحقيقية لمعبوداتهم والطرق الصحيحة لاسترحامها ونيل رضاها وعونها خشية أن يغريها بالتخلى عنهم ، أو ربما عمل سحرا مضادا لمصلحة جماعته وحدها دون إليوسيس ولدينا وفرة من الأمثلة القديمة على إحاطة نصوص الصلاة والرقى وما شابه ذلك بالسرية ، وعلى استبعاد الأجانب من طقس معين يعتقد فى تأثيره البالغ .

وكيفما كان الحال،فلم يكن ثمة مايحاط بالسريةعلى الإطلاق فيما يتعلق بالطقوس التمهيدية التى ينبغى على «الموستاى» mystai ، كما كان يسمى المرشحون للتكريس اجتيازها . فى الخامس عشر من شهر بودروميون كان يجتمع كل الراغبين فى أن يكرسوا لأول مرة أو أن يعاد تكريسهم (فقد كانت هناك رتبةعليا يدعى نائلها « بالإيبوبتيس » époptes ومعناها الحرفى المشاهد) ، وذلك بصحبة مرشديهم

وهم أشخاص سبق تكريسهم كانوا يرافقونهم لمساعدتهم فى أداء الطقس المعقد . وفى اليوم السادس عشر المعروف باسم « إلى البحر أيها الميستاى » كانوا جميعاً ينزلون إلى الشاطىء حيث يطهرون أنفسهم والخنازير الواجب على كل منهم تقديمها ضحية لديميتر بالاغتسال فى البحر. وفى اليوم التالى تقرب الذبائح إلى ديميتر وكورى. وفى التاسع عشر يأخذ الموكب وجهته شطر إليوسيس. لقد كانت هذه رحلة مرحة، يقضيها أفرادها ، بحسب ماجرت به التقاليد، فى ثياب رثة يصاحبها الغناء والرقص والمزاح. ولا ينبغى أن يدخل فى روعنا أن كل ما كان يجرى إذاك كان يحمل مغزى دينيا ؛ فما كان خطب هذا الحشد يزيد على كونه جمهوراً تداعى يوم عيد ، رغم هيبة الشعائر التى يزمع الاشتراك فيها . وكانت هذه الشعائر تبدأ فى العشرين من هذا الشهر ، أى بعد غروب شمس اليوم التاسع عشر بحسابنا ، بالنظر إلى أن طقوس التكريس كانت تقام دائماً بالليـــل على ضوء المشاعل . وتستمر حتى الثانى والعشرين ، ولعل السبب فى ذلك لا يعدو تجاوز عدد المرشحين للتكريس غالبا الحدود التى تسمح بمواجهتهم دفعة واحدة فى ذلك المبنى الذى يمكن استعماله والذى لم يكن على جانب كبير من الاتساع .

أما الشهر التالى « بويانوبسيون » Pyanopsion فيستمد اسمه من احتفال « بويانوبسيا » Pyanopsia ، وهو بدوره احتفال لأبولون ، وكان يحل ، كما هو معلوم على وجه التأكيد ، فى اليوم السابع من هذا الشهر . وكان من أهم معالم هذا الاحتفال ، التقدم إلى أبولون ، فى مأدبة رسمية ، بما يشبه الحساء المصنوع من أنواع مختلفة من القطانى التى تسلق معا ، ومن هنا جاء اسمه الذى يعنى حرفيا « سلق البقل » . ولا شك فى أن القصد من تقديم شىء من هذا الصنف من الطعام ليتناوله الإله ، إنما هو الحصول على بركته بالنسبة لجلة المحاصيل المماثلة . وثمة طقس شعبى قديم آخر ؛ كان يحل فى اليوم ذاته ، ولعله لم يكن يمت فى الأصل إلى أبولون بأدنى صلة ، كما لم تكن له فيما يحتمل علاقة أيضا بأى من الآلهة . وكان يتمثل فى حمل « الأيريزيونى » eiresiòne ، وهى أشبه بنموذج مصغر لسارية مايو (سارية تركز فى رحبه وتكلل بالورود يحتفل من حولها بعيد أول مايو) تتألف من غصن زيتون أو غار ، تعلق به فاكهة وخبز وكعك وزجاجات صغيرة.

من عسل النحل والنبيذ وزيت الزيتون . وكان حملتها من الصبية الذين يطوفون لجمع التبرعات من المنازل الخاصة ، وهي عادة شائعة بعيدة الانتشار كما ترتبط بطائفة من الاحتفالات الموسمية ، في مختلف بقاع أوربا . لا تزال بين أيدينا أهزوجة قديمة ، تعزى كما هي العادة إلى هومر ، كانوا يتغنون بها في ساموس في مثل هذه المناسبة ، وهي بمثابة سلسلة من المدائح والتمنيات الطيبة لرب البيت ، يعقبها التماس العطاء . كان الصبية الآثينيون ينشدون قائلين :

« بالتين جاءت « أيرزيونى » ، وبالسمين من الرغفان ، والشهد في إناء ، والزيت يمكن كشطه منها ، والكأس من أعتق النبيذ يجلب لعينيها المنام » ..

وكان هذا الغصن يعلق فوق باب المنزل ويحتفظ به هناك حتى العام التالي . غير أنه كان يؤتى بغصن كهذا (وذلك وفقا لعادة زعم الآثينيون أن ملكهم الأسطوري ثيسيوس هو مبتدعها) إلى معبد أبولون في عيد البويانوبسيا ، على يد صبي لا يزال والداه على قيد الحياة ، ويعلق هناك . ويبدو واضحا أن الإله كان يأخذ بنصيبه في هذا الطقس الجالب للحظ مثل عباده . لقد كان ذلك أمرا مستحبا بطبيعة الحال ، فالغاية من هذا الطقس كله هو جلب الفلاح والنجاح لجهود الناس في إنتاج الغذاء ، ومن شأن « المانا » القوية التي يستحوذ عليها أبولون ، وهي تعمل من خلال هذه الأداة السحرية التي تزين باب معبده ، أن تنعكس على كل ما تمثله .

وقبل ذلك ، وفي الخامس من هذا الشهر ، كان يحل عيد « البرويروزيا » Proerosia ، ويعني حرفيا موسم الحرث السابق . وكان يمثل أحد أعياد ثلاثة للحرث ، على حد تعبير بلوتارخ ، يحتفل بها في نقط متفرقة من أراضي أتيكا ، وترمي دون شك إلى استنزال البركة على جهود الزراع الذين يقدر لهم في مثل هذا الوقت من السنة أن يكونوا بسبيل إعداد حقولهم لبذر الخريف . وثمة ترنيمة قديمة لم يبق لنا منها غير قصاصة ، تحمل دعاء إلى كوري بالمثول . وأجدر من ذلك بالاهتمام ، عيد الثيسموفوريا Thesmophoria وهو عيد « ديميتر الثيسموفورية »

(أى جالبة النفائس) وكان يحتفل به فى أثينا طوال أيام ثلاثة ، تمتد من اليوم الحادى عشر إلى ختام الثالث عشر ، وتعرف على التوالى « بيوم الصعود » (أو « الصعود والهبوط ») و « يوم الصوم » و « يوم الغلة الطيبة » . أما المحتفلون فكن من النساء ، إذ كان الرجال يستبعدون تماما من البقعة المقدسة أو « الثيسموفوريون » Thesmophoreion التى كن يجتمعن بها . وكانت تطبق قواعد مماثلة فى أماكن أخرى ، ذلك لأن هذا الطقس كان قديما بعيد الانتشار . ولعل الاحتفالات ذاتها لم تكن تختلف فى جوهرها ، إلا أن تاريخها لم يكن واحدا على الدوام . ومن ذلك أنه فى هاليموس Halimus بأتيكا كان الاحتفال يقام قبل يوم من بدء مثيله الأثينى ولم يكن يستغرق غير يوم واحد . وإذا أردنا أن ندرك القصد من عبارة « الصعود والهبوط » ، وجب علينا أن نمد البصر إلى ما هو أبعد من منتصف السنة الأثينية . ففى الشهر الأخير من الأشهر الاثنى عشر ، أى شهر « سكيروفوريون » Skirophorion ، كان يقع الاحتفال الذى استمد الشهر منه اسمه ، معناه « حمل الإسكيرا skira » . أما عن ماهية هذه الإسكيرا ، فقد اتفق لنا إدراكها بفضل باحث مجهول الاسم عاش فى أواخر العصر القديم وقام بتدوين بعض المذكرات التفسيرية حول مؤلفات لوكيان . وكانت هذه عبارة عن خنازير رضع وكعك مصنوع على هيئة أفاعى وعلى شكل عضو التناسل عند الذكر ، تلقى فى فجوات معينة فى الأرض تعرف باسم « ميجارا » mégara حيث تبقى إلى أن تلتهمها فى الغالب الأعم الأفاعى التى تعيش بهذه الجحور . وإذ يحل عيد الثيسموفوريا تهبط إلى هذه الجحور نسوة ممن قمن سلفا بتطهير أنفسهن مدة ثلاثة أيام ، محدثات جلبة وضوضاء لإفزاع الأفاعى وأبعادها ، ثم يصعدن بأية أشلاء من عظام الخنازير أو اللحم العفن تكون ما تزال متخلفة هناك .

أما هذه فقد كن يرفعنها فوق المذابح فى تضرع وخشوع ، ثم يجرى خلطها بعد ذلك بالحبوب . وليس بعسير إدراك الغاية من وراء كل ذلك . فمن شأن شهر سكيروفوريون أن يحل ، ولو من الناحية الاسمية فحسب ، قبيل موسم الحصاد ، حين تكون الأرض فيما يقدر قد أصابها الكلال من جراء ما بذلته من جهد فى

إنتاج المحاصيل . وعلى ذلك فقد كانت تقدم لها نماذج حية غضة من أكثر الحيوانات الأليفة خصبا ، وهو الحيوان المقدس أيضاً لديميتر ، علاوة على دمى تمثل أشياء منتجة للخصب والوفر ، وأخرى تصور المخلوقات الغامضة التى تنتسب للعالم السفلى. ومن شأن هذه الأشياء ، كما كان يؤمل ، أن توفر قسطا جديدا من «المانا» اللازمة للعام التالى . ولكن بقاء فضلات مثل هذه القرابين على اتصال بالعالم السفلى طيلة هذه المدة ، يستتبع دون شك امتلاؤها بسحر الخصب امتلاء كبيرا ، ومن ثم فى وسع الأرض بعد ما اكتسبت من عنفوان وقوة أن تتخلى عن هذه البقايا لتمنح بذور الحب معدلا عاليا من الغلة أما عن اليوم الثانى من أيام عيد الثيسموفوريا، فلا نعلم عنه غير القليل ، فيما عدا الحقيقة الواضحة وهى أن النسوة كن يصمنه ، وهى عادة شائعة مألوفة إلى حد بعيد فيما يتعلق بكل من الطقوس الدينية والسحرية، وقد كان هذا من قبيل الاستعداد لما هو مقدر أن يقع فى اليوم الثالث ، تعززه إقامتهن فى أخصاص من فروع الشجر المورقة دون أى نوع من الأبنية ، حتى يكن أقرب صلة بالأرض وما تثمره ، ولعل عبارة « الغلة الطيبة » التى تطلق على اليوم الثالث ، حيث كانت تقرب قرابين شتى ، كانت تشير إلى وفرة المحاصيل أو كثرة الأبناء أو إلى البركتين معا ، أما المحتفلات بهذا العيد فكن من بين السيدات المتزوجات اللائى ينتسبن إلى كرائم العائلات ، الأمر الذى لم يكن يحول مع ذلك بينهن وبين أحياء الطقس القديم الذى يقضى بتبادل النكات الفاضحة فى أثناء الاحتفال .

وليس ثمة ما يثير الاهتمام خلال المدة الباقية من هذا الشهر وطول الشهر الذى يليه وهو شهر مايماكتيريون Maimakterion وقد سمى الأخير باسم الاحتفال الذى يسمى «مايماكتيريا» Maimakteria والذى كان يقام تكريمـــا لزيوس المايماكتيرى وهو لقب قديم يعنى ، فيما يبدو « العاصف » . ولعل القصد منه كان اتقاء عواصف الخريف بما تجره من كوارث وأضرار . وكان شهر بوسيديون Poseideon وهو من شهور الشتاء ويشتق أسمه من احتفال الإله بوسيدون (وهو البوسيدايا Poseidea) الذى يقع فى الثامن منه ، يحوى احتفالا آخر لديميتر أيضاً ، تلقب فيه «بالهالوا» Halou ، ويقع فى السادس والعشرين . ويبدو أن

هذا اللقب مشتق من لفظ قديم يعنى الأرض الزراعية،ولقد كان الاحتفال يحوى قسطا كبيرا من أعمال السحر الجالبة للخصب ، والتى يعتبر بعضها إباحيا مجافيا لأذواقنا فى العصر الحديث ، بالإضافة إلى أحد المعالم المميزة للاحتفالات التى تحل فى الفترة المظلمة الباردة من العام ، وهى الوليمة الصاخبة المرحة ، التى يكاد يصفها المرء بعشاء عيد الميلاد ، أو لعلها كانت على الأرجح وليمتين ، ذلك أن النساء اللائى كن يقمن وحدهن بهذه الشعائر كن يولمن فوق أرض ديميتر المقدسة فى إليوسيس، غير أن ثمة مأدبة كانت تقام للمواطنين عامة على أرض أقل قدسية . وثمة عدد من تفاصيل هذا الاحتفال حقيق بالتنويه . فوليمة النساء كان ينبغى ألا تضم أنواعا معينة من الفاكهة ، وعدة أصناف من السمك ، كما حرم فيها الدواجن والبيض . وكان الاحتفال يتضمن طقسا خاصا بتذوق النبيذ الجديد الذى بدأ منذ وقت قريب يصبح صالحا للشرب . وكان لبوسيدون دوره فى هذه الشعائر ، إذ كان يقام احتفال فى تكريمه ، وبالنظر إلى أنه كان ، كما أسلفنا ، زوجا لإلهة الأرض ، فلم يكن من النادر أن يقرن بإلهة الحنطة أيضاً . وإن هذه الأنواع من المحرمات tabus والشعائر غير المهذبة وظهور الإله فيما لابد أن يكون من أقدم وظائفه قبل أن يصبح إلها للبحر ، لتدل جميعها على أننا حيال عيد يضرب فى أغوار الماضى السحيق ، جاء به الآخيون فيما يبدو من منطقة شتاؤها أشد برودة وأقل فى مظاهر الحياة به من مناخ بلاد اليونان الذى يتميز باعتداله النسبى .

ها نحن أولاء قد بلغنا الآن النصف الثانى من السنة الآتيكية بحلول شهر جاميليون Gamelion . أما الاحتفال الذى خلع اسمه على هذا الشهر ، فلا نعلم عنه فى الواقع شيئا . ولعله فيما نحسب كان يسمى بعيد جاميليا ، وثمة ما يحدونا إلى الاعتقاد بأنه كان يحتفل بزواج زيوس من هيرا ، بمعنى اقتران أسماء الأب مرة أخرى بالأرض الأم ولم يكن ذلك مجرد احتفال بذكرى حدث أسطورى يعود إلى ماض سحيق ، فما كان هذا هو ماترمى إليه الاحتفالات فى الديانات القديمة ، أو على الأقل لم يكن مقصدها فى أصولها الأولى .

فالسماء تقترن بالأرض عاما بعد عام ، وإلا فكيف للأرض أن تخصب وتلد

أطفالها من المحاصيل بعد بذر الربيع؟ وإن هذه لفكرة متأصلة عميقة الجذور، فمن القصص ما يدور حول فلاحين من اليونان من أبناء العصر الحديث ، ممن تبدو لهم الاحتفالات المسيحية مثل عيد الفصح وهى احتفالات تذكارية فعلا كنص اللاهوت الرسمى ، وكأنها تعالج وقائع جارية لا أحداثا ماضية .

وعلى أية حال فمعلوماتنا وافرة عن عيد بالغ الطرافة ، كان يحتفل به فى الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر من هذا الشهر . وكان يعرف باسم « ليناايا » Lenaia بمعنى عيد الليناايون Lenaion أى موضع اللييناى Lenai ، وهى من بين طائفة الألفاظ التى تعنى عابدات ديونيسوس من الإناث ، ومن المؤكد أن هذا الاحتفال كان خاصا به . وكان هذا الإله قد سبق تكريمه فى الشهر الماضى ، لا عن طريق أى احتفال فى أثينا ذاتها ، بل فى عدد من الأماكن بالريف ، الذى كان يحتفل بما نسميه عيد الديونيسيا الريفى .

ثم يجىء دور المدينة للقيام بشعائره التى لا نعلم عنها ، لسوء الحظ ، سوى النزر اليسير فيما خلا تلك الحقيقة الماثلة فى أنه كان يجرى آنئذ عرض للمسرحيات كذلك الذى يقام فى عيد ديونيسيا الكبير ، الذى سوف يتحتم علينا التعرض له فيما بعد . وما نلمحه من مراحل هذا الاحتفال يثير فضولنا إلى معرفة المزيد . كان المسئول الرسمى عن هذا الاحتفال والمشرف عليه هو « الأرخون » . وهو الحاكم السنوى الذى كان يحمل لقب الملك (أى « باسيليوس » Basileus وهذا هو السبب فى دعوة المحدثين له فى الغالب بخلاف أى من القدماء ، بالملك الأرخون) . وإن ذلك ليدل فى حد ذاته على ما كان لهذا الاحتفال من أهمية وخطر . وقد كان الأرخون يتولى بنفسه فى مثل هذه المناسبة تنظيم الركنين المعهودين فى أى عيد يونانى قديم ، وهما سير الموكب ثم تقديم القرابين ، ولكنه لما كان أبولون فى دلفوى قد اعترف بالإله الأصغر الذى كان أخا غير شقيق له وأفسح له مكانا فى معبده ، فكذلك رحبت ، فيما يبدو ، معبودات الخصب الكبرى التى كان مكانها المقدس فى إليوسيس ، بذلك المعبود الناشىء من معبودات الخصب ، الذى كان لقبه باخوس Bakchos يبدو قريبا بعض الشىء فى وقعه

من اسم ذلك المعبود المعروف لديهم وهو إياكخوس Iakchos واتخذ الترحاب صورة الاعتراف بأن ياكخوس وإياكخوس معبود واحد . وعلى ذلك ، فقد كان الكاهن المعروف باسم « دادوخوس » يصيح وهو يحمل مشعله ، فى نقطة بعينها من الاحتفال ، قائلا : « تضرعو الإله » فيجيبه المؤمنون قائلين « ابن سيميلى ، إياكخوس ، واهب النعم » ولقد دأب اليونانيون الذين كانوا يميلون إلى القول بأن جميع الشعوب إنما تعبد الآلهة ذاتها وإن اختلفت الأسماء فيما بينها ، على المطابقة بين الآلهة وبعضها البعض بناء على أسس أضعف من هذه وأوهى . وقد رد الإله ، فيما يبدو ، هذه اللفتة الفكرية ، إذ كانت تقدم فى عيد الليتايا القرابين لديميتر وكورى وبلوتون . وعلى أية حال ، فيكاد يكون كل ما يتعلق باللينايا فيما عدا ذلك ، من قبيل الحدس والتخمين ، ولا يتسع المقام هنا لعرض القضايا المختلفة وناهيك بمحاولة حسمها ، التى ثارت بين بعض المتخصصين الأكفاء حول تفسير بعض مدلولات الفن القديم ، التى لو كنا فى الواقع على يقين مما تمثله ، لاستقينا منها الشىء الكثير .

وقد يضم شهر جاميليون ، وفق ذلك التقويم الأثينى المتأرجح ، شطرا من فبراير ، والمعروف أن ربيع بلاد اليونان يحل فى موعد أسبق بكثير من موسمه فى انجلترا فلا عجب إذن أن يحمل الشهر التالى اسما مشتقا من الزهور التى تتفتح عن أكمامها آنذاك . وهذا الشهر هو انثيتسيريون . أما عن الاحتفال الذى سمى باسمه ، فكان يحل فى ثلاثة أيام متوالية منه هى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، ويدعى بالأنثيستيريا Anthesteria أى « عيد الزهور » . وبخلاف ما يوحى به اسم هـــذا العيد ، فإنه لم يكن مبعث فرح وسعادة تامين . فقد كان ينظر إلى الربيع على أنه وقت غير ميمون بعض الشىء فصحوة الأرض والنشاط الزارعى الذى يصحب انتفاضتها ، إنما يطلقان العنان لقوى قد تكون خطرة مهلكة . وأخصها بالذكر أشباح الموتى التى تنشط عادة نشاطا كبيرا فى مثل ذلك الوقت ، وثمة دلائل واضحة على قيام احتفال لأرواح جميع الراحلين خلال عيد الانثيستيريا . والحقيقة أنه كان يختتم بطرد صارم بات

لتلك المخلوقات الغريبة الخطرة يفصح عنه فى عبارة تقليدية تقول : « انصرفى أيتها الأشباح ، فقد ولى عيد الانثيستيريا » . بيد أنه كان لديونيسوس دوره ودوره البالغ الخطر أيضا فى إجراءات الاحتفال والمرة الأولى يتسنى الربط بين موعد احتفال يقام فى تكريمه وبين حقيقة تتصل بالنبيذ وصنع النبيذ ، وإن هذه الظاهرة نادرة الوقوع تماما فى بلاد اليونان القديمة ، التى لم يكن من دأبها القيام بشعائر عبادة هذا الإله ، فى أوقات مثل مواسم قطاف الكروم ، الأمر الذى كان لابد أن يحدث لو أنه كان فى الأصل إلها للخمر مثل الإله الإيطالى ليبير Liber . وبحلول الربيع ، يصبح عصير العنب الذى سبق استخراجه واختزانه فى الخريف الماضى تام التخمير إلى حد بعيد ، وهناك أكثر من مجتمع يونانى واحد كان يخصص يوما فى شهر من شهور الربيع لفض أختام دنان النبيذ لديه ، رسميا وطقسيا . فكانت « بويوتيا » على سبيل المثال ، تقوم بذلك فى الربيع فى السادس من شهر بروستاتيريوس Prostaterios ، ولكنها لم تكن فيما يبدو تذكر ديوينسوس بشىء ، بل تبتهل الأجاثوس ديمون Agathos Daimon أو الروح الخيرة الكريمة ، التى كان من بين خصائصها ، استطابتها لرؤية الناس ناعمين ملتذين . ومثل هذا الطقس من طقوس الابتداء لا تنفرد به بلاد اليونان وحدها أو أى بلد آخر ، فثمة رأى يسود العالم جميعه مؤداه أن بدء أى عمل للمرة الأولى إنما هو فطينة خطرة وينبغى الاحتياط له بتدابير من شأنها استدرار العطف الإلهى أو جلب اليمن بطريق السحر ، أو بكلا الأمرين معا . وعلى ذلك فقد دعت أثينا اليوم الأول من عيد الانثيستيريا باسم بيثويجيا Pithoigia أى عيد فتح دنان التخزين . وكان المقدار الأول من النبيذ الذى يؤخذ من هذه الدنان (فلم يكن القدماء يستعملون البراميل) يسكب قربانا ، وفى هذه الأثناء يدعو الشعب أو الكاهن المشرف على الحفل ، لا ندرى أيهما ، بألا يصيب النبيذ الشاربين بسوء ، بل يحفظهم ويقيهم . ويبدو أنهم لم يكونوا يسمونه نبيذا فى مثل هذه المناسبة بل « فارماكون » phàrmakon وهى لفظة تعنى فى الطب اليونانى العقار ، وإن كانت تحمل فى اللغة الدارجة معنى أوسع وتتضمن المواد السحرية . ومع ذلك فإن شرابا يبدأ بكونه مجرد عصير عنب ثم ينقلب بعد ذلك إلى شىء قد يفسد اتزان

عقل المرء ، لابد أن يعامل ، مهما كان شائعا مألوفاً بشيء من الاحترام ، لا لسبب إلا لأنه يحتوى على « مانا »

ومن ثم كانت تعقد الصلة بينه وبين معبودات معروفة بودها وصداقتها مثل ديونيسوس أو الأجاثوس ديمون ، بحسب ماجرى به العرف المحلى ، حتى لا يكون لفعاليته غير أثر طيب فحسب . أما اليوم الثانى من عيد الأنيثستيريا فكان يعرف « بالخويس » choes ، جمع «خوس» Chus ، وهو وعاء صغير يسع قرابة لترين، وتشير هذه اللفظة إلى احتفال غريب كان يقيمه فى ذلك اليوم من ينوب عن الدولة وبعض الشخصيات التى تدعى إليه ، وذلك فى مبنى من المبانى العامة ، ولا ريب فى أن الأفراد كانوا يحيونه كذلك فى دورهم الخاصة . ووجه الغرابة هو أن كل ضيف كان يقدم له إناء خاص به ، بدلا من أن يقدم الخمر للجميع فى كأس مشتركة . وبذلك يحصل كل من الحاضرين على المقدار ذاته من النبيذ ، ثم كانت تجرى مسابقة فى تجرعه يفوز فيها بالجائزة من يفرغ من نبيذه أولا . ومع ذلك ، فلم يكن الأمر الأمر مفرطا فى التفاهة والسخف ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، فكل شيء كان يجرى فى صمت . ولم يكن لكل من الضيوف نصيبه من النبيذ فحسب ، بل كان لكل مائدة الطعام الخاصة به أيضاً ، على النقيض من الأكلات الجماعية العادية التى كان اليونانيون يتخذون فيها مثلنا مائدة كبيرة واحدة للضيوف كافة . وقد بدا ذلك أمرا غريبا يشذ عن المألوف إلى الحد الذى دعا الآثينيين إلى البحث عن مبرر له ، واستقر رأيهم على أنه إنما يحيى ذكرى زيارة أورستين لأثينا ، عندما أتى ليحاكم ويتطهر بعد قتله لأمه ، وكان على من استقبلوه أن يجدوا حلا وسطا بين أن ينكروا عليه الضيافة كلية ، أو أن يحادثوا ويؤاكلوا ويشاربوا شخصا مازالت تدنسه جريمة قتل . أما ما كان يعنيه كل ذلك على وجه التحديد ، فأمر مازلنا بعد على غير يقين منه ، غير أن ذلك الصمت والسكون إنما يدلان على أن المحيط الروحى كان مشحونا ، وأنه كان يتحتم تجنب كل خطر مهما هان شأنه ، ينجم عن كلمات تحمل سوء الطالع أو ربما نشأ عن جلبة من أى نوع . ومن بين الاحتمالات العديدة التى لا يتميز أى منها عن الآخر ، القول مثلا بأن الأشباح كانت تحوم بالمكان ،

وأنه كان من الصواب إنهاء الاحتفال برمته على وجه السرعة (ومن هنا جاءت مسابقة الشراب) ، وفى صمت وهدوء .

ولعلنا نذكر أنه يتحتم تناول خروف « عيد الفصح » Passover وهو من أعياد فصل الربيع أيضاً ، « على عجل » مع التظاهر بالحرص على البدء فى رحلة فورا . وكيفما كان الحال ، فإن ديونيسوس كان يثبت وجوده فى احتفالات ذلك العيد ، بطقس لا يقل خطورة عن طقس زواجه . وفى مثل هذه المناسبة ، كان يجرى نقل زوجة « الملك الأرخون » إلى « البوكوليون » Bukoleion ، وهو المقر الرسمى لزوجها ، ترافقها جماعة من النسوة ، يعنى باختيارهن ، ويطلب إليهن الشهادة على طهارتهن وعلى التزامهن ببعض الشعائر الديونيسية الخاصة . كما يشترط فيها أن يكون هذا الذى تعيش معه هو زوجها الأول . وكانت « الملكة » وحاشيتها يقدمن قرابين تحاط ماهيتها بالسرية ؛ وإننا لا ندرى على وجه الدقة كيف كان يتم هذا الزواج المقدس ، ولكنه يبدو من المحتمل أن ديونيسوس ، سواء كان يمثله نصب معين ، أو كان يمثله الملك نفسه ، وهذا جائز للغاية ، كان يؤتى به إلى المبنى محمولا فوق عربة على شكل سفينة (فقد كان أجنبيا قادما من وراء البحار) وهناك يقدم إلى عروسه . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت الأشباح تحوم فى الطرقات فى كل هذه الأثناء ، وكان الجميع يعمدون إلى مضغ الزعرور البرى white thorn (وهو نبات ملين ومن ثم يصلح للوقاية أو التخلص مما هو فاسد مكروه بوجه عام) ، ويلطخون أعمدة أبوابهم بالقار ، إما لاصطياد الأشباح كما يصطاد الذباب بالورق اللزج وإما لطردها بفعل رائحته . ومن أجل هذا السبب عد العيد من أيام النحس ، رغم احتفالاته المهيبة ، ورغم الحقيقة الماثلة فى أنه كان فيما يبدو — إن كان لنا أن نثق بما توحى به الرسومات التى تزين العديد من الزهريات — وقت مرح ولهو بالنسبة للأطفال الذين كانوا يقومون بأسلوبهم الخاص بمحاكاة طقوس آبائهم .

ثم يحل فى النهاية عيد «الخوتروى» Chytroi ، وهو اسم لا يحمل من الدلالة أكثر من « الأوعية » أو القدور » . وكان دون ريب عيدا من أعياد الموتى ،

فالقدور المعنية كانت تحوى قربانا لهرميس يتألف من نوع من الحساء يصنع من مختلف الحبوب الصالحة للأكل . والقصد الصريح من ذلك هو نيل صفح الإله وغفرانه من أجل الموتى والراحلين الذين كان يقوم الإله منهم مقام الهادى والمرشد ، وثمة تفسير يسترعى النظر أدلى به بعض العلماء الأثريين ، مؤداه أنه فى زمن « الطوفان » (طوفان دوكاليون Deukalion وليس طوفان نوح لأن هذه أسطورة يونانية) قام من كتبت لهم الحياة بهذه القرابين للمرة الأولى ، من أجل أرواح الغرقى . وثمة حقيقة جديرة بالذكر وهى أن عملية الطهو لم تكن تتم ليلا وقت انطلاق الأشباح بل نهارا . ولم يكن يحق لأى كاهن أن يطعم من هذه الحبوب ، وكانت كل أسرة فيما يبدو تقوم بإعداد القدر الذى تحتاجه . ولا بأس من أن نستخلص مما تقدم أنه كان مقدرا أن يأخذ موتى الأسرة بنصيب فى هذه الأكلة ، وعلى ذلك فقد كانوا يستدعون للمثول فترة من الزمن ويتناولون الطعام مرة أخرى مع أقربائهم . كما أن بوسعنا القول بأن الاعتقاد الذى كان سائدا هو أن هرميس يحضر أيضاً هذه المآدب .

وفى أواخر هذا الشهر كان يحل احتفال آخر يبلغ من القدم شأوا بعيدا ، ويعتبر فى زعم التقاليد الآثينية ، أعظم أعياد زيوس قاطبة . وكان يسمى بعيد دياسيا Diasia ويقع فى الثالث والعشرين . وأول ما نلحظه هو أن الإله الذى يقام هذا العيد لتكريمه هو « زيوس ميليخيوس » Zeus Meilichios الذى يختلف اختلافا كليا عن زيوس رب الظواهر الجوية ، بل إنه معبود أرضى يرى عادة بصحبة حية أو يظهر هو بنفسه فى هيئة حية . أما كيف وقع له اسم زيوس ، فهذا مثار خلاف فى الرأى . فلا عجب إذن فيما تفيدنا به مصادرنا من أن الاحتفال كانت تخيم عليه « مسحة من الكآبة » وأن الضحية كانت تحرق ، أى تأتى النار عليها بأكملها ، دون أن يتناول الحاضرون منها شيئا ولم تكن الضحية التى تنتظر عادة من واحد من عامة الجمهور ، تتمثل فى بهيمة حقة ، بل فى كعكة تصنع على هيئتها ، أما تلك البهائم التى كان يضحى بها فى الغالب على الأقل ، فكانت من الخنازير

وعلى أية حال ، فقد كان ذلك يوم عيد بالنسبة للاثينيين ، حيث يستضاف الضيوف وتقدم الهدايا للأطفال . ولعل لقب هذا الإله ، الذى يقرب فى معناه من عبارة « الميسور والشفاعة » ، لم يكن يرجع إلى مجرد الرغبة فى التأدب أو مراعاة رقة التعبير ، بل إنه كان من الآلهة التى يؤمل الأتقياء فى نيل نعائها . وإذ كانت تجرى فى هذه الأثناء شعائر العبادة الواجبة ، فلم يكن ثمة ما يحول بين سائر الأهلين وبين التماس المتعة واللذة ، وهم آمنون مطمئنون إلى أن زيوس ميليخوس لن يصيبهم بسوء بل قد يباركهم .

أما الشهر التالى « إلافيبوليون » Elaphebolion ، فقد اشتق اسمه من احتفال أرتميس المعروف باسم « إلافيبوليا » Elaphebolia (قنص الوعول) وكانت تقرب إلى هذه « القناصة » الإلهية « الوعول » ولكن هذه لم تكن وعولا حقيقية إذ أن هذا الاسم كان يطلق على نوع من الكعك الحلو الذى يأخذ على الأرجح صور غزلان . غير أن أجل من ذلك وأخطر ، عيد ديونيسوس الكبير الذى كان يمتد من التاسع ، أو الثامن — بحساب مقدماته — حتى الثالث عشر من هذا الشهر . وكان يعرف باسم عيد ديونيسيا الكبير أو عيد ديونيسيا المدينة ، كما اشتهر شعبيا باسم عيد « شعراء التراجيد الجدد » ، بالنظر إلى أن عرض المسرحيات كان يتم أصلا فى مثل ذلك الوقت . ويكاد يكون من المؤكد أن المسرح قد بدأ فى بلاد اليونان ، مثلما بدأ فى عدة أجزاء أخرى من العالم ، فى صورة طقوس دينية أو سحرية ولو أننا لا نستطيع تتبع المراحل المختلفة التى مهدت لذلك . وبغض النظر عما سبق المأساة من احتفالات تنكرية ، فقد ظهرت كقالب أدبى لأول مرة فى القرن السادس ق . م ، ولقيت تشجيعا من ذلك الطاغية المستنير العظيم بيزستراتوس وكان أول مؤلفيها المعروفين هو تيسبيس Thespis من إيكاريا Ikaria ، وهى منطقة بأتكا كان لها بديونيسوس عدا ذلك صلات أخرى . ومما استقر حوله الرأى تقليديا أن موضوع المسرحيات الأولى ، كان يدور على الدوام حول مغامرات الإله الخاصة ، أما استقاء الموضوعات من أساطير أخرى غير هذه فلم يتم إلا بعد حين . ويبدو أن الملهاة أيضا نشأت فى الأصل عن لون من ألوان المزاح الفظ

ذى المغزى الطقسى ، أو عما هو أشبه باحتفالات عيد الميلاد التاريخية الصاخبة ، حيث يراعى التحفف على الأقل من القيود المعهودة ، وقد كان « للكوموس » komos أو جماعة المعربدين الذين سميت باسمهم هذه المسرحيات ذاتها ، ذلك لأن لفظة الكوميديا تعنى « الأنشودةالمعربدة » ، مطلق الحرية فى توجيه أقذع الكلمات وأفحش الإيماءات إلى أشد أفراد مجتمعهم هيبة وأرفعهم شأنا ، بما فى ذلك الآلهة التى يعبدونها ، وناهيك بالإله الذى يقيمون الاحتفال إكراما له . ولم يكن ارستوفانيس وكراتينوس ، وهما شاعران من شعراء الملهاة فى مرحلتها الأولى ، غير مراعين للتقاليد ، مبتغين مسرة إله الاحتفال حينما صوراه فى صورة جبان غر ، ذى موهبة خاصة فى الإيقاع بنفسه فى مآزق مزرية مهينة . ولم يكن ينتظر أن يعفى السياسيون والأدباء والفنانون وعامة الناس ممن بهم أو يمكن الزعم بأن بهم مأخذ أو شذوذ معين ، من قذع الكوميديا وقذفها اللذين كانا يأخذان تارة صورة مزاح خالص صرف ، وتارة أخرى صورة نقد جاد أو شبه جاد . غير أن الدولة لم تتعهد الملهاة بالتنظيم والرعاية إلا فى موعد لاحق على المأساة التى دللت على علو مكانتها بالعدد الأكبر من إنتاجها المسرحى ، إذ كان يجرى عرض اثنتى عشرة مسرحية مقابل أربع ملاهى ، فى أثناء الاحتفال الذى كانت تقام فيه مشاهد أخرى ، تضم فيما تضم ذلك الضرب من أشعار الترانيم الخاص بديونيسوس ، وهو الديثورامب . أما تفاصيل التنظيم والترتيب ، ولا سيما قصة خروج المسرحيات على قوالبها الأصلية ، ودنوها من الطابع الأدبى وجنوحها عن الطابع الدينى ، فإنما تختص بتاريخ الأدب اليونانى دون مؤلف عن الديانة اليونانية . غير أن ارتباط الإله بالمسرح ، من الناحية الاسمية على الأقل ظل قائما حتى زمن متأخر ، فقد كان الممثلون المحترفون يطلقون على أنفسهم اسم صناع ديونيسوس . ولنا أن نذكر بصفة عارضة ، أن الربط بين ميلبومينى Melpomene وثاليا Thaleia ، وهما من ربات الفن ، وبين كل من المأساة والملهاة على التوالى إنما كان من خيالات نفر قليل من أدعياء العلم المتأخرين .

ولعل ذلك قد نشأ عن العادة الشائعة وهى إقامة نصب لربات الفن التسع

(وعددهم يعود إلى هسيود كما تعود أسماؤهم أيضا إليه) وهن يؤلفن مجموعة واحدة، حيث كان من الطبيعى أن تعطى كل ربة من ربات الفن شارة بعينها من شارات الفنون ، مثل قرطاس أو قيثارة أو قناع ممثل . وفى الاعتقاد الدينى كما فى التصور العادى ، قد تتكرم جميع ربات الفن أو أية منهن ، بإلهام فنان بعينه فى أى فرع من الفروع ، ولذلك فإن ثمة قصة طريفة تروى كيف أن الربات التسع جميعا قد شوهدن وهن يبارحن بيت فيليمون ، الشاعر الهزلى ، يوم أن مات . ويعنى اسمهن « من يذكرن» وهن ، فى عقيدة هسيود ، بنات « منيموسونى » Mnemosyne أى « الذاكرة » ووظيفتهن أن يحضرن إلى عقل أى امرىء يختصصنه برعايتهن ، القصة التى يريد سردها أو أفضل السبل إلى الشروع فى عمل فنى من أى نوع .

وهكذا نرى أن عبادة الإله التراقى الفريجى البدائى ، رب الحيوية الطبيعية المتدفقة ، قد تحولت بفضل الاعتدال والقسط والإحساس الفنى المرهف الذى يتمتع به اليونانيون إلى احتفال مهذب لائق ، تعرض فيه طائفة من أروع نماذج الشعر اليونانى ، والغناء اليونانى أيضا بغير شك أمام جمهور يبدو أنه كان بوجه عام أوفر الجماهير التى قدر لها أن تملأ مسرح من المسارح على مر التاريخ حظا من روح النقد والتمييز . وإبان عصر أساطين المؤلفين المسرحيين ، وهو القرن الخامس وإلى فترة معينة بعده ، لم يكن يجرى عرض أية مشاهد مسرحية إلا فى احتفالات ديونيسوس ، أما فكرة إخراج المسرحيات لا لشىء إلا لتسلية من يودون أداء ثمن مقاعدهم أو من أجل مايعود على مديرى المسارح وفرقهم من ربح فلم تخطر قط على بال . ولقد ظل المسرح ، رغم كل ماداخل مضمونه من فكر دنيوى ، جزءا من الاحتفالات الدينية التى كان لها دون ريب ما للكثير من الاحتفالات من شعبية وطرافة ، إلا أنه كان من المتعذر فصلها عن إطارها الدينى .

أما الشهر التالى المعروف باسم مونيخيون Munichion ، فلم تكن تطرأ فيه أية وقائع دينية ذات بال . واشتق اسم هذا الشهر من عيد المونيخيا Munichia

الذى يحل فى السادس عشر منه ، وهو التاريخ ذاته الذى يحتفل فيه بذكرى انتصار سلاميس عام ٤٨٠ ق . م .

ومن الواضح أن موعد هذه الذكرى قد اجتذب إلى يوم العيد القائم أصلا ، ذلك لأن المعركة دارت بالفعل فى تاريخ لاحق خلال ذلك العام ، وكان من برامج الاحتفال عرض بحرى . أما عن عيد المونيخيا ذاته ، فإننا لا نكاد نعلم من أمره شيئاً فيما خلا كونه عيدا لأرتميس . غير أن ثمة احتمالا آخر لها ، نلم بمجرياته على وجه أفضل ، رغم أن المصادر أغفلت تاريخه ، وهو احتفال « البروزونيا » Brauronia المسمى باسم مدينة « براورون » الصغيرة الواقعة على شاطىء أتيكا فقد كان يقام فى هذا الاحتفال عرض لرقص « الدببة » ، إلى جانب تقديم الماعز كضحية ، وهى من أكثر الذبائح التى كانت تقرب عادة للآلهة .

وكانت تقوم بهذا الرقص فتيات صغيرات ، يناهزن من العمر عشر سنوات ، يرتدين ثيابا مصبوغة بالزعفران ، ولسنا ندرى ما إذا كان المقصود بذلك هو محاكاة جلد هذه الوحوش الأسمر ، أو أن الأمر لا يعدو أن هذا كان اللون المعهود للأردية الرسمية للفتيات والنساء . بيد أن ذلك إنما يتيح لنا أن نلمح بصيصا من طقس أمعن فى الهمجية من الطقوس الآتيكية العادية ، ولا يليق باحتفال ينتسب إلى العاصمة ذاتها . فقد كانت هذه الإلهة ، باعتبارها ربة الأماكن الموحشة وكل ما هو بربرى هجمى تظهر هى بذاتها فى بعض الأحيان فى هيئة وحشية ، ومن الصورة التى كانت تظهر فيها صورة الدبة . وطبقا لميل شائع للغاية بين مختلف العقائد والديانات ، اجتذب المصلون إلى مظهر معبودتهم الخارجى ، فقامت على خدمة الإلهة الدبة ، عذارى من الدببة . وثمة أثر آخر من آثار ماضى أرتميس البربرى الغابر ، أبقت عليه مدينة هالاى Halai ، حيث كان يحتفل سنويا بعيد التوروبوليا Tauropolia تكريما لها . وكان هذا الاحتفال قياماً بالليل ، إذ كانت عابدات للإلهة يملأن ساعات الليل بالرقص والغناء إكراما لها ، بيد أنه كان يحوى أيضا أثرا أخيرا من شىء أشد جهامة وهو تقديم الذبائح البشرية . إذ كان يساق

رجل إلى المذبح ، حيث تحز رقبته حزا طفيفاً بالقدر الذى يكفى لحسب نزول بضع قطرات من الدم . ومما لا يكاد يحتمل شكا ، أنه قد مضى زمن كانت فيه السكين تزج إلى أبعد من ذلك وأعمق . وقد رأى الآثينيون أنفسهم أن هذا هو المعنى الأصلى ، ومن ثم أعلنوا ، بالنظر إلى كراهيتهم المعهودة للوحشية والبربرية ، أن ذلك لم يكن طقسا يونانيا ، بل إنه قد اجتلب فى الأزمنة القديمة من أراضى شعب همجى هو شعب التاورين Tauroi . وكان لهم فى ذلك بعض الحق ، إذ أن هذا الطقس قد انحدر إليهم دون شك من عصر سابق على مقدم الآخاليين إلى بلاد اليونان . ولا سبيل لنا إلى أن نقطع بما إذا كان الآخايون هم الذين استعاضوا بهذه الصورة المخففة من سفك الدم عن الطقس الأصلى ، أو كان هؤلاء هم «البلاسجيين» وما كانت أرتميس ، على خلاف ديونيسوس ، تحس باطمئنان قط لوجودها بالمدينة ، ومن ثم فقد تبدت عليها ، فى الديانة اليونانية العادية ، آثار واضحة لماضيها الغابر .

ويشتق إسم شهر «تارجيليون» Thargelion ، وهو الشهر الذى يأتى قبل الأخير من السنة من عيد «تارجيليا» الذى يحتفل به فى اليومين السادس والسابع تكريما لأبولون . ولعل توالى ظهور هذا الإله فى التقويم الآثينى يرجع إلى دافع سياسى فما كانت تزعمه أثينا ، أنها المدينة الأم للأيونيين كافة ، أما الأيونيون فينحدرون كما تقول الأسطورة عن أيون Ion بن أبولون ، الذى يعتبر لذلك الإله الراعى theòs patrôos لذلك القطاع كله من الشعوب اليونانية . ومثل هذه المزاعم كانت تحمل على محمل الجد فى الزمن القديم . ولقد قيل تفكها إن نظيرها فى العصر الحديث هو فكرة الجنس ، ولها من الواقع التاريخى خط مقارب وأقل ما يقال إن أبولون بمحظياته وأبنائه من أنصاف الآلهة إنما يمثل شخصية أروع وأبهج من فكرة معنوية مجردة كتلك التى تقول بالإنسان النوردى ، وعلى ذلك فإنه فى النواحى الدنيوية ظهرت أثينة فى أكثر من مرة بمظهر المناصرة لأيونيا ضد السيطرة الفارسية ، فى حين ظلت ، فى المسائل الدينية ، تقيم شعائر

العبادة للإله أبولون فى حماس غير قليل فيما يبدو إلى الوقت الذى كلفه ميله للإسبرطيين وحلفائهم خلال الحرب البليبونيزية مكانته الشعبية ، رغم أن المدينة لم تذهب قط إلى حد إلغاء الاحتفالات التى تقام لتكريمه . وفى السادس من هذا الشهر ، كان يجرى طقس عجيب من طقوس التطهر ، يعتبر الصورة الآثينية لعادة ذاعت ذيوعا كبيرا وكانت تمارس بوجه خاص فى أيونيا وفى مدينة أو مدينتين ترتبطان بها ثقافيا ، إما للتخلص من النحس سنويا وإما فى الأحوال الطارئة مثل إنتشار وباء . وتشبه هذه العادة فى جوهرها الطقس العبرى الخاص بتيس الخطيئة إذ كانت تقوم على تحميل كائنات حية أكداس النحس أو الإثم ثم التخلص منها ومن أوزارها فى آن واحد . فقد كان يختار رجلان بائسان دميمان ، أحدهما عن أثينا والآخر عن نسائها : ثم يزينان بعد ذلك لسبب ماليس من اليسير الاهتداء إليه بعقود من التين المجفف، سوداء بالنسبة لممثل الرجال ، بيضاء بالنسبة للآخر . وفى النهاية يطردان من المدينة ، ولعلهما كانا يساقان إلى خارجها رجما بالحجارة ، وإن كنا لا نجد سنداً لذلك من قرائن مباشرة . أما عن كيفية اختيارهما ، أوعما إذا كانا يختاران من بين الوطنيين أو الأجانب ، العبيد أو الأحرار ، أو ما إذا كانا يعوضان عن واجباتهما المقيتة هذه أو يؤديانها سخرة ، أو كيف كان يتم على وجه التحديد انتقال نحس سكان أثينا إليهما ، فتلك مسائل تقصر عنها معلوماتنا، وإن كان المغزى العام لهذا الطقس واضحا بينا . وفضلا عن ذلك فاللفظة التى استخدمت الدلالة عليهما وهى « فارماكوى » phàrmakoi بمعنى العاملين عمل العقار pharmakon كانت أقرب إلى أسماء الأضداد . اذ يقول أرستوفانيس فى التشهير بسياسى عصره إن أثينا لم تكن فى العصور الخالية، لتلجأ بأية حال إلى استخدام أناس مثل « العقاريين » . وكان اليوم التالى يطلع على المدينة ، بعد تطهرها على هذه الصورة ، وهى تباشر الشعائر التى اشتق العيد كله اسمه منها . فقد كان تسوى فى قدور حبوب مأخوذة من المحاصيل الناضجة ، وتقدم رسميا الى أبولون . وكانت هذه الغلة المبكرة تعرف باسم « الثارجيليا » thargélia ، ومن من شك فى أن الغرض من هذا القربان هو كفالة تأثير الإله

الطيب على المحصول التالى ، عن طريق عقد الصلة بينه وبين هذه الغلال .

وفى أواخر هذا الشهر ، ويحتمل أن يكون ذلك فى الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين ، وإن كان هذا الموعد غير معروف على وجه التحديد ، كان يقع احتفالان يعودان إلى التصور العتيق الساذج بأن تماثيل الآلهة تحمل فى حد ذاتها صفة الإلوهية وأنها تعيش فى المعابد التى تأويها . ولا بد أنه كان أمام أثينة ، شأنها شأن ربات البيوت الصالحات كافة ، أوقات تعنى فيها بتنظيف البيت وغسل الملابس . وهذا هو المعنى المقصود من الاسمين الذين أطلقا على هذين العيدين ، أولاهما « كالونيتريا » Kallynteria وثانيهما « بلونتيريا » Plynteria . أما عن اليوم الأول فلا نعلم عنه غير ما يدل عليه اسمه ، فالفعل « كالوناين » kallynein إنما يعنى ترتيب غرفة أو منزل وكنسها ونفض التراب عنهما ، ومن ثم فإن ذلك هو ما كان يجرى لمقر أثينا الرسمى فى ذلك اليوم . غير أن معلوماتنا أوفر عن اليوم الآخر . فنا نعلمه أن ثمة فتاتين تسميان « ماشطتين » أو « غسالتين » كانتا تأخذان بالإله أى تمثالها القديم ، لأن ذلك كان فى الحقيقة الشىء المقدس فى عبادتها ، وليس ذلك التمثال الفخم الذى صنعه « فيدياس » للبارثينون . إلى شاطىء البحر عند « فاليرون » Phaleron ، وهو المرفأ القديم الذى كان مستخدما قبل بيرايوس . وكان يشرف على أعمالها وعلى الموكب الذى كان يرافق الإلهة ، أفراد أسرة عريقة ، يعرفون باسم « البراكسييرجيداى Praxiergidai الذين كانت واجباتهم تتضمن إلى جانب ذلك خلع ثياب الإلهة ولفها بالقماش قبل بدء الموكب ، ثم إلباسها من جديد فى ذلك الساعة حين يعودون إلى المعبد على ضوء المشاعل . ولم يكن هذا هو التمثال الوحيد لأثينا الذى يلقى مثل هذه المعالجة ، فقد تناهى إلينا أن طقسا مماثلا كان يجرى فى أرجوس ، على أن وجه الخلاف الرئيسى بينهما هو أن الغسل كان يتم فى نهر وليس فى البحر . وليس ثمة ما يدعو أحدا إلى العجب ، من أن اليومين اللذين يقضيان على هذه الصوره . كانا مشئومين ، فقد كانت الإلهة جد مشغولة بذلك عن مباشرة وظائفها العادية .

رأينا فيما سبق أن الشهر الأخير « سكيروفوريون » Skirophorion اشتق اسمه من « الأسكيرا » skira بمعنى القدور . ولقد كان يضم احتفالا عتيقا آخر على جانب من الأهمية ، هو « الديبوليايا » Dipolieia ، بمعنى عيد زيوس بوليوس Zeus Polieus ، أو إله المدينة وقلعتها ، إذ درجت اللغة الآتيكية على استخدام لفظة polis فى كلا المعنيين) . أما تاريخه فهو الرابع عشر أى وقت تمام القمر ، وهو وقت ملائم لإقامة شعائر إله السماء ؛ وهكذا كان الرومان يكرمون إلههم يوبيتر فى « الإيديس » Ides أى الشهر القمرى . غير أن أشد ما يثير الدهشة والعجب من مراسيم هذا العيد كان « البوفونيا » Buphonia ومعناها الحرفى قتل الثور (فلفظة « فونوس » phònos تعنى فى القانون اليونانى قتل النفس) . وقد جرت العادة عند تقديم الذبائح اليونانية على أن ينحر الحيوان مع مراعاة الطقوس الواجبة ، على أن يتم التصرف فى لحمه ، بوليمة قربانية أو بدونها . وهذا هو كل ما فى الأمر . فبغض النظر عن بعض الطوائف النباتية ، ونفر قليل من الفلاسفة ، ممن يرجع عهدهم جميعا إلى زمن متأخر نسبيا ، فإن أحداً لم يكن يداخله الإحساس قط بأن ثمة ما يؤخذ على ذبح الحيوان من أجل إقامة وليمة للإله ، بالاشتراك مع عباده أو بدونهم بيد أنه فى مثل تلك الحالة ، كان يؤدى طقس دينى ساخر فى غاية من الشذوذ والغرابة ، غمضت تفاصيله من جراء تضارب المصادر القديمة حول ما كان يدور به . وإذا ما التزمنا أبسط هذه الروايات وأقربها إلى الصدق ، وهى رواية بوسانياس ، وجدنا أنه كان يبدأ بوضع بعض الغلال فوق مذبح زيوس مما يجعلها مكرسة للإله ؛ ولقد كانت قرابين الغلال شائعة تماما ، كما كان من الجائز تقديمها دون أية ذبيحة حيوانية . وكانت تترك دون حراسة ، ثم يتاح لثور ما الصعود إلى المذبح وتناول شىء منها . وعند ذلك كان يقوم أحد الكهنة ، ويعرف اصطلاحا باسم « قاتل الثور » (buphonas) بذبح الثور ، وإلقاء البلطة التى استخدمها ، ثم يفر هاربا . وكان من الممكن ، طبقا للقانون الآتيكى . تقديم الجماد الذى تسبب فى إزهاق نفس إلى المحاكمة بتهمة القتل ، وهذا هو ما كان يجرى رسميا للبلطة التى كانت تثبت عليها بطبيعة الحال جريمة

القتل ويلقى بها فى قاع البحر فيما يحتمل . أما ما حدا إلى ظهور مثل هذا الشعور الرقيق فى حالة هذا الثور بالذات فى حين أن مئات الثيران الأخرى كانت تنحر كل عام ، فى جميع أنحاء اليونان ، تقربا إلى زيوس وغيره من المعبودات ، فتلك مسألة اختلفت وجوه الإجابة عنها بين الدارسين، سواء من المحدثين أو القدماء، دون أن يحظى أى تفسير حتى الآن مطلق القبول . ولعله من بين الآراء القريبة الاحتمال ، أن هذا الحيوان بتناوله طعام زيوس المقدس يصبح بذاته مقدسا . ولا يخلو نحره على اختلاف سائر الدواب من خطر . ومع ذلك، فلا مناص من أن يضحى به ، فلن يقبل الإله الذى أقيم الاحتفال فى تكريمه أن نضيع عليه هديته الموعودة . ومن ثم وجب ذبحه ، على أن تتخذ الاحتياطات الواجبة . فالسلاح الذى صرعه ، ومن ثم أصبح يحمل شحنة من المانا بالغة الخطر ، لم يكن يقل وبالا عما لو كان قد قتل إنسانا ، كما قد لحق به دنس الموت وقتل النفس ، وعلى ذلك كان يتم التخلص منه بالطريقة الواجبة . أما الكاهن الذى تناول البلطة ، فإنه فيما يرجح لم يمس الثور بالفعل ، وعلى ذلك فإنه بانفصاله عن السلاح المشحون بالمانا بأقصى سرعة ممكنة كما فعل ، وبتجنبه أيضا هـذا الجوار ، يصبح فى مأمن من الخطر .

وكان هذا الشهر يختتم ، كما تختتم السنة أيضا بضحية لزيوس وأثينة ، اللذين كانا يحملان كلاهما لقب « المخلص » (المخلص Soter و المخلصة Soteira) :

كانت هذه بالإيجاز مع إغفال عدد من الاحتفالات التى كانت مجرد تذكار لوقائع معينة فى التاريخ الآثينى ، أو كان قد أتى بها الأجانب إلى البلاد بإذن من الحكومة الآثينية ، أو كانت فى النهاية على قدر من الغموض والصعوبة يجعلان مناقشتها لا تليق إلا بدراسة علمية دقيقة شاملة للديانة الأثينية — الاحتفالات الطقسية السنوية لذلك المجتمع اليونانى الذى نعرفه أفضل معرفة ، أو بالأحرى نحن منه ، فى هذه الناحية وفى غيرها من النواحى ، أقل ما يكون جهلا . ولنا فى ختام هذا الفصل بعض الملاحظات العامة .

ليس الأمر مقصوراً على لقب هذا الإله أو ذاك ، بل إن هناك عدداً لا يحصى من نصوص الآداب التى آلت إلينا والتى تتحدث عن علاقات الآلهة بالجنس البشرى ، حيث نقف على وصف للمعبودات اليونانية بأنها منقذة أو مخلصة . وكان نوع الخلاص الذى يأتون به ماديا بحتا ، يتمثل فى حماية المجتمعات ، وكذلك الأفراد بدرجة تقل قليلا ، من الأخطار المادية التى تتهدد الحياة السياسية أو حياة الفرد . وقد تخصص بعض الآلهة فى درء أنواع معينة من الأخطار ، عمن يعوذون بهم ، مثال ذلك أن الديوسكوروى كانوا ينقذون البحارة من أخطار البحر ، وذلك بتسكينهم العواصف ، كما أن الظاهرة المعروفة باسم نيران القديس إلمو ، ارتبطت بهم ، وكانت إذا ظهرت كرات النار هذه عند نقطتين من حبال الأشرعة عد ذلك بشيراً طيبا . بيد أنه كان من المحتمل بوجه عام ، ومن المؤكد فى معتقد الرجل العادى والمجتمع العادى ، أن يوسع أى إله دفع كل مايهدد المرء بالخطر . وهكذا كانت المهمة على وجه الخصوص المنوطة بالمعبود الرئيسى لمدينة من المدن ، هى حماية هذه المدينة أو تلك من الأعداء ، وإن كان فى وسع غيره من الآلهة مشاركته فى ذلك .

وماذا يكون حال آلهة مدينة من المدن إذا ما استبيحت هذه المدينة ودمرت ؟ الجواب المعهود هو أن الآلهة بارحتها . وقد يقال فى بعض الأحيان إنهم انقلبوا على سكانها ، وعاونوا على تدميرها ، رغبة فى الاقتصاص منهم لجريرة ما ، وعلى الرغم من أنه كان ينظر إلى معبودات أية دولة من الدول على أنها تمثل على نحو ما فئة متميزة سامية من المواطنين ، إلا أنها كانت خالدة بالغة السطوة والجبروت ، ومن ثم فمحال قتلها أو أسرها . ولكن الذى لاشك فيه أن المؤمنين لم يكونوا ينتظرون أن تسمح الآلهة بأن يبلغ سوء الحال منتهاه . ومن ثم فعقائد العصر القديم كان يعتورها عيبان . لقد كانت مواضع العبادة الجماعية تعتبر على نحو ما محل تجربة واختبار . فإن هى لم تستطع أن تحمى عبادها ، فقد لا يبقى هؤلاء على ولائهم لها ، بل يتحولون إلى آلهة أخرى ، أو يقلعون عن الإيمان بالحماية الإلهية كلية .

والعيب الثانى هو أن الفرد الذى كان يؤمن فى العادة بمطلق عدالة آلهته وكرمها ، كان معرضا عاجلا أو آجلا ، إما إلى الشعور بحاجات غير مادية ومن ثم تخرج عن النطاق المعهود للنعم الإلهية. وإما أن يجابه هذه المشكلة، وهى كيف أن الصالحين الذين يحظون فيما يفترض برضاء الآلهة ، لا يفلحون دائما . وقد قدمت الفلسفة إجابات جدلية معقدة لكل من المشكلتين، بيد أن هذا الكتاب ليس بتاريخ للفلسفة القديمة ، ومن ثم فلن تعرض الفصول التالية لغير الحلول التى طرأت على أذهان غير الفلاسفة ، عندما بدا النظام المقرر للعبادة ، لأى من السببين السالفى الذكر ، ناقصا معيبا .

ذلك لأنه كان يكمن بين التسليم غير الفاحص ، بما درجت عليه التقاليد ، أو نبذها غير الواعى أيضاً جملة وتفصيلا ، من جانب، وبين المحاولات الجبارة لأذهان متميزة السمو والرقى حقا ، فى سبيل تفسير العالم والسلطة التى يخضع لتدبيرها ، وذلك عن طريق الاستنباط المنطقى لمبادئ أولية هى بالفعل أو يخيل فحسب أنها ثابتة مؤكدة بدرجة لاتحتمل النقض أو الطعن من جانب آخر ، عدد عديد من المراحل التى تتفاوت مسايرة لحكم المنطق والعقل والتى تتمثل فى تعديلات وتحويرات وتخريجات لتلك المعتقدات التى يبدأ بها المتقصى الساخط . ولعل أجل من ذلك وأخطر تلك الطائفة الكبرى من مختلف الاستجابات العاطفية ، التى تفضى تبعا لذلك إلى ميول متنوعة تجاه هذا النمط أو ذاك من السلوك الدينى أو غير الدينى.

وختاما ، فإن انتشار الديمقراطية فى بعض أجزاء بلاد اليونان ، صاحبة نمو المشاعر الخلقية أولا بين الأذهان ذات الاتجاه الفلسفى المتميز ، ثم انحدار هذه المشاعر وتفاعلها بين الجماهير . وأصبح التسليم الذى كان سائدا فى القديم ، بأن للآلهة مناهج معينة من السلوك تختص بها ، يتضاءل رويدا رويدا . فإذا كان ثمة مبادئ للخير والشر واجبة على البشر أجمعين ، فلماذا لا تكون واجبة على البشر والآلهة على حد سواء ؟ ومن جهة أخرى ، فإذا كان ثمة أمور تصح للبشر وأخرى تصح للآلهة، فهل هناك أصلا أى فارق أدنى حقيقى بين الأفعال وبعضها البعض ؟

وهكذا باتت الفروض الثلاثة القائلة بوجود الآلهة وبكرمها وبمراعاتها للصلاح والتقوى ، وهى الفروض التى تكمن وراء العقيدة اليونانية المعهودة أقل جزما وقطعا بمضى الزمن . ولم يشعر الفيلسوف فحسب، بل الفرد الذى كان يتمتع بقسط محدود من الذكاء ، بطرف من المشاكل الناشئة عن ذلك . وسوف يعرض الفصل التالى لمناقشة طائفة من أشهر هذه الحلول .

الفصل الخامس

الآلهة تحت الاختبار

القول بأن الآلهة تكره الشر ، أو على الأقل تنبذ أنواعا معينة منه ، وأنها تعاقب من أجله ، افتراض قديم قدم هومر الذى يضع على لسان زيوس أن عناد الإنسان ذاته هو الذى يجلب عليه قسطا من المتاعب يتجاوز حدود ما هو مقدر على كل شخص أن يكابده . والقول بأن زيوس رب الكون ، وأنه عادل ، دعا إليه فى إصرار « هسيود » الذى تتبدى غيرته على الفضيلة فى صورة واضحة وضوح غيرة عاموص[1] الذى كان معاصرا له فيما يحتمل . ويعرض لنا هسيود أيضاً تلك الصورة اليونانية الطبيعية غير المغالية فى التفاؤل ، عن عواقب الهدى و نتائج الضلال . فالصورة الأولى تعنى أن تكون للمجتمع كفايته من القوت ، وأن تتوافر له أسباب الحماية من عدوه ، وهلم جرا ، أى أن يكون فى الحق على درجة الرخاء التى يصح لمزارع صغير مثله أن يأمل فى بلوغها ، وفى الظروف التى يستطيع فى ظلها الرجل المثابر أن يجنى من الرزق ما يكفل له العيش الميسور المشرف فحسب ، ولا شيء أكثر من ذلك . وعواقب الضلال هى الهزائم والأوبئة وغير هذه من الكوارث التى لا تلبث أن تهوى سريعا بالطبقات الدنيا على الأقل إلى درك المجاعة . وعلى ذلك فإنه من الواضح الجلى أن زمنا تجتاحه اضطرابات اقتصادية وسياسية هائلة ، تسفر عن شقوة ودمار للكثيرين ، لهو فى نظر أى شخص يسلم بدنيا هسيود ، زمن ضلال يستوجب غضب السماء النازل به .

---

(1) عاموص (Amos) نبى من أنبياء بنى اسرائيل . كان أول أمره راعى غنم فأرسله الله نبيا (حوالى ٧٨٣ ق.م) . انذر بقدوم ملوك آشور واستيلائهم على أرض اسرائيل . (المترجم)

ولكن القرون التى سبقت قيام مدن العصر الكلاسيكى العظمى كانت عصر فوضى واضطراب . فقد كانت الثورات سواء الاقتصادية أو السياسية ، شائعة كل الشيوع . فكثيرا ما كان يطاح بنظم الحكم القديمة فى جور وقسوة لتحل محلها حكومات طغاة أى حكومات غير مسئولة ينتزعها رجال بلغوا كراسى الحكم بالقوة الغشوم أو بالمكر والخديعة فى صورة رؤساء أحزاب أو شيع ناجحة فى الغالب الأعم . كما نشأت هناك أنماط جديدة من الثراء ، من جراء زيادة النشاط التجارى واستخدام الاختراع الذى ظهر فى ليديا وهو سك النقود . وتغيرت فى الوقت ذاته التنظيمات الحربية ، فقد استعيض عن المقاتل الهومرى القديم الذى كان يرى مندفعا بعربته الحربية فى كل اتجاه ثم مترجلا عنها ، تحميه دروعه الثقيلة لينازل عدوا مزودا بعتاد مماثل — استعيض عنه بحامل الرمح (hoplites) ، الذى كان ينشىء ، وهو مصطف فى تشكيل متلاحق مع زملائه ، سورا من أطراف الأسنة لا يمكن اختراقه إلا بوساطة جماعة أخرى من حاملى الرماح . وعلى ذلك فمن كان له مثل ذلك الدخل المحدود الذى يمكنه من حيازة درع ورمح وبقية عتاد جندى المشاة : بات يحظى بمكانة عسكرية مرموقة . إن لم يكن من أجله كفرد ، فعلى الأقل من أجله كطبقة . ولما كانت هذه الطبقة قد أثبتت فى كثير من الأحيان أنها أصلب قناة وأعسر مراسا من طبقة النبلاء التقليدية ، فقد بقى هناك على الدوام احتمال قائم لأن يحاول بعض أفراد تلك الطبقة ولاسيما فى أوقات التذمر العبث كذلك بسلطان الآلهة التقليدى . فلاعجب ، والحال هذه ، أن تسمع قرابة القرن السادس أو قبل ذلك عن بدع دينية جديدة .

ومن أبرز هذه المعتقدات الريفية الجديدة ، تلك التى شرحت فى عدد هائل من المصنفات الأدبية المنظومة شعرا والتى تنسب إلى أورفيوس Orpheus ، وهو موسيقى وعراف أسطورى ظهر فى تراقيا ، أو تعزى إلى شخص قريب الصلة به مثل موسايوس Musaios وهو من ذوى قرباه أو تلاميذه . وقد يكون ، من الملائم أن ندعو هذه « بالأورفية » بيد أنه لا يحق لنا على الإطلاق أن نزعم أنه قد قامت هناك فى أى وقت من الأوقات مجموعة موحدة متكاملة من العقائد

الأورفية ، بل لم يكن هناك شيء يمكن أن يوصف بالكنيسة الأورفية ولكن ما كان قائما بالفعل ، فى جانب من هذا الأدب على أقل تقدير ، وفى زمن مبكر إلى حد بعيد فيما يبدو هو ديانة غريبة تؤمن بالعالم الآخر ، وتختلف اختلافا بينا عن معتقدات اليونانيين المعهودة كما تتبدى فى طقوسهم وعاداتهم . ومع ذلك فإنها من بين الديانات التى يمكن للمرء أن يتصور نشأتها بين أفراد وطبقات من المجتمع تربط بين الإيمان الحار بضرب من الآلهة ، وبين الحيرة إزاء المصاعب التى تحيق بهم وبغيرهم فى تلك الأزمنة العصيبة ، فى حين أن تطورهم الفكرى لا يبلغ من التقدم الحد الذى يحدوهم إلى النفور من السخافات والترهات التى تنطوى عليها الصور التى يحملونها هم فى مخيلاتهم أو يرسمها لهم معلموهم عن الآلهة والمعبودات . وكانت هذه العقيدة الجديدة ، بمجرد الإيمان بها ، تبرر بصورة مرضية إلى حد بعيد ، بلايا الصالحين فى هذه الحياة ، وتلوح بالآمال فى التعويض عنها فى حياة أخرى . ولم تكن هذه تقل بحال عن عقيدة تؤمن بالخطيئة الأولى والبعث والجنة والمطهر والنار .

والأسطورة التى تضمنت هذه التعاليم لم تصل إلينا إلا عن طريق كتاب متأخرين إلى حد بعيد عن الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها إلا أن ثمة قرائن تثبت أن لب هذه الأسطورة على الأقل يعود القهقرى إلى زمن غابر حقاً ، ويقول هؤلاء الكتاب إن زيوس أنجب من ابنته برسيفونى ولدا يدعى زاجريوس Zagreus وكان ينوى أن يجعل من الطفل الوليد سيدا للكون ولكن التيتان ، بإيعاز من هيرا ، تمكنوا من قتل الطفل ثم التهموه . فأهلك زيوس التيتان بصواعقه ، ومن رمادهم خرج البشر الذين يحملون بذلك قسطا ضئيلا من طبيعة زاجريوس الإلهية وجانبا هائلا أيضا من شر التيتان وخبثهم . وابتلع زيوس زاجريوس الذى كانت أثينا قد أنقذته ، وشرع فى إنجاب ديونيسوس الذى يعد على ذلك ندا لزاجريوس . وغاية الإنسان الأولى هى أن يتخلص من العنصر التيتانى ويحتفظ بالعنصر الإلهى فى كيانه المعقد . وأمامه فى هذا العالم وفى العالم الآخر سلسلة طويلة من الحياة التى قد يجازى أو يقتص منه فى أثناء كل رحلة منها

على ما يكون قد أتاه من خير أو شر خلال وجوده السابق . فإذا ما احتمل واصطبر فإنه يصل فى النهاية فيما يبدو إلى ماهو أقرب إلى الحبور الإلهى الأبدى . أما الأسلوب الذى يتبعه فهو الحياة الأورفية ، وهى مزيج من الطقوس الدينية وضروب التأبى عن الطعام والشراب (فبعض الأورببين على سبيل المثال ، كانوا من النباتيين) مع قدر معين على الأقل من السلوك الخلق .

ومن الواضح الجلى أن المشايع لهذه الديانة ، قد وجد فى مثل هذه العقيدة التى آمن بها نوعا من التفسير لمصائبه وقسطا لابأس به من السلوى والعزاء . فإذا مابدا له أنه يعانى من ويلات لايستحقها فذلك لأنه قد اقترف ثمة معصية فى المرة الأخيرة التى كان بها فى العالم الآخر أو أنه على أية حال لم يتقدم بعد إلى الدرجة الكفيلة باستدرار رضاء برسيفونى عنه وإعفائها له من نصيبه من الخطيئة الأولى . فإذا ماصمد لهذه البلايا، فقد يكون لهأن يأمل ، فى الأقل فى وجود أوفر سعادة وهناءة من هذا الوجود ، عندما يستبدل حياته هذه المرة التالية بحياة أخرى فى مملكتها . وله على أكثر تقدير أن يتطلع إلى مرتبة غاية فى السمو والرفعة فى واقع الأمر ، فربما عاد إلى الأرض فى صورة ملك أو حكيم ، وشق طريقه بمضى الزمن إلى مرتبة إلهية فائقة لمراتب البشر . وإذا واتى الحظ جاره الظالم ، فله أن يعزى نفسه بالفكرة القائلة بأن ذلك الجار سيلقى القصاص الرادع على مثل هذا الظلم فى حياة أخرى ، وإن بدا فى هذه الأثناء محقراً بين اخوانه ، فإن ثمة إلهاً واحداً على الأقل ، وإله واحد عظيم أيضا يهتم بأمره ، وسيعمل على أن يثيبه جزاءه العادل فى النهاية . وقد تصادف وجود مدارس فكرية قدمت المبررات لنسبة محدودة على الأقل من هذه العادات التقليدية أو المكتسبة التى كان يمارسها أشياع المذهب الأورفى . ولعل ذلك لم يكن بالأمر الهين فى عصر بدأت فيه تلك الخرافات التى كانت تختص بطبقات معينة من الشعب ، والتى أغفلها التراث الهومرى إغفالا تاما مؤثراً عليها معتقدات النبلاء الإقطاعيين التى تتسم بمجاراتها لشىء نسبى من المنطق — بدأت فى الظهور وفى إثبات وجودها .

وكان يحوط مذهب فيثاغوراس، الذى كان فى أحسن صوره مذهباً فكريا بالغ

السمو ، قدر هائل من أغرب أشكال المحرمات التى تدل فى أصلها على عقلية لا تفضل عقلية البدائى الهمجى ، والتى يبدو أن بعض أعضاء هذه المدرسة قد تناولها بالتعليل والشرح ، استناداً إلى مناهج فى التفسير لاتختلف فيما يحتمل عن تلك التى شاع استعمالها فى زمن جد متأخر عن زمنها ، فوجدوا فى هذه المحرمات رموزا على شرائع خلقية ودينية . وفى هذا النطاق الغريب من التفكير ، قد يراعى المرء من الفروض ما يحرم عليه ، مثلا ، ترك رسم جسده على أغطية الفراش الذى يكون قد رقد عليه وألا يتناول بعض الأسماك المشئومة المعينة ، وألا يستخدم سكينا لتحريك النار التى يوقدها ، ومئات من الفروض الأخرى من هذا القبيل . وهو فى ذلك راض قانع لعلمه أنه إذ يفعل ذلك إنما يدخل فى نوع من المشاركة والأخوة مع رجال طبقت شهرتهم الآنفاق . ونذكر على وجه الخصوص فى ميدان العلم والحكمة جنوبى إيطاليا وشرقى صقلية التى كان أتباع فيثاغوراث يمارسون فيها نشاطهم . وقد يجد المرء فى المذهب الفيثاغورى أيضا أو مشتقاته الشعبية ، مبرراً لاعتقاد ترك أثره هنا وهناك فى المنطقة اليونانية ، وهو تناسخ الأرواح . وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك قط ، كما أسلفنا ، ما يمكن اعتباره جماعة منظمة تنادى بالمذهب الأورفى ، فقد ذاعت نظرياته ذاتها خارج البلاد ، وظهر أثرها فى كثير من الدوائر خلال أعظم عصور الثقافة اليونانية وهى القرن السادس والخامس والرابع قبل الميلاد . ويبدو أن بيسستراتيوس ، الطاغية الأثينى الذى كان يتطلع إلى مساندة الشعب لحكمه الاستبدادى المستنير المعتدل ، قد شجع الأدب الأورفى ، والحق إنه مما تناهى إلينا أن أونوماكريتوس Onomakritos ، وهو من أشهر عرافى ذلك العصر . قد حكم عليه بالنفى لأنه أقحم بعض النبوءات التى كانت من تزييفه هو ، على مجموعة من النبوءات تنسب إلى موسايوس .

وقام لاسوس الهرميونى Lasos of Hermione بضبط الجانى متلبساً بجريمته وهو شاعر ذو مهارة فنية فائقة ، قيل إنه هو الذى ثقف الشاعر العظيم بندار ، وأصدر الحكم هيبارخوس Hipparchos بن بيسستراتيوس الذى نال هو ذاته

شهرة فى تلقين رعاياه ، أو رعايا والده مبادئ الأخلاق العامة بنقشه الحكم والأقوال المأثورة على التماثيل التى كان يقيمها . فقد أقيمت فى دلفوى صورة للعالم السفلى تختلف جد الاختلاف عن تلك التى وردت فى القصائد الهومرية ؛ حيث تواصل الغالبية العظمى من الموتى حياة تعكس بصورة خافتة أوجه النشاط التى كانوا يمارسونها على الأرض ، وحيث لا يسام أحد العذاب سوى قلة قليلة ممن أساءوا إلى الآلهة إساءة مباشرة، مثل تانتبالوس الذى استلبهم طعامهم الإلهى ، والعملاق تيتيوس الذى حاول اغتصاب ليتو .

وكان المقصود من هذه اللوحة التى رسمها بولوجنوتوس Polygnotos أحد المعاصرين لسقراط ، ومن ثم لا يمكن أن يعود تاريخها إلى ما بعد نهاية القرن الخامس بزمن طويل ، تصوير منظر هوميريا ، وهو زيارة أوديسيوس للعالم الآخر طلبا للنصيحة من شبح تيريسياس Teiresias ؛ العراف الطيبى . غير أن هذا العالم يختلف جد الاختلاف عن مملكة الموتى كما صورها هومر . إذ تظهر واضحة للعيان على ضفاف نهر أخيرون فى العالم السفلى صورة ابن عاق ، يخنقه أبوه الذى اعتدى عليه هذا الابن ، ويرى كذلك أحد لصوص المعابد وهو يسام العذاب . وفى موضع آخر ، تكشف اللوحة عن بنات بنداريوس اللائى انتزعتهن الزوابع على نحو غامض حسبما يقول هومر ، فى صورة تليق بشبابهن العذرى الغض، متوجات بالأزاهير، يلهون فى مرح . بل إن أورفيوس نفسه ظهر هناك ، واقفا وسط أجمة من الأشجار وقد أحاط به الموسيقيون القدامى . وفى قسم آخر من هذه اللوحة العظيمة ، ترى امرأتان تحاولان نقل الماء فى جرار مثقوبة. وثمة نقش يخبر النظارة بأن هاتين السيدتين أهملتا مراسيم تدشينها. وكان عقابهما فيما يبدو هو أن تحاولا جاهدتين على الدوام وبغير طائل ، الحصول على المياه اللازمة لحمام التطهير الذى كان ركنا من أركان معظم المراسيم . وثمة أسطورة تقضى بالمصير ذاته على بنات دانا اللائى انتهكن حرمة الزواج انتهاكا فاحشا بأن قتلن أزواجهن. بيد أن الرسامين لم يكونوا هم وحدهم الذين يستوحون المذاهب القائلة بالعالم الآخر والتى كانت تنعش من حولهم ، فإن شاعراً عظيما مثل بندار، وكان

من جانبه من أتقى عباد الآلهة الرسمية ولا سيما أبولون وأكثرهم استنارة ، قد اجتذبته هذه التعاليم وضمنها فى أكثر من مرة قصائده التى كان يرمى بها إلى مواساة المريض أو المكلوم . وما زالت لدينا نقلا عنه أوصاف لحياة مباركة تزخر بألوان النشاط التى يعشقها اليونانى من أبناء الطبقات العليا ، ولكنها خلو من الشقاء والعوز . وفيما بعد أدخل أفلاطون نفسه فى محاوراته أساطير يمكن القول بأنها أورفية الصبغة ، عندما استطاع أن يجد الصور الملائمة لأفكار من الحدس والتخمين حول مصير الروح .

ولقد كان لهذه الصورة ، بطبيعة الحال ، وجه مخالف ، ففى بلاد اليونان كما فى غيرها من البلاد كان هناك الأنذال الذين يتجرون فى الخوف مما سيحدث بعد الموت ، وهو الشعور الذى بدأ بحلول هذا العصر يداخل غير قليل من اليونانيين ، ربما بصورة جمهورية حية مستديمة كما كان الحال بالنسبة للبعض ، أو عندما تنال منهم الشيخوخة أو السقم كما كان الأمر بالنسبة لغالبيتهم . ونحن نعلم من أفلاطون أيضا ، أنه قد قام هناك فريق ممن يتجرون فى إصرار وإلحاف صكوك الغفران ، إن جاز لنا هذا التعبير ، فيطرقون أبواب الأغنياء ويخرجون لهم مكتبات بأكملها من وضع أورفيوس وموسايوس ، ويعلنون عن استعدادهم ، مقابل أجر معقول جدا ، لأن يحصلوا لهم على عفو إلهى عن أية آثام ارتكبها عملاؤهم ، بما فى ذلك الأثم المتوارث من الآباء والأجداد ، أو أن ينزلوا اللعنة ، إن آثر عملاؤهم ذلك ، على أعداء هؤلاء العملاء . وغنى عن البيان أن هؤلاء الأدعياء كانوا أحصف من أن يأمروا بحياة تقشف وزهد ، بل إنهم كانوا ينصحون بتقديم الذبائح والقرابين ، مع ما يصحبها من الولائم التى كان من شأنها جميعا أن تعود على القائمين بها ، بالفلاح فى هذه الحياة ، فضلا عن السلامة من كل ألم وعقاب فى العالم الآخر . ولم يكن لدى هؤلاء أى كتاب مقدس ينظر إليه الناس عامة على أنه كتاب منزل كيما يستشهدوا بآيات منه ، غير أن نصا لهوميروس لم يكن ليقل عن ذلك حجة ، فلم يفتهم أن يقتبسوا من أشعار هوميروس قول العجوز فونيكس Phoinix فى

الإلياذة أن الآلهة إنما ترحم الذين يتقدمون لها بالصلوات والقرابين . ويبدو أن هذا الأمر كان شائعا تمام الشيوع خلال القرن الرابع،أى وقت أفول العصور الكلاسيكية القديمة . حيثما كانت بلاد اليونان وقد أنهكتها سلسلة من الحروب الداخلية ، تضم أناسا كثيرين من المترقبين المتوجسين الذين هم أدعى إلى التحول بآمالهم إلى وجهة كانت تعتبر فى نظر اليونانيين عامة وجهة شاذة .وكانت هناك وفرة أيضا من هذا الضرب من الكهنة الأميين الادعياء ، لامن أجل الأثرياء وحدهم ، بل من أجل أصحاب الدخل المحدود ، إذا ما رغب هؤلاء فيما هو أشد إثارة من معتقدات الدولة المتزنة الوقورة . ولقد كان ذلك الورع الذى تحدث عنه ثيوفراسترس ، والذى سبق أن عرضنا له ، من عملاء الأورفيوتيلستاى Orpheotelestai أو خدام الطقوس التى وضعها أورفيوس وإليهم كان ينتجع مرة كل شهر ، بصحبة أولاده وزوجه ، إن لم تكن جد مشغولة ، وفى هذه الحالة كان يحضر المربية معه .

كان لدى الرجل العادى مصدران لمعرفة صورة الآلهة وما هم عليه : الفن والأساطير التقليدية التى تدور حولهم . ولم يكن أى من هذين المصدرين يمثل قوانين الإيمان ولكنهما كانا يلقيان قبولا عاما . فيندر أن يوجد من كان يساوره الشك ، فى أن زيوس مثلا إذا ما ظهر فى صورته الحقيقية ، واستطاعت عيون البشر أن تحتمل مرآه ، سوف يتخذ مظهر رجل فتى جليل الطلعة فى شرخ الشباب . أما أثينة فتظهر فى صورة امرأة قوية البنية صارمة الفتنة تحمل دروع جندى يونانى مترجل، فى حين أن جمال أفروديتى سيحمل طابعا أشد رقة وأكثر شهوانية أما هرميس فسيتبدى فى صورة شاب رشيق تنم ملامحه عن رقة وذكاء . ومع ذلك فقد ظهرت ثمة أصوات منشقة . فقد كان يعيش قرابة مستهل القرن الخامس شاعر جوال أو منشد محترف للملاحم، يتسم بغرابة أطواره يدعى اكسينوفانيس قضى ردحا من حياته فى مناقضة الشعراء أنفسهم بل والتشهير بهم وهم الذين كان يكتسب عيشه من وراء أعمالهم ، وكذلك الفنانين الذين كانت نقوشهم ولوحاتهم تزين المبانى العامة التى يجتمع من يستمع إليه بالقرب منها أو فى داخلها فيقرر

فى إحدى قصائده بأنه لو استطاعت الماشية والخيل أن تصنع صورا وتماثيل الآلهة لأظهرتهم فى هيئة حيوانات . فالآلهة الحبشية زنوج فطس الأنوف ، والمعبودات التراقية زرقاء العيون حمراء الشعر . أما أعظم الآلهة قاطبة فهو لا يبدو فى صورة الإنسان ولا يفكر تفكيره ، ولكنه البصر كله والسمع كله والعقل كله يحكم كل شيء بذهنه ، دون جهد أو ومشقة . ولا يعتريه قط تغيير أو تبديل . وحسبنا ذلك عن الفن . أما عن الأساطير فإن هومر ، معلم البشر أجمعين منذ البداية وهسيود كذلك ، قد نسبا إلى الآلهة تلك الفعال ذاتها التى تعد أفحش ما يمكن أن يأتيه بنو البشر كالسرقة والزنا والغش . ولعل قلة من الناس هى التى ذهبت فى ذلك العصر إلى المدى الذى ذهب إليه اكسينوفاينس ، الذى كان يقف على الحدود ما بين الشعر والفلسفة (وقد وضعته العصور المتأخرة فى مصاف الفلاسفة) ولكن كان هناك الكثيرون دون شك ممن هم على استعداد على الموافقة على بعض أقواله .

ذلك أننا نقف على ميل إلى تصحيح الأساطير القائمة ، بما يتفق والخلق أو الدين ، فى زمن جد مبكر أيضا عن ذلك الزمن . فإن هسيود هو الذى يروى قصة الأحبولة التى نصبها بروميثيوس للإلهة زيوس ، بيد أن هسيود ذاته هو الذى يفسد هذه القصة بقوله إن زيوس لم ينخدع بحال فى حقيقة الأمر ، بل تظاهر بذلك فحسب وكان من الممكن أن يبلغ بندار ، مواطن هسيود ، حدودا بعيدة فى مجال التخطئة والنقد . فقد زعم أن تنتالوس أراد أن يختبر علم الآلهة الواسع بكل شيء ، فقدم إليهم إداما قوامه لحم ابنه بيلوبس . فتناول أحدهم شيئا منه دون أن يتبين حقيقته ، ومنذ ذلك الحين أصبحت لبيلوبس ، رغم أنه أعيد إلى الحياة بصورة عجيبة معجزة كتف من عاج وليس من لحم .

وبدا ذلك فى نظر بندار إلحاداً بعيداً عن المنطق والعقل . فإن بوسيدون ، الذى فتن بجمال بيلوبس انتزعه حيا إلى السماء ، أما القصة القائلة بأن بيلوبس قتل بيد أبيه فهى محض افتراء . وفيما يتعلق بكتفه العاجية ، فهذه كانت له منذ مولده . وعندما وقع أبولون فى حب كورونيس ، أم أسكليبيوس ، وخانت هذه حبه

لم ينذره أى طائر بسلوكها الشائن ، بل إنه عرف ذلك بعلمه الإلهى الواسع . أما قصص المعارك التى نشبت بين الآلهة ، فيحسن أن تظل سفرا مغلقـــا ، فبندار لايجرؤ على التصدى لها. وبعد مضى أعوام على ذلك ، عمد يوريبيديس الذى كان داعية متطرفا إلى الإصلاح فى شئون الدين كحاله فى كثير من المسائل الآخرى، إلى أن يضع على لسان أحد أشخاصه هذه العبارة الجريئة التى تقول:

« إذا كانت الآلهة يأتون شيئا إداً ، فهم ليسوا بآلهة » . أما بندار فلو نطق بذلك لقال : إنهم آلهة ومن ثم فلن يأتوا قط شيئا منكرا ، مهما أرجف الناس عنهم بالأقاصيص الباطلة . كما لم يكن الشعراء والفلاسفة هم الذين عمدوا وحدهم إلى إصلاح الأساطير على هذا النحو . فيبدو أنه قد ساد الاعتقاد فى أثينة ردحا من الزمن ، بأن الإلهة أثينا هى التى قامت بشخصها برفع بيسستراتوس إلى كرسى الحكم . بيد أن ذلك إنما كان يسىء إلى الإحساس الخلقى لدى الجمهورية التى قامت إثر سقوط أسرته ، فكيف لإلهة أن تنزل بنفسها إلى الحد الذى تشايع فيه طاغية من الطغاة ، حتى ولو كان هذا الطاغية فى مثل استنارة بيزاستراتوس واعتداله؟ وبحلول الوقت الذى تناهت فيه هذه القصة إلى مسمع هيرودوت ، أى بعد مضى جيلين على إرساء قواعد الحكم الديمقراطى ، لم تعد هذه القصة تعنى غير أحبولة نصبها مغامر مخادع ، عمد فيها إلى إلباس امرأة فارعة القامة جميلة المحيا بلباس لائق واصطحبها معه عند دخوله المدينة .

غير أن هيرودوت يساوره شىء من الشك ، إذ يبدو غريبا له أن ينخدع الأثينيون وهم أهل فطنة وذكاء بتلك الخدعة البينة الضلال . غير أن البعض الآخر كان سىء الظن بمستوى الذكاء لدى العامة ؛ وقلة قليلة ، لا يبدو أنها لقيت ترحيباً كبيرا ، هى التى ذهبت إلى حد اعتبار كل الأساطير وكل الديانات شبه خدعة بيسستراتوس المزعومة . لقد ذكر كريتياس عضو حكومة الأقلية وصديق سقراط ، فى مأساة من تأليفه أنه عندما كانت الحكومات وليدة ، سرعان ما اكتشف أنه فى حين أن القوانين يمكن أن تحد من الجرائم العلنية ، إلا أن هذه الجرائم تظل مع ذلك ترتكب فى الخفاء . ولذلك فإن رجلا داهية ابتدع الآلهة، وقال للناس إنهم يعيشون أبدا وإنهم يعلمون كل شىء ، ومن ثم فلا سبيل إلى

خداعهم ، وإن مسكنهم هو السماء ، وإن البرق والرعد وغيرهما من الظواهر الطبيعية المروعة رهن إشارتهم . وعلى ذلك فالدين حائل مفيد يقوم فى وجه النذل الآثم . ولسنا ندرى ما إذا كان هذا المذهب قد وضع على لسان شخصية محبوبة أو على لسان ذلك الرعديد الأسطورى سيسيفوس الذى سميت المسرحية باسمه ، ذلك لأنه لم يبق لدينا من هذه المأساة غير هذه الفقرة ، إلا أن هذا المذهب صادف قدرا معينا من القبول فى بعض الأنحاء . وكان هـــذا هو الحال أيضاً — وإن وقع ذلك فى عصور متأخرة بين الرومان أو المنالخين عن العقيدة المسيحية — بالنسبة لخرافات يوهيميروس العجيبة ، وقدعاش نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . ففى مؤلفه الذى يغلب عليه طابع الغباء وعثر عليه فى جزيرة تقع على بعد مناسب ، نقف على نقش يبين فى وضوح أن الآلهة التقليديين ما هم إلا آلهة حقيقيون وأن القصص التى تروى عنهم صادقة فى معظمها ، بيد أن ثمة خلافا واحدا وهو أنهم كانوا فى الأصل ملوكا أو أناسا من ذوى المكانة ، رفعتهم شعوبهم إلى مرتبة الألوهية ، عرفانا منها بفضلهم أو تملقا ومداهنة . غير أن يوهيميروس لم ينكر وجود كائنات كالآلهة على الإطلاق ، بل إنه ذكر بعض الآلهة السماوية وربما كانت هذه هى الأجرام السماوية . كما لم ينكر وجودهم بحال أبيقور . الذى كان معاصراً له ، ذلك لأن مذهبه كان يفترض ضمنا وجود الشخصيات التقليدية للآلهة فى واقع الأمر . بيد أن دارهم تقع بعيدة فى الفضاء ، فيما بين الأكوان العديدة التى سلم أبيقور بوجودها ، وهم فى أكمل سعادة وحبور ، ومن ثم فلا تثقل كواهلهم مثل تلك الواجبات الشاقة كالنظر فى شئون الدنيا أو رعاية البشر . وهم لم يخلقوا شيئا ، ولن يصيبوا بأذى جمـــادا أو إنسانا . لقد كتب يقول :

« إن كل من تبارك من الخالدين ، لا يعانى هو ذاته من المتاعب ، كما لا يثيرها لغيره ، ومن ثم فلا يخضع لنوبات الغضب أو مشاعر الرضا ، لأن مآل ذلك كله إلى الضعف » .

ومثل هذه الكائنات كانت جديرة حقا بالإعجاب ولكن ينبغى ألا يخشى

بأسها أو ترجى نعماؤها . وقبل الزمن الذى عاش فيه أى من هذين الرجلين قال السفسطائى العظيم بروتاجوراس إنه لا يمكنه أن يقطع بما إذا كان الآلهة موجودين أو غير موجودين . ولكن الإنكار التام للآلهة كان ظاهرة نادرة الوجود حقاً فى العالم القديم ، بل إنه لا يلبث فى الغالب الأعم أن يتضح بالبحث والتدقيق أن من سموا بالملحدين ، كانوا من المنكرين للأفكار الدينية السائدة فحسب . ومن الطريف أن نذكر أن هذه اللفظة أطلقت على المسيحيين الذين أنكروا بطبيعة الحال ألوهية جميع المعبودات الوثنية ، إلا أنهم لم ينادوا دون شك بعدم وجود الله على الإطلاق .

وهكذا فإن الغالبية العظمى من الجنس اليونانى ، واصلت الاعتقاد بوجود آلهة من نوع أو آخر ، وعادة ما كانت تؤمن بوجود الآلهة التقليديين . ولكنه ما إن تفاقم الموقف السياسى لدى مدن الدول اليونانية ، حتى بدأ الشك يساور الكثيرين فيما إذا كانت الآلهة جديرين بلقب « المنقذين » ، لقد أعلن سولون ان مدينة آثينا إنما تحميها يدا إلهتها الحارسة الجبارتان . وخلال العهد المقدونى تحولت آثينا من أمير إلى آخر أكثر من مرة وكانت فى أغلب الأحيان تخضع للسيطرة الأجنبية . فما الذى دهى قدرة الإلهة أثينا على الإنقاذ ؟ وإذا كانت هى ومثيلاتها لا يستطعن درء الخطر عن عبادهن ، فإلى من يتطلع الناس ؟ وثمة جواب عن ذلك ، على الرغم من أنه لم يصادف قط ترحيبا شعبيا كبيرا فى بلاد اليونان ذاتها ، إلا أنه نال رواجا واعترافا من الدولة على أقل تقدير ، ففى كثير من المدن التى تتكلم اليونانية مثل الإسكندرية ، حيث كان السكان فى غالبيتهم لا ينتمون لأصول أوربية بل كانوا ثمرة نشر الإسكندر الأكبر للحضارة الهلينية إلى قلب آسيا وإلى مصر .

وكان الجواب هو أن ضربا جديدا من الآلهة المنقذين تجلى فى أشخاص الملوك العظام الذين خلفوا الإسكندر ، وإن من الأهمية بمكان الظفر بتحالفهم وصداقتهم . وإذا كان هؤلاء الرجال قادرين على الإنقاذ وهو ما يفترض أن الآلهة قادرة عليه ، فماذا يحول دون الخروج بالنتيجة المنطقية ، ودعوتهم بالآلهة؟ ولم يكن الأمر محض تملق ، ولو أن ذلك أثار نفور كثير من الآثينيين ، عندما

خاطب شاعر آثينى ذلك الأمير الألمعى ديميتريوس بوليوركيتيس الذى كان مع ذلك هوائياً قُلباً . وذلك عند زيارته لمدينتهم ، بهذه الكلمات .

« غيرك من الآلهة يعيشون بعيدا ... بعيدا جدا
أو ترى أنهم صم الآذان ؟
أو لعلهم غير موجودين ، أولا يأبهون بأحوالنا شروى نقير
أما أنت ، فإننا نراك أمامنا ،
ليس من برونز أو رخام ، بل بشخصك أنت
ولذلك فإننا نتضرع إليك قائلين :
أنعم علينا أيها الحبيب ، بالسلام
لأنك أنت مالكه ومانحه .

ولم تكن هذه بشطحة من شطحات شاعر ، لأن المدينة كانت قد خرجت على بكرة أبيها لاستقبال الزائر العظيم ، وهى متوجة بالأكاليل ، مطلقة للبخور ساكبة لقرابين الخمر . كما لم يكن الأمر مقصوراً على أثينا وحدها ، فإنه لم تلبث أن انبثقت فى عدة أماكن معابد باسم أم ديميتريوس ومحظياته ، أما عن ديميتريوس نفسه فقد عزى إليه أنه ابن برسيدون وأفروديتى . وعلى الرغم من طموح ديميتريوس وسلوكه الشاذ المتقلب فى حياته ، فإنه كان أحصف من أن يستسيغ مثل هذه الأمور ، على خلاف ذلك الشخص الشاذ ، مينيكراتيس Menekrates ، الطبيب ، الذى أصر على أن يلقب بزيوس ، وأطلق أسماء الآلهة الصغرى على مرافقيه وقد كانوا من المرضى الذين برئوا ، فى زعمه ، من الصرع (ويعرف فى اليونانية « بالمرض المقدس » لأن الشائع عنه أنه انتقام إلهى) . وكان هذا المخلوق الشاذ ، الذى يبدو فى الحق أنه كان على قدر كبير من المهارة فى مهنته ، مواطنا لسرقسطة ، يخاطب الملوك على قدم المساواة كما يخاطب حاكم حاكماً آخر (وهى نغمة لم تعجب فيليب الثانى المقدونى ، والد الإسكندر) ويحاكى فى ملبسه تماثيل الآلهة ، وعلى الأخص زيوس بطبيعة الحال .

ومع ذلك فإن هؤلاء الشواذ أنفسهم من الأفراد المختلى العقول فيما يرجح ، لم يكونوا يثيرون كبير نفور من جانب الوعى الدينى العام ، كما لم تكن لهجتهم بينة الإلحاد ، كما يظهر فى حالات الجنون المماثلة التى تقع فى الوقت الحاضر والتى توضع على الفور وكقاعدة عامة تحت العلاج المناسب فى مستشفيات الأمراض العقلية . والحقيقة أن ثمة شقة بعيدة تفصل ، فى نظر العقلية اليونانية العادية ، بين البشر وبين الآلهة ، فيقول بندار إنهم أبناء أم واحدة ، إلا أن الإنسان هو والعدم سواء ، أما الآلهة فلهم سماؤهم التى ستبقى راسخة إلى الأبد . بيد أن هذه الشقة ليست ممتدة إلى غير انتهاء ، كما أن التقريب بين طرفيها ليس متعذرا تماما . فقد كان فى تقدير العامة ، أن عددا من الآلهة القائمين كانوا يوما ما فى عداد البشر ، وعلى الأخص هرقل الذى اتخذه فى الحقيقة أكثر من مذهب من المذاهب الفلسفية المتأخرة . مثله الأول على ما يمكن أن تؤدى إليه الفضيلة المطلقة من السمو بإنسان هالك إلى ما فوق مستوى البشرية جمعاء .

وفيما يتعلق بمعشر الملوك بالذات ، ومنذ عهد أفلاطون على أقل تقدير ، حين بدأ يتضح للمستنيرين فشل الديمقراطية اليونانية . وحين اتجه الرأى إلى الأخذ بنظام من النظم الملكية ، استتن مستوى بالغ السمو معيارا للشخص ذى الطبع الملكى الأصيل ، أى الشخص الذى يصلح لحكم دولة من الدول ، سواء حمل لقب الملك أو لم يحمله . وعندما قلب الإسكندر وخلفاؤه الوضع السياسى داخل الأقطار التى تتكلم اليونانية وفيما وراءها ، مستعيضا عن الممالك الكبرى بوحدات سياسية أصغر منها ، فإن مسألة ماهية الملك المثالى ، وما ينبغى أن ينشأ عليه الطامح إلى مثل هذا المنصب العظيم ، أصبحت تتجاوز فى أهميتها النطاق النظرى ، وقد دبجت حول هذا الموضوع مئات المقالات ، آل إلينا منها قدر هائل من القصاصات وكثيرا ما نقف فى مثل هذه المقالات ، وليس فى شعر البلاط فحسب على تصريحات تقول إن الملك إن لم يكن إلها بالمعنى الحرفى فهو يضارع على الأقل أحد الآلهة ، وإنه يعادل على الأرض معبودا فى السماء وإنه من طراز نادر الوجود ؛ يفوق إلى حد بعيد المستوى العادى لسائر بنى البشر ، وإنه شبيه بزيوس نفسه ، ولا يقل عنه

من حيث مكانته الأدبية ، وهلم جرا . ومن ثم فلم يكن ينبو عن منطق أو عقل أن يؤله أى ملك قدير حين توافيه منيته ، كما اتفق على سبيل المثال ، لعدد من البطالمة فى مصر . ومع ذلك فإن هذا الإجلال لنظم الحكم الملكية ، بالإضافة إلى أساسه النظرى ، ظهر أساسا خارج بلاد اليونان الأصلية وخارج مستعمراتها القديمة الأولى ، والحديث عنهما إنما هو أحرى بتاريخ للديانة الرومانية أو على الأصح للديانة اليونانية الرومانية ، عنه بتاريخ للديانة اليونانية البحت ، ولنعد إلى التطورات التى كانت أكثر من هذه شيوعا فى بلاد اليونان .

وبغض النظر عن أساليب معالجة الأساطير التى سبق أن عرضنا لها فإن ثمة أسلوبين آخرين على الأقل لقيا ترحيبا كبيرا . فمن كان لهم بعض الميل إلى الفلسفة كانوا عرضة للأخذ بالمذاهب الجديدة الناشئة بين المدارس الفلسفية أو ما كان قبل المدارس الفلسفية وهى المحاضرات التى كان يلقيها سفسطائيو القرن الخامس . ويقوم أحد هذين الأسلوبين على النظر إلى الأساطير على اعتبار أنها تتناول قوى مجسمة للطبيعة . ومما ساعد على تعزيز هذا الافتراض لغة الشعر التى اعتادها الجميع لكثرة المؤلفين الذين كانوا يكتبون نظما والذين كانت أعمالهم تتخذ أساسا للتعليم فى مختلف المدارس اليونانية . مثال ذلك أنه منذ عهد هومر أصبح من المألوف أن يذكر اسم هيفايستونس دون أن يكون المعنى شيئاً غير النار . وفضلا عن ذلك ، فإن نسبة معينة على أقل تقدير من المعبودات الصغرى ، كانت تمثل فى الواقع ضربا من التجسيم ، بمعنى أنها نشأت عن النظرة الروحانية إلى الطبيعة . وهكذا فإن اللفظة ذاتها « بورياس » Boreas كانت تتخذ علما على ريح الشمال وعلى الكائن الأسطورى المهيمن عليها فى الاعتقاد السائد . ومن ثم فلم يكن الأمر يتطلب بالغ عبقرية (كما يوضح أفلاطون عندما يتظاهر ساخرا بإعجابه بعبقرية هذه النظرية) قائلا إن القصة الآتيكية التى تروى كيف أن بورياس قد اختطف ابنة أحد ملوك أثينا وبنى بها لم تكن غير تصوير شاعرى لمصرعها إثر حادثة مؤسفة . فقد أطاحت بها من فوق قمة جبل ريح صرصر ، فلقيت حتفها . وكثير من التفسيرات كان يفوق ذلك إلى حد بعيد إحكاما وإتقانا ، ونسبة غير

يسيرة منها أيضا كانت تعتمد على اشتقاقات لغوية لم تكن تخرج فى الغالب عن كونها ، وعلم النحو والصرف مازال وليدا ، أمثلة سيئة سخيفة على التورية . وقد اتخذ زيوس هدفا لبعض هذه التوريات البالغة فى السخف . فإن اسمه ، وهو اسم سحيق فى القدم ، يصرف على أكثر من وجه ، ومن بين الصيغ الناتجة ، صيغة المفعول هى Dia وصيغة تابعة الفاعل هى Zen أو Zan واتفق أن جاء وقع هاتين الصيغتين على السمع مشابها لوقع اللفظتين اليونانيتين اللتين تعنيان على التوالى « بوساطة » و « يعيش » ، حتى إنه كثيرا ماتردد ، على نحو أو آخر ، الزعم بأن زيوس سمى بهذا الاسم لأنه القوة التى بوساطتها يجرى كل شىء أو أنه القوة الواهبة للحياة ، وتعرضت زوجه لتأملات مماثلة . فما كان أيسر أن يحور اسمها وهو « هيرا » Hera إلى « إير » aër ذلك لأن الهاء التى تنطق مخففة دائما فى اللغة اليونانية ، جنحت جنوحا شديداً إلى الاختفاء كلية فى بعض اللهجات ، كما لم تكن تكتب دائما كحرف مستقل فى الأبجديات الشائعة .

ومن الواضح أنه بقبول هذه الفكرة تنتفى جميع الاعتراضات التى تقوم فى وجه الأساطير التى تروى حول هيرا . فالإلهة الحقودة الحسودة المنحرفة المزاج قد لا تكون موضعا يليق بالعبادة ، ولكنه إن قيل إن الأساطير ليست إلا أسلوبا مجازيا للتعبير عن الاضطرابات الجوية ، فلن تلبث أن تصبح هذه الأساطير زخارف شعرية لاضير منها . أما عن أبيهما واسمه كرونوس kronos فقد انقاد فى يسر لمثل هذا التلاعب اللفظى الذى كان دافعه الغيرة على الدين ، ذلك لأن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من جعل الحرف الأول من اسمه حرفا هائيا لكى يصبح فى اليونانية خرونوس chronos أى الزمن . فثمة قصة بالغة القدم تروى كيف أن كروتوس عمد ، خشية أن يطيح به أولاده ، إلى التهامهم الواحد بعد الآخر أو التهام الذكور منهم على أقل تقدير ، حال مولدهم . والاعتقاد فى مثل هذه الأمور عن إله حقيقى كان حريا بأن يفجع من كانوا يأخذون الأساطير أصلا مأخذ الجد ، ولكن أى بأس فى أن يقال إن هذه القصة ترمز إلى الحقيقة الماثلة فى أن الزمن الذى يتيح لكل شىء أن يحدث هو الذى يضع كذلك النهاية لكل شىء؟ وقد أدت عبقرية اليونانيين التى اقترنت بالإجلال العظيم لحكمة السلف وتقواهم ، إلى أنهم انساقوا فى تفسير

تراثهم الأدبى على أوجه تبلغ الغاية من الغرابة . وقد خلف لنا بلوتارخ الذى تعد مؤلفاته ذخرا للتأملات الطريفة التى التقطها من مطالعاته الواسعة وأضاف إليها من بنات أفكاره ، فقد كان مفكرا متدينا عميق الإيمان بطبعه ، مقالة عن أوجه الإفادة من دراسة الشعراء . وتتضمن هذه المقالة أمثلة بارزة تماما على ما أجراه بلوتارخ من تحريف وتأويل للمعانى البسيطة التى قصدها هؤلاء الشعراء ، وبخاصة هومر ، فى سبيل أهداف أدبية ودينية . مثال ذلك أن هومر يقول إن الآلهة ينسجون للبشر التعساء « حياة شدة وبلاء » وهذا النعت من اللوازم التى تتردد دوما فى الشعر الملحمى . ولكن الذى لاشك فيه أن الآلهة لرحمتهم لايأتون مثل هذا العمل قط . وعلى ذلك فينبغى أن نفهم هذا النعت ، حسبما يقول بلوتارخ ، على اعتبار أنه صادر عن روح من الشفقة والعطف على الحمقى من الناس الذين يحيون فى الحق حياة شقية ، لأن حمقهم وسوء فعالهم يجعلانها كذلك .

يقول هسيود إن بروميثيوس نصح أخاه البادى البلادة إيبمثيوس بألا يقبل أية هدية من زيوس . بيد أنه مامن شك فى أن بروميثيوس لم يكن ليسدى أحدا مثل هذه النصيحة المنافية لدواعى الدين . فالواضح إذن أن اسم « زيوس » كان يستخدم ، وفق ماهو مباح فى الشعر ، بديلا عن لفظة « الحظ » وأن التحذير الصادر إلى إيبميثيوس هو ألا يولى ثقته أضاليل الدنيا وثراءها الذى يأتى عفواً وحظا ، لا عن جدارة واستحقاق . ومن كان من القراء محيطا بالشراح القدامى للإنجيل ، سوف لاينكر شيئا من هذا التفسير ، ولا غرو فإن المعانى الغريبة التى استنبطها النقاد القدامى مثل فيلون السكندرى وأريجن بوجه خاص ، من النصوص الإنجيلية إنما تتصل بنسب مباشر إلى ذلك التفسير الأخلاقى للكتاب الكلاسيكيين القدامى .

وإذا كانت الأساطير التى تعرض على أقل تقدير قضايا محددة ، والشعراء الذين يصوغون هذه الأساطير وفق أهوائهم ، قد تعرضوا لمثل هذه المعالجة الغريبة ، فلم يكن لينتظر أن تترك الطقوس دون تعقيب . وقد صدق أرسطو حين قال فى فقرة شهيرة له إن الذين يمرون بمراسيم الاطلاع على الأسرار المقدسة لا يقدر لهم أن

يتعلموا شيئا، بل أن يمروا بتجربة معينة وحالة ذهنية خاصة . كما أن عددا ليس بالقليل ، كما سبق أن بينا ممن كانوا يمرون بمراسيم كتلك التى تجرى فى إليوسيس، كانوا يقومون بها وقد تولتهم رهبة عظيمة . ويبدو من الوهلة الأولى أن شيشرون الذى تعد مؤلفاته الفلسفية ذخرا لكثير من النظرات اليونانية التى تنتسب إلى عصره وإلى عصور سابقة ، يناقض أرسطو عند الحديث عن إليوسيس، فى قوله: «إنها لا تعلمنا فى ابتهاج فحسب سراط الحياة بل تعطينا كذلك أملا أفضل عند الموت» . ولكن بلوتارخ ، كما هى عادته فى أغلب الأحيان، يدلى لنا بمفتاح السر. فمن رأيه أن شيشرون قد اصطحب معه إلى مراسيم اطلاعه على الأسرار المقدسة «مذهبا فلسفيا ليكون هاديا له» . فقرأ فيما شهده فى قاعة الأسرار أفكارا كان قد حصلها من محاضرات أحد الفلاسفة أو من مطالعاته الخاصة . ولكن أبعد ما يكون عن الصدق أن يقال إنه الشخص الوحيد الذى أتى مثل هذا العمل أو أن طقس إليوسيس هو الطقس الوحيد الذى أمد من جاءوه ، ولو ببوادر أولوية لديانة تختص بهم ، بمادة للتثقيف والتهذيب الخلقيين . مثال ذلك أن التطهر كان فى العقيدة اليونانية كما فى سائر العقائد الأخرى ، فرضا واجبا على من يؤمون الصلاة سواء فى المعبد أو فى أى مكان آخر . وأول ما تجدر الإشارة إليه أن ذلك كان إجراء رسميا . فمن كان ينتوى الصلاة كان عليه أن يغتسل ويرتدى ملابس نظيفة من اللون المقرر (فإننا نعلم من أحد النقوش ، على سبيل المثال، أن النسوة اللائى كن يبغين الانضمام إلى عقيدة ديسبوينا Despoina ، وهى إلهة كانت تعبد فى لوكوسورا Lykosura فى البليبوتير ، كان محرما عليهن أن يتزين بأية حلى أو ينتعلن أية نعال ، أو يرتدين ثيابا سوداء أو أرجوانية أو أية منسوجات مطرزة) كما كان يراعى أنواعا طقسية مختلفة من الصيام ، يسرى بعضها على أنواع معينة من الطعام ، كما كان الحال فى لندوس Lindos بجزيرة رودس . حيث كان لزاما على من تناول جبنا أن ينتظر حتى ينقضى يوم قبل دخوله المعبد ، أما إذا كان قد تناول لحم معز أو شيئا من البقول فيلزمه ثلاثة أيام . غير أن الزهد فى الجنس كان من أهم الشروط الواجبة ، فقد كان الجماع يجرد الشخص بصفة عامة من أهلية العبادة مدة قد تطول وقد تقصر ، وكذلك الحال أيضا عند مساس طرفى الحياة . أى المرأة عند ولادتها

أو لجسد الميت . ولكن المبادئ الخلقية لم تلبث أن اقتحمت هذا الميدان . ففى برجاموس ، على سبيل المثال ، إذا اضطجع الرجل مع زوجته أو المرأة مع زوجها فكلاهما يقابل بالترحاب فى معبد الإلهة أثينا فى ذلك اليوم ذاته . أما إذا كانت الشهوة غير مشروعة فالأمر يتطلب انقضاء يومين والاغتسال فى حمام تطهيرى .
وليس فى ذلك عظيم تفرقة غير أنه يعزى إلى ثيانو زوجة فيثا غوراس ، أنها انتقلت بهذا التحريم القديم كلية إلى المجال الخلقى . فقد سألها سائل ، باعتبارها عمدة فى المسائل المتعلقة بالطقوس المقدسة ، عن المدة التى ينبغى للمرأة أن تقضيها بعد اتصالها برجل حتى تصبح طاهرة من وجهة النظر الدينية فأجابته بقولها : « إن كان هذا الرجل بعلها ، فهى طاهرة فى التو واللحظة ، أما إذا كان شخصا آخر ، فلن يتأتى لها ذلك قط » . وثيانو إنما تمثل شخصية غامضة ، شأنها فى ذلك شأن معظم أتباع فيثاغوراس الأوائل ، غير أنها لا تنفرد وحدها بهذه النزعة . وإذا كان لنا أن نسلم بصدق بعض الأساطير الدينية التى رويت حول دلفوى ، وأشهرها قصة المسافرين الثلاثة ، جاز لنا القول بأن أبولون الذى اشتهر بدعوته إلى الطقوس التطهيرية . لم يسلم من التأثر بهذا الاتجاه الرامى إلى استنباط العبرة الخلقية منها . فقد هاجم قطاع الطرق وهم فى طريقهم إلى المعبد ، ففر واحد منهم ودافع الآخران عن نفسيهما ، ووسط الهرج والمرج أصاب أحدهما الآخر عن غير قصد بجرح أودى بحياته . غير أن قطاع الطرق غلبوا على أمرهم وولوا الأدبار ، فهرع من كتب له النجاة ، وقد تدنس بدم صديقه ، إلى الوحى ليسأله عما عساه أن يفعل لكى يطهر فأجاب الإله على لسان كهنته بقوله :

« لقد قتلت يا هذا صديقك وأنت تحاول الدفاع عنه ، فهذا الدم لم يدنسك ، بل إنك أطهر مما كنت » .

ولكن عندما بلغ المعبد الحاج الذى فر ، طلب إليه أن يغادره لأنه ليس أحسن حالا من قاتل مجرم . وقد أذاع واحد من الناس مقطوعة شعرية بديعة زاعما أنها جاءت على لسان الوحى فى دلفوى . وكانت تهيب بالمصلى أن يأتى فى حالة من الطهر ، ولكن هذا الطهر هو طهر الروح . وحسب الأبرار إذا أرادوا التطهر أن

يغتسلوا اغتسالا عاديا فى مياه جارية ، أما الأشرار فلن يكفيهم مجرى الأقيانوس كله . ووضع شاعر آخر على لسان الإله أن الأبرار ليسوا فى حاجة إلى أى تطهر على الإطلاق وأن أبواب المعبد مفتحة على مصاريعها أمامهم ، فى حين أن الأشرار لن تطهر أرواحهم قط ، مهما أمعنوا فى غسل أبدانهم . وبغض النظر عما إذا كان قد قدر لكهنة أبولون الرسميين أو لم يقدر لهم ، أن يذيعوا أقوالا كهذه ، فلا جناح علينا فى القول بأن هذا الضرب من الآراء والمشاعر هو ما كان الكثيرون يعتقدون أنه يليق بهذا الإله . وهكذا فإنه بنمو الوعى الخلقى لدى المستنيرين نسبيا من بين اليونانيين ، عمد هؤلاء إلى تفسير الفروض الدينية اليومية بما يتفق وهذا الوعى ، كما نسبوا إلى معبوداتهم المبادئ ذاتها التى كانوا هم أنفسهم يعتنقونها ويتبعونها فى أغلب الاحيان . وإذا ما رجعنا إلى بلوتارخ مرة أخرى ليكون هاديا لنا ، بالنظر إلى أنه أحب الأتقياء الذين نعلم من أمرهم شيئا ، والوحيد الذى آلت إلينا مؤلفاته كاملة تقريبا ، وقفنا لديه على شواهد غريبة على هذا الاتجاه . فقد كان عظيم الاهتمام إلى أبعد حد بالطقوس الدينية سواء اليونانية منها أو الأجنبية ، ووجد فيها مادة لمذهبه العقلى الرقيق ولمشاعره الكريمة الفياضة . وإذ أيقن أن هذا هو المغزى الذى ترمى إليه الطقوس ، لم يتورع عن أشد ضروب التشبيه والتمثيل جرأة ، مثال ذلك أنه كان يعلم أن نصب الحرب التذكارية الدائمة كانت من قبيل المستحدثات فى بلاد اليونان ، وأنه كان من عادة الرومان فى القديم ألا يرموا هذه النصب أو يجددونها . ويقام النصب التذكارى للمعركة (tropaion) فى النقطة ذاتها التى منى عندها العدو بالهزيمة (tropé) . ويتألف النصب عادة من عدة من الدروع تؤخذ من العدو وتقام فوق مرتفع من الأخشاب . والغالب أن يستخدم لهذا الغرض جذع شجرة يبرز منه غصنان قصيران فى وضع متعارض . ولعل ذلك كان فى الأصل جزءا من الأعمال السحرية المختصة بالحرب حيث كان عتاد الأعداء يعرض للعوامل الجوية حتى يتساقط أجزاء متناثرة ، أملا فى التأثير بالمثل على العتاد الذى ما زال فى حوزتهم وعلى قدرتهم على خوض الحرب . أما بلوتارخ فقد كان من رأيه أن مبتدعى هذه العادة إما أنهم أرادوا ألا يطيل مواطنوهم

النظر فى آثار بسالتهم وانتصاراتهم الغابرة ، بل أن يسعوا إلى اقتناء شهرة جديدة بمآثر جديدة ، وإما أنهم لم يكونوا يرجون للعداوة طول بقاء ، فهيأوا لكل ماقد يذكرهم بها أسباب الانحلال العاجل . وكان يعلم أيضا أن اللون الأبيض يتخذ فى بعض الأحيان لونا للحداد وأن الموتى يتشحون فى الغالب بالبياض وأنهم يشيعون إلى القبر وعلى رءوسهم أكاليل الغار . وفى ذلك دلالة فى نظره على حكمة الأقدمين الذين شرعوا هذه العادة ، وتفاؤلهم فى مواجهة الموت، فالميت قد تحرر من الجسد الذى كان يدنس روحه أو يصبغها كما تفعل مواد الصباغة فى نسيج الصوف . وهو كذلك قد خرج مظفرا من معترك الحياة . أهناك ، إذن ، ما هو أليق من أن تخلع عليه ثياب بيض رمزا إلى طبيعة الروح الحقيقية من حيث بساطتها ومن حيث إشراقها ووضاءتها كذلك ؟ أماعن إكليل الغار ، فقد كان يشبهه البعض دون شك — وإن كان ذلك غير مؤكد بالنسبة لبلوتارخ — بذلك الذى كان يضعه اللاعب المظفر فى المباريات الرياضية .

وآلهة بلوتارخ رحيمة شفوقة بريئة من كل حقد وغل ، والنظر إليها على وجه يخالف ذلك ، خرافة وضيعة ، أدعى إلى إثارة سخط الآلهة ، من أى ضرب من الإلحاد أياكان . ومن تعاليمه التى وردت فى فقرة شهيرة من مبحثه هذا « حول الخرافات » أن من الأيسر عنده هو نفسه أن ينكر الناس أن شخصا اسمه بلوتارخ كان له وجود على الإطلاق ، من أن يقال عنه إنه كان رجلا تسول له نفسه أن يكون وضيعا فى غضبه ، عنيفا فى انتقامه . ولاريب فى أن هذا هو الحال أيضا مع الآلهة . بيد أن ثمة نعمة واحدة ينشدها منهم أولا وقبل كل شىء ألا وهى الحكمة ، ولاسيما تلك التى تقود إلى المعرفة بالطبيعة الإلهية . فهذه ، كما يحدث صديقته « كلسيا » وكانت سيدة توافقه فى المشرب ، هى أمر يشاركنا فيه الآلهة فى حين أن نعمهم الأخرى لاتعدو أمورا يمنحوننا إياها بحسب حاجتنا . وعظمة الآلهة تكمن فى حكمتها لا فى قوتها ، ولو لم تكن لها مثل هذه الحكمة ، لكانت حياتها الأبدية أمدا فارغا .

والغاية من العبادة الحقة هى المعرفة gnosis ، وهى لفظة سنتناولها

باستفاضة فى مواضع أخرى . وفطنة المعرفة هى الأسرار ، إذا ماأمكن إدراكها على الوجه الصحيح ، وقد تتضمن فى بعض الأحيان دقائق غريبة .

« أما عن القول بأن أوزيريس هو ذاته ديونيسوس ، فمن أدرى منك بذلك يا كلسيا ، وأنت من زعيات « الثوثياديس » Thyiades (أى عابدات يونيسوس) فى دلفوى ، ثم رؤيتك الأسرار المقدسة وفقا لطقوس أوزيريس ، كما حدث لوالدتك وأبيك من قبلك ؟ ولكننا إن وجب علينا أن نقيم الدليل على ذلك خدمة للغير ، فما أحرانا أن نترك هذه الأمور السرية وشأنها ... »

ويمضى بلوتارخ فيدلل على تطابقهما استنادا إلى بعض الطقوس المصرية . والجدير بالذكر أن هذه كانت سمة من سمات العصر . فمنذ عصر الإسكندر تقريبا ، كان هناك ميل مطرد إلى التوحيد بين مختلف الآلهة سواء الوطنية أو الأجنبية . ويعرف هذا الاتجاه فى العصور الحديثة تعريفا غير دقيق باسم « حركة التوفيق العقائدى » syncretism ، وقد تتبدى هذه فى بعض الأحيان فى صور فنية غريبة كأن يظهر أحد المعبودات وقد حلى بأشياء مقدسة لمعبود آخر أو لعدة معبودات أخرى . وغنى عن البيان أن هذه الحركة أزدهرت فى تلك المناطق التى التقت فيها الديانة والحضارة اليونانيتان بمثيلاتها فى البلاد الأخرى ، ولاسيما فى الإسكندرية ؛ موطن عقيدة سرابيس التى كانت من خلق بطليموس الأول ، مستعينا بمشورة أحد الخبراء العارفين وهو تيموثيوس الإليوسى . وحدت هذه العقيدة ما بين العناصر اليونانية والمصرية ، والبابلية كذلك فيما يبدو ، وكان يراد بها أن تكون عبادة تتيح للجميع فرصة المشاركة فيها دون النظر إلى الاعتبارات الجنسية أو الميول المحلية . ولكن ذلك لايعدو كونه مثلا متطرفا على مانحن حقيقون بأن نصادفه فى كل منعطف ، إذا ما عولنا على أن نفحص فى شىء من التدقيق مظاهر الديانة اليونانية المتأخرة طوال العصر الهيلينستى ؛ أى فيما بعد الإسكندر وقبل الفتح الرومانى لمصر . وكما رأينا وقعت أمور مثل هذه من قبل ، كما حدث عندما اعتبرت الإلهة أرتيميس والإلهة أورثيا إلهة واحدة ، وحين عد أبولو و « الشمس »

إلها واحدا ، غير أن العصور المتأخرة ذهبت بهذا الاتجاه مذهبا بالغ التطرف والشطط، بحيث إنها أدمجت آلهة لم يكن فى الأصل يوجد بينها وبين بعضها البعض أدنى وجه للشبه ، ثم زادت الطين بلة بإقحامها عناصر غريبة كل الغرابة عن العقيدة والفكر اليونانيين .

ولكن فلنعد إلى بلوتارخ ومن كانوا يحذون حذوه فى التفكير ؛ وقد كان هؤلاء كثرة فيما نظن ، فعلى الرغم من نظرة التفاؤل التى كان ينظر بها إلى الآلهة عامة، لم يسعه إلا أن يلحظ أن الأمر لا يقف فحسب عندحد وجود أساطير تصور البعض منهم وهو يسلك سلوكا لا يتفق ألبتة مع أية نظرية متقدمة من نظريات الدين، بل يتعدى ذلك إلى وجود طقوس ترمى إلى استرحام قوى معادية غير صديقة ، ودعوتها لا إلى فعل الخير على أى وجه بل إلى أن تكف أذاها فحسب . ووجد بلوتارخ وكثيرون غيره حلا لهذه المعضلة فى فكرة الجان daimones . وعلى حين أن هذه اللفظة لم تكن فى البداية فيما يبدو غير لفظة مرادفة وإن كانت أشد إبهاما من لفظة « الآلهة » ، فإنها قد جنحت منذ عهد هسيود فصاعدا إلى الدلالة على كائنات تفوق طبيعة لاترقى إلى مرتبة الآلهة ، ثم أخذت بحلول الوقت الذى بلغ فيه أفلاطون سن الكهولة أى نحو منتصف القرن الرابع ق . م تتخذ معنى محدداً تمام التحديد . ومن المحتمل بالنسبة لأفلاطون ومن المؤكد بالنسبة لأتباعه وخلفائه المباشرين أنهم قدصنفوا مذهباً جديداً فيما يتعلق بهذه الكائنات . فمسكنها الحقيقى ليس هو السماء التى هى ملك الآلهة , وليس هو الأرض التى هى وطن الإنسان والحيوانات الدنيا ، بل الهواء الجوى الذى يقع بين السماء والأرض . وتتفق ودارهم الواقعة فى مكان متوسط ، طبيعتهم الوسط . فهم أسمى مرتبة من البشر وأدنى مرتبة من الآلهة . فالإله كامل الخلق ، أما الجان daimon فليس كذلك بالضرورة ، فقد يكون صالحا أو طالحا ، وعلى أية حال فإنه يكاد يشبه الإنسان فى تأثره بالانفعالات والعواطف ، ومن ثم فهو عرضة للفعل الأخرق ، وللانحراف عن جادة الحق والعدل فى سبيل تحقيق غاية شخصية ، وقد يستبد به الغضب أو يقع فى عشق وهيام ، إلى آخر ذلك . والجان daimon فى رأى البعض

على الأقل ممن أسهموا فى صوغ هذه النظرية ، ليس خالدا أو هو ليس كذلك على الدوام ، كما أنه ليس روحانيا عديم الجسد . وفى اللحظة التى لقى فيها مثل هذا الاعتقاد الإيمان والتصديق ، وهو ما حدث فيما يبدو فى زمن مبكر ، فضلا عن أنه لم يقتصر على الدوائر الفلسفية وحدها ، كان لابد له أن ينمو ويكثر تشعبه بعد أن أدخلت عليه ألوان أخرى من التعقيد ، حتى انتقل إلى النظريات المتعلقة بالملائكة والشياطين لدى المفكرين المتأملين المسيحيين ، من أمثال ذلك الكاتب النحرير الذى استعار فى كتاباته اسم ديونيسيوس الأريوباجى وشخصيته ؛ وهو المواطن الأثينى الذى اعتنق الدين المسيحى على يد القديس بولس . ولكنه قبل أن يقع ذلك بزمن طويل ، أو قبل حلول المسيحية ، أعان هذا الاعتقاد المؤمنين الأتقياء على إيجاد مخرج لهم من كثير من المآزق . فإذا كانت ثمة أسطورة اكتسبت وضعا رسميا لقدم عهدها أو لارتباطها بطقوس لها هيبتها ، مستهجنة أدبيا ، فقد يكون فى الإمكان رغم ذلك تقبلها دون إقلاق لضمير المؤمن ، باللجوء فحسب إلى افتراض بسيط ، مؤداه أن هذه الأسطورة إنما تشير إلى الجن daimones وليس إلى الآلهة أنفسهم . والحق أن الفئة الأولى ، لخلقها المعيب ، قد يقاتل بعضها البعض أو تطارح امرأة آدمية الغرام ، أو يقضى عليها بالنفى خارج عشيرتها لجرائم ارتكبتها بل قد تموت ، ولا شىء من ذلك يليق بالجلال الإلهى . فذلك الذى يسمى أبولون الذى أهلك عشيرة « المردة الكيكلوبيز » لأنهم هم الذين صنعوا الصواعق التى أودت بحياة ابنة اسكاموس، لم يكن إلها حقيقيا بل كان جانا يحمل اسم الإله . وإذا ما انقطعت نبوءاته ، كما ظهرت بوادر ذلك فترة من الزمن ، ففى تعليل ذلك مايعود عليه بالفخر كل الفخر ، إذ يقال إنه بدأ يتسامى ويعلو إلى الحد الذى لم يعد فى إمكانه أن يظل على صلته بالعالم المادى . وإن وجدت هنالك طقوس لصرف الأرواح (وقد رأينا الصورة التى كانت عليها بعض هذه الطقوس ، فهى موجهة إلى طبقة دنيا من الجن ، ممن استسلموا كما قد يفعل البشر ، لحوافزهم الدنيئة ، ومن ثم فهم نزاعون إلى الإيذاء والضرر ، أو تجب رشوتهم لينصرفوا بعيدا . وأصبح من الميسور كذلك تفسير السحر . فالساحر لم يكن يؤثر على الآلهة بتعاويذه فى حقيقة الأمر ، بل لعله كان يؤتى من القوة ما يمكنه فحسب

من تسخير الجن لخدمته ، وحملهم على معاونته فى تحقيق أغراضه التى لم تكن على الدوام بالأغراض الكريمة . ولقيت مثل هذه النظرية السلسة الطيعة قبولا يكاد يكون عالميا مطبقا، وعندما قامت هناك المجادلات المستطيلة بين المناحفين عن العقيدة المسيحية والمناصرين للديانات القديمة ، استعان كل من الفريقين بها ، وقد نادى المسيحيون بأن الجن جميعا أشرار متعطشون إلى هلاك البشر وتضليلهم ، ومن هنا جاء معنى كلمة ديمون demon فى اللغات الأوروبية الحديثة ، وهى تعنى الشيطان .

ووسط هذا الحشد من الكائنات التى تفوق الطبيعة ، كبيرها وصغيرها . لم يكن يخلو الأمر من واحد من هؤلاء يصلح لأن يستعيذ به العامة البسطاء من الرجال والنساء ، وقرابة الوقت الذى أخذ يتداعى فيه الإيمان بقدرة المعبودات التقليدية على حماية مجتمعات برمتها ، ظهرت فى أفق الديانة القديمة عدة شخصيات جديدة ، أو أنها على أقل تقدير اتخذت ، فى حالة إذا ما كانت معروفة من قبل ، مظهرا جديدا واكتسبت قسطا أكبر من الأهمية . وكان من أشهرهؤلاء وأبرزهم الطبيب اسكليبيوس . ولم يكن يعرف من خبره الكثيرحتى وقت متأخرمن القرن الخامس ق.م . وهو عند هومر والد بطلين ثانويين . هما ماخايون وبوداليريوس اللذان حاربا فى صفوف جيش أجاممنون أمام أسوار طروادة ، وأصابا لنفسيهما شهرة لمهارتهما فى إبراء الجروح . وليس هناك من دليل على أنه كان يتمتع فى ذاته بصفة الألوهية ، أو أنه كان فى واقع الأمر يمتاز عن سائر النبلاء الهومريين العاديين ، فى شىء غير مهارته فى الطب والجراحة . أما عن كونه فى الأصل إنسيا ، وهو احتمال قريب ، أو أنه كان واحدا من الآلهة الصغرى ، فتلك نقطة يختلف حولها الرأى فى العصر الحديث ، ولكن الأسطورة المألوفة التى تروى عنه تصوره ابنا للإله أبولون من امرأة إنسية هى كورونيس . وكان على غرار أبيه الإله ، نطاسيا بالغ الحذق ، لقى حتفه من جراء شططه فى استغلال حذقه ، إذ عمد إلى إحياء الموتى ، وعند ذاك رماه زيوس ، حرصا منه فيما يبدو على سنة الكون ، التى تقضى بأن يعيش الآلهة إلى الأبد ، أما البشر فيموتون جميعا ، بصاعقة أودت به . وبطريقة يتعذر علينا تتبع مراحلها ، وقع عليه الاختيار من بين العديد من الأبطال الذين قاموا بمعجزات شفاء ليكون راعيا للأطباء .

كما ارتبط عقائديا بعدد من الشخصيات الغامضة مثل ياسو Iaso (الشفاء) وهو جيايا Hygieia (الصحة)، وقد وجد هؤلاء جميعا مكانهم فى القسم الذى يتلوه الأطباء . وإبان السنوات الأخيرة من القرن الخامس انتشرت عقيدته على نحو مفاجىء تماما إلى عدة أصقاع فى بلاد اليونان ، أجدرها بالذكر إبيداوروس الواقعة بالقرب من أرجوس . فقد أقيم على رقعة واسعة بها معبد ضخم يضم فيما يضم من مبان ، أماكن لينام فيها المرضى الذين يبغون سؤال أسكليبيوس عما يشير به فيما يتعلق بحالتهم الصحية . وكانت الطريقة المعهودة لدى الإله ، وإن لم تكن بالثابتة التى لا تتغير ، هى أن يرسل حلما يوصى فيه بعلاج معين أو يشفى المريض على الفور، رجلا كان أو امرأة . وسجلت فى ذلك الهيكل وسائل العلاج فى قوائم طويلة فوق ألواح حجرية ، وقاوم كثير من هذه النقوش عوامل البلى ، بحيث أمكن اكتشافها والتعقيب عليها فى العصر الحديث . وتمثل هذه النقوش الصعوبات ذاتها التى نجدها فى سجلات معابد الاستشفاء المسيحية أو غير المسيحية . فليس لدينا من أساس ثابت لافتراض الخديعة والغش من جانب كهنة المعبد ، كتنكر طبيب دنيوس فى زى أسكليبيوس أو أحد أفراد أسرته . وهناك من القصص مالا يمكن التسليم به على الإطلاق ، إذ ما افترضنا دائما أن تشخيص المرض كان صحيحا فقد قيل على سبيل المثال أن بعض الأشخاص ممن كانوا مكفوفى البصر تماما نالوا الشفاء ، الأمر الذى يشير ، لو صح أنه قد وقع بالفعل ، إلى حالة من الإحساس الهستيرى بالعمى . وهناك من حالات الشفاء ما يمكن تعليله فى سهولة ويسر على اعتبار أن مرضا غير بالغ الخطورة كان قد أتم دورته قرب الوقت الذى قام فيه المريض بالزيارة . وهناك سرد حقيقى واضح لأحلام خارقة . وهناك نقوش تثبت أن الزائر قد طلب إليه اتباع نظام معقول تماما فى التغذية . وباستبعاد كل ماسبق ، تبقى هناك تلك البقية المعهودة من الحالات التى تستعصى على التفسير ، والتى قد تتذلل صعوبة ، تعليلها شيئا ما كلما تقدمت معارفنا عن أثر العقل على البدن أو سيكلوجية الشفاء بالإيمان . بيد أنه بغض النظر عن ذلك كله ، فهناك من القرائن الناصعة البينة ما يقطع بأن أسكليبيوس أصبح إله المجتمع بطبقاته كافة ، يكرمه العبد والحر ، والغنى والفقير ، وأن شعائر

عبادته ظلت تقام فى حرص وغيرة داخل بلاد اليونان وخارجها (وقد لقى معبده فى روما إقبالا شعبيا كبيرا ، ويحتل موقعه فى الوقت الحاضر مستشفى عريق شهير) حتى انتصار المسيحية التى اضطرت فى واقع الأمر إلى الخروج بسحر مضاد يجتذب النفوس فى صورة معجزاتها فى الشفاء التى كانت تتم إما بطريقة الصلوات والدعوات التى يتلوها الأحياء وإما عند أضرحة القديسين والشهداء . أما اليوم فإن القديسين كوزماس وداميان اللذين يعرفان بين العامة باسم هاغيوى، أنارغيروى Haghioi Anarghyroi (القديسان اللذان لا يتقاضيان أجرا) يقومان إلى حد كبير مقام الإله القديم ، فى العالم اليونانى على أية حال . أما اليونانيون المقيمون خارج البلاد فقد قرنوا أسكليبيوس بآلهة الطب المحليين (مثل أمنحتب فى مصر) فى حين أنه فى بلاد اليونان ذاتها طغى اسمه العظيم على أسماء المعبودات المحلية التى اشتهرت بقدرتها على الشفاء ، مثال ذلك إله يكاد يكون مجهولا جهلا تاما . هو هيروس إياتروس Heros Iatros (الطبيب) وموطنه أتيكا .

وعلى الرغم من البون الفكرى الشاسع الذى كان يفصل بين رجل مثل بلوتارخ ومن يحج إلى معبد اسكليبيوس ويؤمن بكل معجزة سجلتها نقوش المعبد ، وينتظر عن ثقة أن يأتيه الإله فى شخصه فى أثناء الليل ، ويشفيه بعملية جراحية عجيبة أو بعقار سحرى المفعول ، فقد كان ثمة وجه للشبه شمل الجانب الأعظم من ديانة عصر ما بعد الإسكندر . وهو أنها أصبحت دون ريب ديانة شخصية أكثر منها رسمية . ولم تتوقف طقوس الدولة الرسمية بل إن كثيرا من المدن الحديثة النشأة مثل الإسكندرية وبرجاموس ، دأبت على إحياء أعياد آلهتها الرسمية فى رقة وروعة عظيمتين ، وشيدت لهم من المعابد والهياكل ما يعد مفخرة للفن والمعمار فى ذلك العصر . ولكن يبدو أنها خسرت من واقعيتها بقدر ما نالت من أبهة وزخرف . ومما لاشك فيه أن الانطباع الذى يوحى به الأدب السكندرى هو أن الآلهة الأوليمبية لم تكد تحمل للطبقات المثقفة من معنى أكثر مما تحمله لنا اليوم . حقا لقد ظلت تمثل نماذج خلابة تروع الناظرين ، ومراتع خصبة للنظم ومادة

طريقة المجادلات الفقهية ، إلا أنها كانت قد سلبت الحياة أو أنها كانت بسبيل فقدان هذه الحياة سريعا . وفى الأحوال عينها التى كانت تعالج فيها موضوعاتهم بأسلوب خيالى لم يكن المعول هو تأكيد الصفات الفائقة للطبيعة فيهم بل وجه الشبه بينهم وبين عامة البشر .

وكانت ترسم لهم فى كثير من الأحيان صورة ساخرة، والسخرية ليست بأفضل قرين للعبادة والإجلال . فمن الواضح الجلى أن كاليماخوس ، على سبيل المثال ، أقوى شعراء العصر البطلمى نفوذا وأطولهم باعا ، عندما كان ينظم قصيدة فى مدح زيوس ، كان اهتمامه الحقيقى بالإله ينصب على ناحيتين بعينهما ، رغم أن المشاعر التى يعرب عنها تتفق تماما وسنن الدين القويم . فالأساطير التى تدور حول زيوس تهيئ مادة طيبة لإظهار مبلغ علمه بمعارف الأولين ، وذلك فى شعر أنيق رقيق . كما أن الاعتراف لزيوس بسلطانه الأعلى ، باعتباره ملكا بين الآلهة ، يسوق عن طريق تناول علاقاته بالملوك الأرضيين إلى كثير من ألوان الملق البارع غير الصريح لبطليموس الثانى . وما من شك فى أن كاليماخوس كان يقوم بدوره اللائق فى طقوس الإسكندرية ، أما إن كان يؤمن به فى دخيلة نفسه ، أو إذا كان يؤمن بشىء أصلا ، فذلك مالا نعلمه . فإعرابه فى أبيات من الشعر عن إجلاله الآلهة وفزعه من الكفر والإلحاد ومقته لآراء يوهيميروس لاتحمل ثمة دلالة على الإطلاق ، فذلك ما كان يصح للشاعر أى شاعر أن يقوله ، ومن ثم فقد قاله . فالأساطير ، على سبيل المثال ، التى تصور الآلهة فى صورة القساة أو المنتقمين ، كانت تسرد دون تعقيب أو نقد ، كما قد يفعل ابن العصر الحديث عندما يروى قصة عن جنية شريرة ، فالأساطير إن هى إلا مادة أدبية ولا شىء أكثر من ذلك وأبولو هو مصدر إلهام الشاعر ، وهو جد راض عن براعته فى الأداء ، أى أنه كانت لكاليماخوس ، بعبارة أخرى ، مبادؤه الأدبية التى كان يفخر ويعتز بأنه لايحيد عنها . فالإله عنده أقرب إلى كونه تشخيصا لنقد سديد أو لرأى من وهب من القراء ذوقا سليما وحسا صادقا ، منه إلى ذلك المعبود الذى سار عند هومر جهما كالليل ليصيب بالوباء معسكر الآخايين ، أو الذى أوحى إلى كاهنته بأن

تواسى الصديق الذى أصاب من صاحبه مقتلا عن غير قصد وآل أمره أيضا إلى أن تدهورت ملامح رجولته التى كانت تنم عن فتنة ووسامة ، بحيث أصبح فى هيئته أقرب إلى المتأنق ذى الشعر العطر منه إلى حامى حمى الرعاة فى القديم .

ولكنه على حين كان شعراء الكلية الملكية للآداب بالإسكندرية (لأن ذلك كان حقيقة هو وضع « الموسيون » Museion أو معبد الآلهات التسع الإغريقيات ، الموساى Musai) يكتبون بهذا الأسلوب أو ينقبون عن الذخائر المكتنزة فى المكتبة العظيمة ، بحثا عن الحقائق الغريبة المتعلقة بالعادات والطقوس المحلية ليضمنوها بحوثا علمية أو يتحذلقون بالإلماع إليها فى كتاباتهم الأدبية ، فقد كانت ثمة حياة دينية نشطة تجرى من حولهم ، متخذة أنماطا عدة ، بعضها رفيع المستوى وبعضها منحطة ، ولكنها كانت متأثرة فى الغالب إما بالنظريات الدينية التى ولدها الفلاسفة اليونانيون وإما بمعتقدات وعادات مجتلبة من الشرق الأدنى ، وإما بمزيج من هذا وذاك . كما أصبح هذا شائعا ومميزا أيضا للفترة التى تبدأ بجيل الإسكندر فصاعدا . وستكون من مهمة الفصل القادم رسم معالم بعض العقائد التى نجمت عن هذه الاتجاهات ، ولكنه يحسن بنا قبل أن نشرع فى هذا الفصل أن نتخلص من اعتقاد واحد كان أقرب إلى نكران للإيمان وكان عظيم الذيوع .

كان هذا هو الميل الكبير الذى لقيته عبارة البخت أو الحظ « توخى » Tyche . آمن الإنسان ، فى كل زمان ومكان بالحظ ، سعدا كان أو نحسا ولكن هذا الإيمان اتخذ فى العصر الهيلنستى مظهرا محددا ، كما اتخذت الإلهة « توخى » التى كانت فى الفترة الكلاسيكية بمثابة تشخيص أدبى فى الغالب ، قالبا فنيا ، ووجدت العباد المصلين فى جميع أرجاء العالم اليونانى . ويصور يوريبيديس ، تالثيبيوس ، رسول أجاممنون ، متسائلا وهو يتأمل صروف الدهر ، عما إذا كان زيوس هو حقيقة الذى يحكم العالم ، أو أن هذا العالم واقع فى قبضة الحظ . وفى العصور المتأخرة ، كانت شعائر العبادة تقام بالفعل للإلهة « توخى » جنبا إلى

جنب مع الإله زيوس ، فضلا عن ارتباطها أيضا بكثير من المعبودات الأخرى . وكان من بين المشاهد المألوفة تماثيل الإلهة «توخى» التى تصورها واقفة فى بعض الأحيان فوق كرة أو حجر متدحرج ، للدلالة على تقلبها ، وهى تمسك فى الغالب بسكان سفينة ، ولعل فى ذلك تذكرة بفترة أقدم عهدا كانت فيها إلهة للبحر هينة الشأن وكانت نقود عدد لاحصر له من المدن تسك وعليها صورة الإلهة «توخى» الخاصة بكل مجتمع ، ومن ثم فإنه ليس من الميسور على الدوام القول بما إذا كان المعنى هو الإلهة توخى أو مجرد تشخيص للمدينة ذاتها ، وقد كانت هذه تحمل فى العادة اسما مؤنثا . وكان من أكثر الأبواب التى يطرقها رجال الأدب المناقشات الفلسفية وما دونها فى المستوى العلمى من مصنفات تتعلق بمسألة ماهية الحظ على وجه التحديد ، ومدى تأثيره على أحوال البشر . وكان السبب فى ذلك كله واضحا إلى حد بعيد . فإنما نعنى بالحظ شيئاً نحن عاجزون عن التحكم فى أسبابه أو التمكن به أو إدراكه . ولقد شهد العصر الهلينستى كثيرا من الأحداث المباغتة ، ذات الآثار البعيدة الهوجاء . فثمة دول عريقة تدهورت واعتراها الانحلال والضعف وأخرى حديثة نمت سريعا لكى تسقط فى الغالب مرة أخرى وتدول دولتها فى سرعة لاتقل عن سرعتها الأولى . فالفرد اليونانى الذى كان ، بوجه عام ، يملك فى ظل نظام المدينة الدولة البائد ، زمام أمره ويتحكم فى مصيره بقدر محدود على الأقل ، ويلم كذلك إلماما طيبا لا غبار عليه بالعوامل التى من شأنها أن تعرقل أو تنهض برخاء مدينته ورفاهيتها ، قد أصبح آنذاك ضحيـــة حركات سياسية واقتصادية لا يدرك كنهها ولا يملك أدنى تأثير عليها . ولابد أنه كانت تتولاه الحيرة حينا بعد حين ، حول ما إذا كان الشهر القادم أو السنة التالية سيحلان به وهو لايزال مواطنا حرا من حيث الاسم ، وإذا أصبح الحال كذلك ، فترى أى اسم جديد سيحق عليه أن ينادى به «وليا للنعم» أو «منقذا» لمدينته أو للبشرية جمعاء . وإذا ما أحدقت به حرب من الحروب العديدة التى عرفت عن ذلك العصر فإنه لم يكن يقاتل أو يشهد غيره يقاتلون من أجل قضية فى وسعه أن يدركها ويستجيب لها ، بل من جراء شجار نشب بين عاهلين لم يقع عليهما بصره قط .

وفى مثل هذه الظروف لم يكن ثمة مايدعو إلى كبير دهشة أن يقلع العدد العديد من الناس عن محاولة الوقوف على سبب منطقى للأحداث التى تؤثر فى حياتهم العامة والخاصة ، وأن يرتدوا إلى الإيمان بقوة عمياء وقلب وأمل واهنين فى أن يتمكنوا من استدرار عطف هذه القوة عليهم .

ولننتقل الآن إلى محاولات أقل سلبية من هذه لمعالجة مشاكلات الحياة الإنسانية والعالم الذى يعيش فيه البشر .

الفصل السادس

آلهة الحكماء

قام هناك فى بلاد اليونان منذ أقدم العصور ، ميل إلى التوحيد . فالإله زيوس الذى أصبح عند هومر وهسيود أقوى الآلهة بالفعل ، بلغ بحلول عهد أيسخيلوس درجة من السمو والرفعة ، سواء من حيث القوة أو الصلاح ، يحق معها القول دون اجتراء بأن المعبودات الأخرى لم تعد شيئا يختلف عن الملائكة التى هى رسل له . ولنا أن نغفل فى هذا المقام ، ما يظهر فيما يبدو مناقضا لهذا القول ، فى تلك المسرحية التى تثير أشد الحيرة والدهشة ، وهى مسرحية « بروميثيوس رهين الأغلال » . أما عن الفلسفات العظمى ، فإن مذهبى أفلاطون وأرسطو ، على حد سواء ، يخلصان إلى معبود واحد علوى لامادى مستشرف ، فى حين أن إله الرواقيين المستدنى والمادى هو كذلك إله مفرد ، حيث إنه الوحيد الذى كتبت له الحياة ، إثر تدمير الكون دوريا بالنار التى هى العنصر المكون لهذا الإله ذاته . أما عن تلك الفلسفات التى جنحت إما إلى إنكار وجود الآلهة ، وإما إنكار اهتمامهم بشئون العالم ، فلا تعنينا ، إذ أنها لا تؤثر فى تطور الدين بل يظهر أثرها فحسب فى تطور موقف لا دينى . غير أن توحيد اليونانيين كان من نوع آخر يختلف عن ذلك الذى أوجدته الشعوب السامية . فتوحيدهم لم يكن مطلقا على النحو الذى تعرب عنه العبارة الإسلامية المعروفة :

« لا إله إلا الله » . فقد كان اليونانيون على مر العصور ، على استعداد لإجازة احتمال وجود كائنات إلهية أخرى إلى جانب الإله الواحد العلوى ، ولأن يطلقوا عليها الاسم ذاته الذى يدعونه به . ويقدم لنا أرسطو مثلا جديراً بالاهتمام على ذلك . فبعد أن سرد فى كتابه « الميتا فيزيقا » وصفا شهيرا بارعا لطبيعة الله ، باعتباره

كائناً فكريا أبدى النشاط ، يتخذ من ذاته موضوعاً لنشاطه يمضى فيناقش ، على أساس من النظريات الفلكية المعاصرة كم من الكائنات الإلهية يمكن أن نعتقد فى وجودها ، رغم أنه يؤكد أن المعبود المطلق واحد . وبالنظر إلى أن أفكار الأذهان السامية ونظرياتها كانت تؤثر فى الأذهان الأدنى مستوى منها ، فى بلاد اليونان كما فى سائر أقطار العالم ، فإن المذاهب التى ابتدعها أمثال هؤلاء الفلاسفة من الرعيل الأول قد انحدرت إلى من هم أدنى دركا فى التفكير ، فى صور شعبية مبسطة . وكانت أبعد المدارس أثرا على الإطلاق هى مدرسة أفلاطون ، ولا بد أن نفرا كبيراً ممن كانت دياناتهم الخاصة تقوم على أساس من نظرياته ، لم يقرءوا سوى النزر اليسير أوهم لم يطالعوا شيئا مما كتبه ، ذلك لأنه لا يسهل إلا على ذهن فطن متيقظ بدرجة لا بأس بها ، أن يتابع محاوراته فى أية نقطة منها ، بينما هو يناقش فى بعض الأحيان ، كما هو حال المفكرين ذوى المراتب العليا ، موضوعات أدق وأعوص من أن يدركها سوى من أوتى دربة ومران على التفكير الفلسفى . غير أن ثمة مختصرات لنظرياته الأساسية ، وغيرها من المؤلفات الاشتقاقية ، كانت رائجة شائعة ، وكان بوسع الكثيرين ، وهذه المختصرات بين أيديهم ، أن يدركوا او يتوهموا أنهم مدركون لجانب من النتائج التى توصل إليها .

وهكذا الحال فى عصرنا هذا ، فإن أثر المؤلفات ذات المستوى الخاص ، فى الاقتصاد السياسى مثلا ، يظهر لدى الكثيرين ممن لم يعلموا بها إلا من خلال راوية ثان أو ثالث . وكان من شأن دراسة أفلاطون على هذا النحو ، دون الرجوع إلى أصل ما قال وفى إغفال بين لعنصرى النقد والتمحيص فى الغالب ، أن أفضت أيضا إلى تحريف ما علم وإلى الخلط بين تعاليمه هذه والأفكار المستقاة من فلاسفة آخرين ، بل أفكار تختص بمدارس مغايرة تماما .

وثمة خليطان قد ظهرا إلى الوجود فى العقود الأخيرة من عصر ماقبل المسيحية ، وفيما تلاها . فقد جعل بوسيدونيوس الذى عاش حوالى ١٣٥ — ٦٠ ق . م أو بعد ذلك بقليل ، من الرواقية ، كما فهمها ، فلسفة مختلطة تحوى عناصر أفلاطونية قوية ، وبذلك أمد مدرسته التى كانت تنادى فى الأصل بأن الروح البشرية مادية

فانية ، بنظرية تقول بالأخرويات وتبشر الصالحين بنعيم الخلود . وفى أثناء حياته أيضا ، قامت الفيثاغورية أو ما كان يعتبر مذهبا فيثاغوريا ، بإحياء وإخراج أدب جديد زعم أنه من تأليف أتباع فيثاغوراس الأوائل. واستعار هذا الأدب الكثير أيضا من أفلاطون الذى تأثر هو ذاته بفيثاغوريين حقيقيين من أبناء عصره ، وانتهى هذا الأدب بنظرية اختلطت فيها الأفكار الميتافيزيقية الرفيعة بضروب من الشعوذة الصوفية الغريبة التى تستعين بالأرقام والأعداد ، وبقسط لا بأس به من السحر والخرافة السافرين . أما الأفلاطونية ذاتها ، فقد امتزجت ، مع تقدم العصر المسيحى بدقائق جديدة وتحولت بذلك إلى ما يعرف بالأفلاطونية الحديثة ، وهى مدرسة أنجبت فيلسوفا ميتافيزيقيا من الدرجة الأولى هو أفلوطين ، وعدة مفكرين أقل مرتبة جديرين بالتنويه . واتفقت هذه المذاهب جميعها حول نقطة رئيسية واحدة على أقل تقدير . ينقسم العالم إلى مادى أو ظاهرى يمكننا أن ندركه بحواسنا الجسدية ، وإلى فكرى لا يمكن لغير الذهن أن يفقه بالنظر إلى أنه لا يستبين إطلاقا لأية حاسة من الحواس . وهو لا مادى عند الأفلاطونية والمدارس الحليفة، أما فى الرواقية القويمة فليس كذلك ، بل يتألف من مادة لطيفة دقيقة للغاية ، على حين أن العناصر الأشد خشونة تؤلف الشطر الأعظم من العالم الذى نعيش فيه. والعالم الفكرى وحده هو العالم الحقيقى الباق ، أما العالم المادى فيخضع لتغير مستمر . وكلما غلظت المادة انتقص ذلك من طواعيتها للقوانين الإلهية التى تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم فإن الظواهر التى تحدث فوق سطح الأرض ذاتها ، رهن بالتقلبات فى حين أن حركات الأجرام السماوية محكمة لا يعتريها قط تغيير أو تبديل . ذلك لأن العناصر الأشد ثقلا ، وهى الأرض والماء وطبقات الهواء المشوب غير النقى ، تتجه إلى مركز الكون فى حين أن العناصر الأخف والأشد نقاوة وبخاصة النار تتجه إلى أعلى . وينظر عامة إلى قرص القمر على أنه الحد الفاصل بين المنطقتين فى العالم الطبيعى ؛ أما مسكن الآلهة الحقيقيين ، بخلاف الجان ، فيقع فوق ذلك كله ، وتعيش القوى الإلهية النهائية خارج النظام الشمسى جميعه ، بل فيما وراء الأجرام السماوية الثابتة التى لا تتحرك إلا مع الدوران المتصل للسماوات

العلا . والكون كله جسم ضخم يجعل أرضنا تبدو فى حجم لا يزيد إلا قليلا على النقطة التى تمثل مركز دائرة هندسية .

واتفقت على نحو أو آخر مع هذا النظام الفلكى الذى يقضى بأن المادة كلها تؤلف كرة واحدة عظيمة ، تقف الأرض فى المركز منها ويقوم خط وهمى مار بمركز الأرض مقام محورها ، نظم كونية أشد من هذه فجاجة وبدائية ، أخذت طريقها إلى بلاد اليونان قادمة من الشرق ، وذلك على الرغم من أن بعض هذه النظم على الأقل ، وبخاصة تلك التى تختص بالشعوب التى تتكلم السامية ، كانت تتصور الكون فى صورة بنيان كثير الطوابق، أسفله « البحر » بمعنى العميق المتسع، أو « المياه الكامنة فى جوف الأرض » وأعلاه طبقات السماوات المتعاقبة . ومع ذلك فلم يكن يتطلب الأمر للمواءمة بين هذه النظم والأفكار اليونانية الأقرب إلى الناحية العلمية سوى النظر إلى هذه الأسطح على أنها كرات جوفاء .

وفى بلاد ما بين النهرين ، ويعود بعض الفضل فى ذلك دون شك إلى صفاء الجو وطول الفصول التى ينعدم فيها هطول المطر ، كانت تجرى هناك منذ عصور طويلة سلسلة متصلة من الأرصاد الفلكية . ولم يكن الدافع إليها هو الحماس والغيرة المنزهة عن الغرض لعلم الطبيعة ، بل الاعتقاد بأن الأجرام السماوية إنما هى كائنات إلهية وإن لتحركاتها الظاهرة دلالة ومغزى بالنسبة للبشر . ونشأ علم دينى فلكى دقيق محكم عرفت فيه الكواكب بأسماء وأشخاص آلهة بابل التقليديين ، فعشتروت مثلا أصبحت الكوكب فينوس (الزهرة) الذى لم يزل فى لغة العصر الحديث يسمى باسم تلك الإلهة الإيطالية التى طوبق بينها وبين عشتروت . وقد لوحظ ــ ذلك لأن دقة هؤلاء العراقيين كانت جديرة بكل ثناء ، بالنظر إلى أنهم كانوا يفتقرون افتقاراً تاماً إلى الأدوات العلمية ــ أن جميع الحركات الظاهرة للشمس والقمر والكواكب إنما تجرى داخل ذلك الجزء من السماوات العلا الذى ندعوه بالإنجليزية بلفظة مقتبسة عن أحد الأسماء اليونانية وهى « زودياك » Zodiac أى منطقة البروج (المنطقة المصورة zodiakos kyklos) بمعنى أن هذه الحركات تتفق على الدوام ، من وجهة نظر الراصد على الأرض ، مع

جزء معين من هذه الصور النجومية التى تشكل منطقة البروج . وبحلول الوقت الذى بلغ فيه هذا النظام الفلكى والعقائد المرتبطة به بلاد اليونان ، أى قرابة الجيل اللاحق على الإسكندر الأكبر ، باتت منطقة البروج تقسم عادة إلى اثنتى عشرة صورة نجومية أو برجا تتفق والاثنى عشر شهرا من السنة الشمسية . واكتشفت مخيلة متوقدة بارعة التصور أن هناك وجها للشبه بين كل من هذه المجموعات وبين شكل من الأشكال المعروفة . وعلى ذلك فقد ساد الاعتقاد بأن المجموعة الأولى التى تمثل على وجه التقريب واحداً من اثنى عشر من الكل تصور حملا والثانية ثوراً والثالثة هيئتين آدميتين تقفان جنباً إلى جنب وهلم جرا ، وعند ذلك وعن طريق سلسلة من الاستدلالات التمثيلية الخيالية ، قرن بين كل من هذه البروج وبين شأن من الشئون التى تحظى باهتمام بنى البشر ، فارتبط على سبيل المثال البرج الثانى عشر الذى كان يعتقد أنه كان يمثل سمكتين ، بمهنة الصيد وارتبط الثور بالزراعة وهلم جرا . ونسبت إلى الكواكب أيضاً ، بما فى ذلك شمس والقمر (فلم يكن من المعروف بطبيعة الحال أن الأرض ذاتها كوكب — كما لم يكن قد اكتشف بعد نبتون وأورانوس) ارتباطات مماثلة . فكان لمارس ، على سبيل المثال ، كما ندعوه نحن — أما اليونانى فكان يسميه « النجم آريس » ، إذا لم يشأ أن يستخدم اسما أقدم عهداً له وهو پوروئيس Pyroeis (النارى) تأثير على الحرب وعلى كل ما يتصل بالحرب ، بما فى ذلك القتل والفتك . ومن الواضح إذن أن هذه الكواكب السيارة لابد أن تكون منتظمة فى أحد الأبراج ساعة مولد أى إنسان ، وأن السائل الأثيرى الذى ترسله بفعل القوة المركزية الجاذبة ، صوب الأرض فى أثناء دورانها حولها ، يؤثر فى الطفل الوليد ساعة مولده وفى مستقبل أيامه . وبمضى الزمن ، وبالنظر أيضاً دون شك إلى أن التجربة قد أثبتت بطلان كثير من التنبؤات القديمة العهد والبسيطة المبنى ، نشأ هناك نظام للتنجيم بالغ التعقيد ، يدخل فى اعتباره كثيرا من الظواهر الفلكية مجتمعة ، ويطلق عليه على العموم اسم mathesis أى « العلم » . ونسميه نحن علم التنجيم ، وهو ما كان أقرب فى معناه فى العصر القديم إلى ما ندعوه بعلم الفلك .

وحوالى الوقت الذى بدأ فيه هذا الأمر يجتذب بصفة جدية أنظار اليونانيين الذين كانوا على استعداد كاف للإيمان بألوهية الكواكب ، رغم أنهم ، كما رأينا سابقا ، لم يعبدوها ، كان المذهب الرواقى القائل بالقدر أو الجبر يحرز تقدما ملموسا . ويقضى هذا المذهب بأن كل ما يلحق بالكون وسكانه مقدر سلفاً بحذافيره . وجل ما يبقى فى مكنتنا هو موقفنا تجاه الأحداث ، فقد نسلم بها عن رضى وطواعية عالمين أننا إذ نفعل ذلك نكون على وفاق مع التدبير الإلهى ، أو نحاول عن جهل وحمق أن نرد ما هو مقدر محتوم . وفى نظر الرواقى الصالح ، كان هذا المذهب مبعث راحة وطمأنينة بالغتين ، فما القدر إلا مشيئة إله كلى الحكمة كلى الجود . أما بالنسبة للكثيرين ، فلا بد أن هذا المذهب بدا مفزعا رهيبا ، ذلك لأن النظرية الرواقية التى تقول بأن ما من شىء هناك يعد خيراً أو شراً إلا ما كان كذلك من الوجهة الأدبية ، وأن أموراً كالغنى والفقر والحرية والعبودية والمرض والصحة لا فارق بينها فى واقع الأمر ، كانت تعاليم تفوق إلى حد بعيد المستوى الذى يمكن أن يتقبله الرجل العادى . والحق أن معظم الرواقيين ذهبوا إلى حد إجازتهم القول بأن الصحة ، على سبيل المثال ، «مفضلة» على المرض بمعنى أنها تختار فى حالة إذا ما كان الأمر غير ماس بقضية من القضايا الخلقية ، وهكذا دواليك . ثم كان لعلم التنجيم أن دعم هذه التعاليم المنادية بالقضاء والقدر . فإن الكلدانيين ، كما كان يعرف المنجمون عامة ، باعتبار المنطقة التى نشأ فيها علمهم الكاذب فى الأصل ، وبغض النظر عن الجنسيات التى ينتمون إليها ، قد قدموا الدليل على أنه إذا ما كان الإنسان فقيراً أو ضعيف البدن أو مختل العقل ، أو غير موفق فى العمل أو فى الحب ، أو كان مبتلى على غير هذه الوجوه ، فمرد ذلك إلى وضع النجوم لحظة مولده ، أو فى اللحظة الأولى عينها التى بدأ فيها مسعاه الذى باء بالفشل . وغاية ما فى مقدوره هو أن يتحاشى بعض النتائج المترتبة على موقفه بأن يختار لزفافه مثلا لحظة تكون فيها الأجرام السماوية مرسلة تأثيرات طيبة مواتية إلى الأرض . وبذلك أضيفت عناصر جديدة إلى تلك القائمة التى استطالت بالفعل ، والتى تسجل المواقيت المناسبة وغير المناسبة للقيام بكل نوع من الأعمال ، ولا بد أنه كان هناك كثيرون ممن

لم يكونوا يقدمون ، كالمرأة المنجمة الوارد ذكرها عند جوفينال ، على مجرد دلك عين موجعة بدهان ، دون النظر في مخطط ميلادهم ، أو رسم بياني يوضح صورة السماوات العلا وقت مولدهم ، أو أن يقطعوا رحلة لمسافة ميل دون الرجوع إلى تقويم فلكي .

وهكذا فإنه إن قدر للفرد العادي أن يأخذ هذه المذاهب بشيء من الجد ، فسيجد نفسه ضحية مهيضة لاحول لها ولا طول للقوى الفائقة للطبيعة ، علاوة على هوان شأنه أيضا من الناحية السياسية . ولا ريب في أن ذلك بدا في نظر الكثيرين عبودية لا تطاق . ولقد كان ثمة ميل على الدوام بين اليونانيين في بعض حالاتهم النفسية إلى انتقاد الحياة ، فيعلن ثيوجنيس في القرن السادس ، ويرجع صداه سوفوكليس في القرن الخامس ، أن الأفضل للإنسان ألا يولد على الإطلاق ، أما إن ولد فالأفضل أن يموت في أقرب وقت ممكن . ومثل هذا الضرب من الشعور الذي عرف « با كتئاب اليونانيين » وطال الحديث حوله ، يبرز واضحا في الأدب السكندري ، كما توحي كثير من أقوال هذا العصر أيضا ، بأن إحاطة بل ترحيب بالفكرة القائلة بأن هذه الحياة هي خاتمة كل شيء ، فمن بين النقوش المألوفة على شواهد القبور هذا النقش مثلا : « لم أكن موجودا وقد جئت إلى الحياة ولست موجودا ولا أبالي » . فلا عجب إذن أن سارعت كثرة من الناس إلى التشبث في حماس بأي مخرج لها من حالة العبودية التي أدخلت في روعها .

•

وكانت الحلول الرئيسية ، بغض النظر عن مواقف الإنكار والإلحاد أو السخرية واللامبالاة ، تقوم على أساس من تلك التفرقة التي سبقت الإشارة إليها بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من الكون . فقد كان القدر ، في الاعتقاد الشعبي ، يعمل بوساطة الكواكب أو بين مجالاتها على أية حال و بين الأرض . وعلى ذلك فإن أمكن الاتصال بالقوى التي تعلو الكواكب ، فقد يكون بالوسع رغم ذلك درء القدر . فالآلهة إنما تعيش خارج نطاق التأثيرات الصادرة عن الكواكب . فإذا تيسر للمرء أن يضمهم إلى صفه بأية وسيلة من الوسائل ، فمعنى ذلك ، كما كان في واقع الأمر ، هو الالتفاف حول مؤخرة القدر ومواجهة

أحكامه التى لا رحمة فيها ولا هوادة بسلاح أشد منها قوة وبأسا .

ويعد السحر من أقدم المحاولات التى بذلها الإنسان فى سبيل التغلب على مشكلات البيئة المحيطة به . ففى كل مكان من العالم ، ساد الاعتقاد فى آونة ما ، بأن القيام بطقوس معينة ، وتلاوة كلمات بعينها يجعلان فى وسع الخادم التحكم فى جانب معين من الطبيعة أو فى أفكار أقرانه وسلوكهم . والغالب أن هذا الأمر كان سهلا هينا بدرجة كبيرة فى بلاد اليونان بالقياس إلى العادات التى لم تزل باقية لا تؤذن برحيل بين الشعوب الأوروبية ، إما لإيمان بها لا يبلغ مبلغ اليقين وإما بحكم العادة والتقليد المجردين ، مثل لمس الخشب أو تشميت العاطس أو تجنب مائدة طعام تضم ثلاثة عشر ضيفا ، أو الشعور المبهم بالقلق إذا ما كسرت مرآة ، وما شابه ذلك . وعلى أية حال ، فقد كانت هذه العادات تحظى فى بلاد اليونان القديمة وبين العامة البسطاء على أقل تقدير ، بقسط أكبر من الرواج . كما كانت أكثر حيوية ؛ فلم تكن تعيش كحالها اليوم فيما هو أقرب إلى حياة الكائنات المتحجرة .

فبدلا من القلة القليلة التى تحمل اليوم « المسخوطات » أو جالبات السعد ، إما بصفة دائمة . وإما عند الشروع فى عمل ينطوى على خطر ، كان هناك كثرة كثيرة وبخاصة من النسوة ، ممن يحملن عادة الأحجبة والتمائم . وفى وقتنا هذا ، يتحاشى بعض الناس الشروع يوم الجمعة فى أى عمل ذى بال ، لأنهم يظنون أنه يوم نحس ، أما فى الزمن القديم فقد كان هناك الألوف المؤلفة ممن يؤمنون بأيام السعد وأيام النحس ، ويسجلونها فى التقاويم الرسمية . والأحجبة ليست بالأشياء غير المعروفة فى الوقت الحاضر ، بيد أنها كانت تمثل آنذاك جزءا من العلاج الطبى المعتاد ، إلا فيما يتعلق بأصحاب العقول الجبارة من أبناء هذه المهنة . وعلى ذلك فقد كان هناك الكثيرون ممن هم على استعداد لإصاخة الآذان إلى مزاعم السحرة الذين يمارسون طقوسا معقدة .

وبحسب هؤلاء الأطباء ، الذين كان من بينهم ، وهو ما ينبغى علينا افتراضه ، من كانوا غاية فى طيب السريرة وصفاء النية وسلامة القلب ، وعلى الرغم من أنه كان لهذا العصر ، شأنه شأن سائر العصور ، نصيبه من الدجالين والمشعوذين ، فإن ثمة

« قوى » أو « نشاطات » معينة (ويقابلهما فى اليونانية dynameis, energeîai)
كانت تقوم فى الطبيعة ، وتفهم على وجه يذكرنا ، من جانب ، بالمظان التى
يستخدم فيها العلماء المحدثون الألفاظ المشابهة ، ويذكرنا من جانب آخر بالمفهوم
البدائى القديم « للمانا » mana الذى أشرنا إليه فى مطلع هذا الكتاب .
وهذه القوى يمكن توجيهها على النحو المنشود ، إذا ما عرف المرء الأصول الفنية
الصحيحة . ويتحقق ذلك باتباع قانون طبيعى مزعوم (ذلك لأن الجانب الأكبر
من هذا السحر كان يحمل طابعا علميا كاذبا) هو قانون « الانعطاف » وعدم
« الانعطاف » . ولفظة « الانعطاف » sympathy ليست من بين مفردات
السحرة البحت ، بل إننا نقف عليها فى كتابات العلماء القدامى . وهكذا يتحدث
ثيوفراستوس (القرن الثالث ق.م) عن نضج بعض النباتات قائلا إن ذلك راجع
إلى أنها « فى انعطاف » مع أحوال جوية خاصة فى مواسم معينة ، رغم أنه يذكر
فى موضع آخر أن هذه النباتات « تتبع » الموسم و « تتساوى » معه ، كما أن هذه
اللفظة شائعة تماما فى الطب أيضاً ، فيتحدث جالينوس ، على سبيل المثال ، عن
الأثر الناتج فى عضو من أعضاء الجسم عن اعتلال عضو آخر ، قائلا إن ذلك
يحدث « بالانعطاف » . بيد أن السحرة ، والفلاسفة الذين أوجدوا المبررات
النظرية لما يمارسه هؤلاء ، ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فربطوا أشتات الكون كله
بسلسلة من « الانعطافات » فالرواقيون ، الذين كانوا يميلون فى الغالب إلى السحر ،
عملا بمبدئهم العام الذى يقضى بأن كل ما كان محطا للإيمان على نطاق واسع ،
لا بد أن يكون صادقا على وجه أو آخر ، طبقوا المصطلحات الطبية على الكون ،
فصوروه بصورة كائن حى هائل الحجم ، كما دعا الأفلاطونيون المحدثون إلى
مذهب مشابه تماما .

والشواهد التى يبدو منها أنها تدعم هذا المبحث لم تكن بالنادرة ، ومن
أشيعها الميل المزعوم من جانب حيوان ونبات معين إلى النمو أو الضمور تبعا
لانذياح القمر أو محاقه ، والحقيقة الماثلة فى أن المد والجزر مرجعهما موقع القمر
وبالنظر إلى أن قوانين الجاذبية ، كانت آنذاك غير معروفة تماما ، فلم يكن للظاهرة

الأخيرة أى تفسير آلى بسيط ، ومن ثم فقد كان هناك مايغرى أشد الإغراء بعزيها إلى وجود « انعطاف » بين ما كان يعرف على الدوام بأنه كوكب مائى ، وبين عنصر الماء على الأرض . بيد أن عددا لا حصر له من « الانعطافات » قد استقرئ من مقدمات تقل ولو فى ظاهرها إلحاما عن هذه إلى حد بعيد . والحقيقة أننا ، فى كثير من الحالات يرتج علينا تماما فى معرفة السبب الذى من أجله نشأ الاعتقاد بوجود « انعطاف » أو « عدم انعطاف » بين شيئين مختلفين متباينين . فما الذى حدا إلى الاعتقاد على أى وجه من الوجوه ، بأن الفيل مثلا ، فى بعض أحواله ، يهدأ ويسكن لرؤية الكبش ، وأن الثور مهما بلغ من الوحشية والجموح يأنس ويسلس إذا ما أوثق بشجرة جميز ، وأن الأسد الذى يطأ أوراق شجر البلوط القرمزى ، يبطل حسه ويتخدر ، وأن الضبع يحدث الأثر ذاته فى الإنسان إذا ماطلع عليه من جانبه الأيمن ولكنه لايحدث ذات الأثر إذا ماتقدم منه من الجانب الأيسر ؟ وقد يفضى سوء الملاحظة إلى الفكرة القائلة بأن فى الإمكان شل حركة الحية إذا ماضربت بعصا ضربة واحدة ، ولكنها تعود إلى الحياة إذا ماضربت مرات عدة ، ولكننى أحسب أن شيئا قليلا من التجربة كان كفيلا بأن يعلم الناس أنه لايخفف من ألم لدغة العقرب أن يهمس المرء بعبارة «لدغتنى عقرب» فى أذن جحش . وعلى الرغم من ذلك ، فقد تخلف هذا الاعتقاد كما تخلف غيره من المعتقدات التى لاتقل عنه وهما وزيفا ، ومنذ سنة ٢٠٠ ق . م تقريبا ، أصبح من الشائع بدرجة تدعو إلى الغرابة لدى المدلين بدلائهم فى العلم أن يأخذوا هذه الأفكار على علاتها ويتلمسوا لها الأسباب ، بدلا من أن يدحضوها بالتجربة والاختبار . ومن بين العديد من النواحى التى طبق عليها قانون الانعطاف ، جنى الأعشاب وقطفها . وقد كانت هذه تؤلف على الدوام جانبا كبيرا من المادة الطبية materia medica المعروفة فى الزمن القديم ، بالنظر إلى أن لكثير منها فى واقع الأمر تأثيراً على جسم الإنسان فضلا عن توهم هذا التأثير فى كثير منها أيضا . وقد وثقت العلاقة بين هذه الأعشاب والأجرام السماوية التى يمكن لتأثيرها ، وفقا لنظرية الانعطافات العامة أيضاً ، أن ينتقل إلى هذه الأعشاب إذا ما اتخذت الاحتياطات الواجبة . وقد تخلف لدنيا

عدد ليس بقليل من الإرشادات ذات الطابع الفلكى التى تشير على الطبيب بقطف هذا النبات عندما تكون الشمس فى برج السنبلة ، وذاك النبات فى أوان الزهرة ، وهلم جرا . أما الحاصد ذاته فينبغى له أن يراعى قواعد عدة تتعلق بشخصه مثل الرقاد إلى جوار العشب الذى يزمع قطفه فى الصباح وارتداء الملابس الفضفاضة دون منطقة أو أى جزء زام حاصر ، والتأبى عن الشهوة الجنسية وغير ذلك من المحرمات التى ترمى جميعها إلى الحيلولة دون حمله لتأثير معاد للنبات الذى ينوى استخدامه. وبما يتفق والمنطق ، ذلك لأن العلم الكاذب حقيق بأن يبدو منطقيا — إذا ما سلم فحسب بتلك الحقائق الغريبة المزعومة — أن تكون للكواكب علاقاتها المماثلة . بمملكتى الحيوان والمعادن. ومن ثم فقد كان بالوسع الحصول على سلسلة من التأثيرات، شاملة للكوكب والحيوان والعشب والحجر تعمل جميعها فى اتجاه واحد، وتخضع كلها لتوجيه عامل عليم بفنه. وكان من المنتظر بطبيعة الحال أن يكون للجان الكائنين فى كل مكان نصيبهم فى ذلك كله، ولا سيما أن تقدم النظرية السحرية أدى إلى تسليمها عن ترحاب ورضى بمذهب معقد يقضى بتقسيم الجان إلى فئات تحت زعامة الآلهة. وعلى ذلك فقد كان هناك جان من طبقة أبولو ، وجان من طبقة اريس ، ومن مختلف أنماط المعبودات وطنية كانت أو أجنبية .

وهكذا كان فى وسع المرء ، إذا ما حصل على النبات أو المعدن الصحيح أو أى شىء مادى آخر ، وعرف كيف يفيد منه ، أن يعقد صلة فعالة بسلسلة من التأثيرات التى تفضى به مثلا من زهرة مرتبطة فلكيا بكوكب الزهرة ، عن طريق صف طويل من الجن التابعين لأفروديتى ، إلى الإلهة الحقيقية ذاتها ، وهى القوة الإلهية التى تكمن وراء الكوكب المرئى وتتحكم فيه . وأهمية ذلك فى سبيل تحقيق مرامى الساحر الحسنة أو السيئة ، كانت واضحة ، فإذا ما أريد فرضاً الحصول على رقية حب ، فهل هناك ما هو أدعى إلى اطمئنان العاشق إلى تحقيق رغباته ، من ضمان معونة إلهة الحب ذاتها ؟ وقد كان بالوسع أيضاً إخضاع المعبود لتأثير مباشر قوى من جانب الخبير ، باتباع الأساليب المصرية وحدها . ففى مصر ، كما فى بلاد اليونان كان من بين العادات القديمة ، أن تكسى

نصب الآلهة فى معابدها بأردية مختلفة الأنواع ، تصنع عادة من الكتان ولم تكن هذه النصب . كما يقضى مذهب ذاع فى العصور المتأخرة من العهد القديم ، مجرد صور أو رموز للآلهة المعنية ، بل كانت فى الحق أماكن سكناهم ، فإن طقوسا للاستحضار والدعاء أتت بهذه المعبودات ذاتها إلى داخلها . وعلى ذلك فالملابس التى تخلع على تمثال كهذا قد ارتداها الإله نفسه . وتكاد تجمع أسحار الشعوب كافة على أن ملابس الشخص جزء من ذاته ، وأن عمل السحر لقطعة منها معناه التأثير على الشخص نفسه . فإن دعت الحاجة ، إذن ، إلى الحصول على رقية ذات أثر فعال فى واقع الأمر ، يؤتى بقصاصة من أحد هذه الأردية المقدسة وتتخذ هذه كأثر usia كما تسمى فى رطانة السحرة ، ولا تختلف هذه فى كثير أو قليل عما لو كانت قطعة من لباس كان يرتديه زمنا ما ، كائن بشرى يراد إيذاؤه أو التأثير عليه بصورة أو بأخرى . والحق أن الإله كان على قوة وجبروت يربأن به عن الوقوع على هذه الصورة المزرية تحت سلطان عامل السحر ، كما لو كان إنسيا أو شبحا عاديا إلا أن الإله ذاته يجد نفسه عاجزا عن ردع هذا الساحر المجترئ الذى تجاسر فى حمى هذه الخرق من الرداء المقدس ، على استحضاره ليسدى له المشورة أو يقدم العون . أما من قصرت أطماعه عن التحليق عاليا على هذا النحو فقد كان لديه العديد من السبل التى تمكنه من سحر القوى ذات المراتب الدنيا . مثال ذلك أنه بوسع أى امرئ لديه عدو يريد إصابته بضر أو حبيبة تمانعه ، أن يلجأ إلى طريقة كهذه . فبعد أن يحصل أولا على « أثر » usia للشخص المراد التأثير عليه ، يقوم ، فى حالة رقية الحب ، بصنع شكل سحرى من طين الفخار ، ويلصق الأثر به . ثم يتوجه إلى قبر شخص لجامة ، على اعتبار أن ذلك من أشد الموتى هياجا وأقواهم أثرا ، ويترك الجهاز فى حوزته ، بعد أن يدعو القوى الأرضية بدعوات شتى كيما تساعد الشبح ، موصيا إياه بتعقب المرأة المعنية ، ومداومة إزعاجها والوسوسة لها حتى تأتى لزيارة الساحر . أما إذا كان المقصود هو الكراهية وليس الحب ، فيمكن كتابة إحدى اللعنات (على الرصاص عادة ، وهو معدن الإله ساتورن) وإيداعها قبر شخص مناسب ، كأن يكون مجرما نفذ فيه حكم الإعدام . وهذه تحوى غالبا مناشدة للشبح بجميع أنماط الأسماء الفعالة ، اليونانية

منها والأجنبية (واسما يهوه والمسيح — والأخير بدأ يثبت وجوده بعد ظهور المسيحية — لم يكونا بالنادرين) بما فى ذلك أيضا أسماءلمعبودات لم يكن لها وجود على أى وجه من الوجوه ، بل لفقت من شتيت من الأصوات المستهجنة الغريبة ، كيما يقض مضجع المذنب ويقلق راحته . ويعود هذا الضرب من السحر ، فى صوره المبسطة إلى زمن جد مبكر ، إذ عثر عليه فى مقابر آتيكية ترجع إلى ما قبل العصر الهلينستى ، كما أنه ظل قائما حتى فترة متأخرة ، والأمثلة المسيحية التى وجدت ، إنما تدل على أن الديانة الجديدة لم تذهب بالرغبات القديمة وما كان يتبعها من خرافات . وعلى أية حال ، فيمكن القول بوجه عام إن العقائد المهذبة الرقيقة ، أتت معها فيما يبدو بقسط من التغيير فى الروح العامة ، كان كفيلا بحمل السحرة على إيثار عمل الرقيات لشفاء الأمراض واتقاء الأعداء من الإنس والجن ، عن عملها من أجل أغراض ضارة مقصودة لذاتها .

بيد أن من السحرة من كانت مراميهم تسمو فيما يبدو عن إرضاء أهواء الحياة اليومية وأحقادها . فما أكده السحر بألوانه كافة — وإنه لزعم من أشيع المزاعم حتى بين أحط السحرة وأدناهم — إنه وحى إلهى ، لقد كان نوعا من المعرفة gnosis التى كان بلوتارخ ، كما رأينا ، يتلمسها من الآلهة . وقد اشتق اسمه magic من المجوس Magoi ، الذين طار صيتهم ، من عصر أفلاطون على الأقل فصاعدا ، فى مضمار الحكمة والقداسة . وكان السحر يمارس فى بعض مناهجه البالغة التعقيد ، فى مصر وبابل ، وهما بلدان كانت تقوم بهما ديانة من أقدم الديانات فى واقع الأمر ، كما لم تكن تخلو بحال من جانبها السامى الرفيع ، وقد بدأت حكمتهما فى اجتذاب نفوس يونانيى العصور المتأخرة بصورة مطردة ، تبعا لتدهور ثقتهم فى حضارتهم الخاصة . وإن هذه لظاهرة يتكرر وقوعها على الرغم من أن الغالب هو أن الهند (التى لم تعدم المعجبين بها فى أواخر العصر القديم) أو الصين ، دون الشرق الأدنى ، هما اللذان يجتذبان المريدين والمهتدين من أبناء المغرب ، كلما أسفر وقوع حرب مدمرة بصورة غير معهودة ، أو وقوع أية اضطرابات سياسية واقتصادية أخرى ، عن سيادة روح من القنوط والتشاؤم .

وكما هو الحال بيننا ، عندما تنبرى طائفة من ذوى العقول المتميزة النابهة لتستنبط فلسفة دينية معينة من التقاليد والعادات الشرقية ، بدلا من ترديدها للأقاصيص الخرافية عن أسحار اليوجا والتبت ، فقد كان هذا هو الحال كذلك فى الزمن القديم . وكما كان هناك سحرة من المرتبة العليا ، فقد كان هناك سحرة من المرتبة الدنيا . وقد أدرك القدماء أنفسهم ذلك إدراكا واضحا كل الوضوح وعرفوا هاتين الطبقتين بمصطلحين فنيين . فالسحر ذو المرتبة الدنيا ، وهو الذى لا يعدو عمل رقى تافهة يقصد بها التأثير على نتيجة سباق للخيل أو لعلاج حالة صداع ، أو نيل الحظوة لدى الحاكم المحلى أو لإحراز النجاح فى مغامرة عاطفية شائنة ، كان هو « الجويتيا » goëteia أى السحر .

أما السحر ذو المرتبة العليا ، فكان « الثيورجيا theurgia » ومعناها الحرفى « شغل الإلهيات » . وكان هذا يسعى ، بوساطة عملية سحرية قد تبلغ فى بعض الأحيان الغاية من الشذوذ والخرف، إلا أنها لم تكن على أقل تقدير دنيئة المقصد، إلى الدخول فى علاقات وثيقة حميمة مع المعبودات العليا ، والتعرف عليها ونيل بركتها وصداقتها . وبوسعنا تتبع أكثر من مرحلة من مراحل الثيورجيا . مثال ذلك أن ثمة وثيقة من بين وثائقنا الرئيسية ، وهى تلك التى تعرف باسم « بردية باريس » العظيمة ، تحوى نتفة غريبة من طقس سحرى يبلغ فى مغايرته للطرق المعهودة لدى السحرة حداً دعا البعض إلى الظن خطأ ، وإن كان لهم العذر فى ذلك ، بأنه صلاة من صلوات عبدة إله الشمس الفارسى مثراس . وللعراف الذى يستخدم هذا الطقس أن يطلع عليه غيره ، إن شاء ذلك ، ولكن بشرط أن يختبر العارف المنتظر ويتيقن من أنه على قسط وافر من الخلق القويم ، لأنه فى حالة تلقينه إياه سيكون مسئولا عنه . ولا يماط اللثام له عن الطقس ذاته ، بل يتمتم به فوق رأسه بعد أن يمسح بزيت سحرى ، ولا يلقن غير الصلاة التى يستهل بها . وإلى هذا الحد ، يمكن القول بأن ذلك لا يعدو سوى لون واحد من ألوان التحريم العديدة التى تقضى بعدم الكشف عن فنون السحر ، إلا فى ظل احتياطات صارمة تتعلق فى العادة بأمور

تافهة للغاية وتعود فى النهاية إلى ميل إلى الاحتفاظ بالسحر كله سرا ، وهو ميل شائع كل الشيوع . ولكننا نقف على شيء أرفع من ذلك وأسمى عندما نأتى إلى تحليل هذا الطقس بنوع خاص . وهو يبدأ بالخطاب التالى الموجه إلى المعبود الذى ترفع إليه الصلاة ، وهو فيما يرجح مثراس الذى يقال إنه أرسل الطقس إلى العراف « بوساطة كبير ملائكته » .

« أيها المنبت الأول لمنبتى ، والبداية الأولى لبدايتى ، وروح الروح ، وأصل النفس التى فىّ ، والنار ، منحة الإله ، وهبت إياها لأمزج الأمزجة التى فىّ ، أصل النار التى فىّ ، وماء الماء وأصل الماء الذى فىّ ، وجوهر الأرض ، وأصل الجوهر الأرضى الذى فىّ ، الجسد الكامل الذى هو لى (وهنا يذكر الخادم اسمه ، مضيفا إليه ، على الطريقة المعهودة لدى السحرة ، اسم أمه) صورته ذراع مجيدة ويمنى خالدة فى عالم لا يضاء بل يسطع النور فى جميع أرجائه ، عالم غفل من الروح بيد أنه حى ، إذا كان فى ذلك مرضاتك الكريمة ، فأعدنى إلى مولدى الأبدى ، بحسب الطبيعة الكامنة فىّ . . . . إذ أنه ليس فى مكنتى ، فما أنا غير بشر فان ، أن ألقى الأشعة الذهبية للنور الأبدى ، ولطبيعتى الفانية أيضا ، عد بى عندما تمضى الحاجة المستحكمة التى تتملكنى الآن » .

وتحمل هذه المقطوعة فى المقام الأول دلائل واضحة على صدورها عن أصل فلسفى . فالإله نظير علوى للعناصر الأربعة التى تدخل ، كما كان الرأى فى معظم المدارس الفكرية فى بلاد اليونان منذ القرن الخامس ق.م ، فى تكوين جميع الأشياء المادية ، بما فى ذلك الأجساد الحية الخاصة بالإنسان والحيوانات الدنيا . ثم إن خادم هذا الطقس يزعم لنفسه على غرار الأورفيين ، أصلا غير أصله الدنيوى ، إذ أن « طبيعته الكامنة » هى التى تجعله قادرا على الميلاد الثانى الذى يبتغيه فى تحرق وشوق . وهو مازال فى الجسد ، ولهذا فإن تجربته للحياة الفائقة للطبيعة لن تستغرق غير برهة وجيزة ، ومع ذلك فهو عرضة لها ، قادر عليها . ومن ناحية أخرى ، فالأساليب التى يستخدمها هى دون أدنى ريب أساليب سحرية . فهو لا يستخدم

فحسب صيغة محددة من الألفاظ ، قد تكون فى حد ذاتها جزءا من طقس دينى غير سحرى ، بل يخلطها بعدد من الأصوات التى لاتحمل معنى ، وتلاوات للأحرف المتحركة فى الأبجدية اليونانية مرتبة على أوجه مختلفة ، وفواصل من الصفير وأناظيم من الأسماء السحرية ، وقد حذفت هذه من الترجمة السالفة . وبعد تلاوة الصلاة الاستهلالية تقضى التعليمات الصادرة إليه بأن يتنفس تنفسا عميقا ثلاث مرات « من أشعة النور » . . . ويبدو أنه يواجه الشمس عند أدائه لهذا الطقس . وسيشعر عندئذ بخفة ويظن أنه تصاعد عاليا ، « حتى يخيل إليك أنك فى وسط الفضاء » . وإذ يمضى فى تصعيده عاليا عاليا مارا بالآلهة النجمية الدنيا التى يخاطبها بصيغ معينة ، يشهد فى النهاية قرص الشمس ينفرج ويتبدى له الإله محوطا بالمعبودات التابعة ، وفى صورة آدمية وفى زى كزيه الفارسى . وبعد أن يجهر الخادم بخطاب آخر لايقل تعقيدا والتواء أمام مثراس يتلقى منه وحيا ، بوسعه وهو فى حالته من الانجذاب ، أن يتذكره بحذافيره ، « حتى لو بلغت النبوءة من الطول عشرة آلاف بيت » .

ومن الصعب علينا أن نقطع بما عسانا أن نؤمن به فيما يتعلق بمثل هذه الإجراءات والأعمال . فمما لاشك فيه أن الخديعة والاحتيال كانا أشدما يكونان انتشارا وتفشيا ، ولدينا شروح تكاد تكون كاملة لطائفة من الكتاب المتأخرين ، يوضحون فيها حيلا تشبه تلك التى يمارسها الحواة على خشبة المسرح الحديث ، انخدع بها بصورة مزرية فاضحة البسطاء السذج ، على أيدى فئة معدومة الضمير ممن استغلوا غفلة هؤلاء وسلامة طويتهم . ولكن ليس ثمة مايدعو إلى الشك فى أن بعض مزاولى « الثيورجيا » كانوا فى غاية الصدق والإخلاص . فإنه من المحتمل فيما يبدو ، أن شخصا على شىء من الشذوذ ، تمتلئ رأسه بالمعتقدات الصوفية ويؤمن إيمانا راسخا بفاعلية السحر ذى المرتبة العليا ، كان فى مقدوره أن يولد فى نفسه حالة من التنويم المغنطيسى الذاتى يظن مخلصا إيمانها أنه مر بالتجربة السابق بيانها . وليس بعسير أن نقف على نظائر لذلك الإحساس الباطنى بالارتفاع عاليا فى الفضاء ، فإذا ماظن أن ذلك حقيقى وليس خدعة من صنع أعصابه المتوترة المهتاجة ، فستتلو ذلك حتما بعض

المراحل الباقية على الأقل ، فسيدخل فى روعه أنه شهد ما أكدت له علومه الكونية المتوهمة فى غالبيتها ، أنه سيراه حتما ، إذا ما ابتعد الراصد فحسب مسافة كافية عن سطح الأرض . وهناك العديد من الأمثلة على أشخاص ، تمثلت لهم وهم فى حالة غيبوبة رؤى للعالم الآخر ، ومن نافلة القول أن الجنان أو النيران التى كانوا يرونها حينئذ هى تلك التى حدى بهم إلى انتظارها أى من المذاهب اللاهوتية التى لقنوها. ولعل شيئا من هذا القبيل قد حدث بالفعل لأكثر من واحد من المجربين للطقس السالف الذكر . أما من ناحية الأنماط الدنيا من السحر ، فمن المعروف تماما أن كثيرا من البسطاء السذج من الناس ، إذا ما سمعوا بأن رقى تتخذ ضدهم ، فزعوا لذلك أشد الفزع إلى حد وقوعهم فريسة للمرض ، بل إلى حد الموت فى الحالات القصوى ، لغير علة جسمانية فى الحالين . ومن ناحية أخرى فإن شخصا يعانى مرضا حقيقيا لابد أن ينشرح صدره ويزول كربه إلى حد بعيد ، إذا ما كان يؤمن بالسحر ، حين تتلى عليه رقى قوية أو يتعاطى أخلاطا من الأعشاب أو ما شابه ذلك مما يعتقد أنه علاج خارق للطبيعة لعلته . وبذلك تزداد ثقته وتتحسن فرص شفائه نسبيا ؛ ويبدو أن معظم الأدوية السحرية كانت غير ضارة على الإطلاق ، ولو أن قلة منها هى التى كان لها أثر علاجى حقيقى من أى نوع .

بيد أنه لا يمكن القول بحال بأن كل الباحثين عن المعرفة gnosis كانوا من السحرة ، حتى وإن اعتبرناهم من النمط « الثيورجى » الراقى . فقد وجد عدد ليس بقليل مرضاته فى العقائد السرية ، التى كان يقوم الكثير منها فى العالم الهيلينستى ، ذلك لأن إليوسيس لم تواصل وحدها هداية الناس من جميع الأمم ، بل لقد ظهرت أو أحييت عدة عقائد جديدة تحمل الطابع ذاته . ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك أسرار أدريانا فى البليبونيز التى يعتبرها بوسانياس من أقدس الأسرار ويضعها فى المرتبة الثانية بعد أسرار إليوسيس ذاتها . وما لدينا عن هذه الأسرار لا يقتصر فحسب على ما يرويه بوسانياس عنها ، بل إن لدينا نقشا طويلا أسبق عهدا إلى حد بعيد يحوى ثبتا دقيقا بقواعد تنظيمها وإن كان لا يفضى لنا بطبيعة الحال بماهية هذه الأسرار . فقد بطل القيام بشعائر تلك العبادة التى كانت تدور حول المعبودات

المعروفة باسم « الإلهات العظمى » . عندما أوقعت أسبرطة الهزيمة بمسينا ، إلا أنها ازدهرت من جديد ، بعد ذلك بزمن طويل ، عندما منيت أسبرطة بالهزيمة على يد طيبة فى القرن الرابع ق . م . وثمة أسطورة عظيمة الدلالة تروى كيف أن إبامينونداس السياسى والقائد الطيبى العظيم ، قد طلب إليه فى حلم أن يستعيد مسينا ، بينما أرشد حليفة إبيتيليس فى الوقت ذاته إلى المكان الذى يمكنه العثور فيه على السجلات المتضمنة للتعليمات الخاصة بإقامة الاحتفال. ويحق لنا أن نفترض أن هذه المراسيم المقدسة أو التى يعتقد أنها كذلك ، قد أقحمت عليها كل ألوان المذاهب التى كان يؤمن بها المنضمون إليها ، كما حدث بالضبط فى إليوسيس ، وما وقع دون ريب أيضاً فى كثير من المراكز الأخرى الأقل شهرة . وغالبا ما نقف فى النقوش التى آلت إلينا على مايبرهن على أن ثمة عبادات فردية قد قامت استجابة لأوامر تضمنتها أحلام أو رؤى ، وإنه لمما يؤسف له أن معلوماتنا قاصرة فيما يتعلق بطقوس هذه العبادات. ومن ناحية أخرى فإن الأسرار الأجنبية ، مثل أسرار إيزيس وأوزيريس ، التى ازدهرت فى مصر البطلمية وانتشرت فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، لم تكن شائعة بين اليونانيين شيوعها بين الأمم الأخرى . ولقد رأينا بالفعل أن « كليا » صديقة بلوتارخ كانت من المنتميات إلى عبادة الآلهة المصرية ، ولم تكن فريدة بل لم تكن تعد أستثناء كبيرا فى هذا الصدد ، غير أن الوطنية المحلية ظلت قوية بعض الشيء فى المسائل الدينية ، ومن الجدير بالذكر أن « كليا » أخذت بالنظرية التى تقول إن أوزيريس لا يعدو كونه اسما آخر لذلك الإله ديونيسوس الذى كانت تعبده فى بلادها . غير أن التصدى للعقائد السرية المصرية والفارسية وغيرها من العقائد الأجنبية إنما هو أدخل فى اختصاص كتاب فى تاريخ الديانة الرومانية المتأخرة أو الديانة اليونانية منه فى اختصاص كتاب كهذا .

وظل الشعور الدينى القوى بمثابة ظاهرة بارزة بين هؤلاء اليونانيين من أبناء العصور المتأخرة ، سواء فى بلاد اليونان الأصلية أو فى كثير غيرها من البلاد التى كانت تتحدث بلغة هلينية .

وكان من بين أعراض هذه الظاهرة انهيار الروح العلمية . فيبدو أن الرجال من أمثال جالينوس العظيم — الذى يعد منهجه الطبى عقليا بحتا ، بحيث إن عيوبه ترد إلى المعرفة غير الكاملة بالحقائق المتصلة به ، وليس إلى الافتقار إلى الرغبة فى تحصيلها أو الثقة فى المشاهدة والاستنتاج — كانوا فى تناقص مطرد ، واقتصروا فى الغالب على مهنة الطب ، وذلك على الأقل خلال القرون التى انقضت فيما بين بداية العصر المسيحى ونهاية العصر القديم . فالغالبية العظمى حتى بين المثقفين أنفسهم ، كانت على استعداد للإيمان بعجائب أدعى إلى إثارة سخرية أى ممن عاصروا أرسطو ، وإلى التسليم بعلوية وسمو أشياء غاية فى التفاهة مثل حلم غريب أو هذيان عابر . وتضاءلت الثقة بالوسائل الإنسانية البحت للوصول إلى المعرفة ، وكان من أسباب ذلك ، الآراء المتعارضة التى كان يراها مختلف الفلاسفة والتى كانت تعرض على أنظار الجمهور فى صور مختصرات أو « دوكسوغرافيات » أى كتب تدون آراء (doxai) مشاهير المفكرين القدماء ، حول كل شىء فى السماء والأرض ، دون أن تتناولها بالنقد أو توضح على أى نحو كيف تم التوصل إليها أو كيف تعدلت أو بطلت ، بل إن الفيلسوف العظيم الأوحد الذى أنجبه العهد الوثنى المتأخر وهو أفلوطين لم يعز معرفته المؤكدة بالحقيقة المطلقة إلى استدلالاته الميتافيزيقية البارعة بل إلى تجربة الوحدة مع المطلق ، وهى تجربة صوفية زعم أنه عاناها مرات عدة .

ولكن هذا العصر لم يكن خلوا من قديسيه وأنبيائه حتى إن أغفلنا الأسماء العظيمة التى ظهرت فى أواخر العهد اليهودى وأوائل المسيحية . فمن بين الأمثلة البارزة قطب المدرسة الفيثاغورية الجديدة أو أشهر أتباعها على الأقل أبولونيوس من توانا Tyana . ومعلوماتنا عن حياة هذا الرجل وأعماله قد جاءتنا خلال مصادر تتسم بالغموض والالتواء . فقد قام فيلوستراتوس ، وهو من خطباء القرن الثالث ذوى البيان بكتابة سيرته بأمر من الإمبراطورة جوليا دومنا زوجة سبتيميوس سيفيروس التى كانت ذات ميول أدبية وفلسفية كما كانت تستضيف أهل العلم فى بلاطها . ويزعم فيلوستراتوس أنه اعتمد على مذكرات كتبها أحد تلاميذ أبولونيوس ذاته ، وهو المدعو داميس الآشورى ، الذى لا شك فى أن مؤلفه ،

إن ثبت أنه كان له وجود خارج مخيلة فيلوستراتوس ، كان غاصا بالأكاذيب شأن أبعد سير القديسين المسيحيين عن الثقة. وبحسب ماجاء فى تلك القصة الخيالية المغرقة فى التأنق اللفظى والحشو المرذول ، والتى لفقها فيلوستراتوس ، فقد اختص أبولونيوس منذ مولده بما يميزه عن السواد الأعظم من بنى البشر ، إذ انتهز الخطاة الآثمين ، وراح يرسل الأمثال والأحكام المقتضبة المليئة بالحياة والقوة ، كما طوف بقسم كبير من العالم ، بما فى ذلك الهند ، لمحاورة الحكماء من مختلف القوميات واللغات ، وقام بعدد من المعجزات ، وتغلب على جميع قوى الشر على اختلافها الدنيوية والروحانية ، بما فى ذلك الإمبراطور دوميتيانوس الذى روعه بالاختفاء من أمامه فجأة والذى شهد مقتله فى رؤيا كشفية ، وفى الختام ، وبعد أن عاش إلى سن متقدمة ، اختفى من بين الناس دون أن يعلم أحد عن يقين بما إذا كان قد مات أو لم يمت . وإذا ما أسقطنا من حسابنا هذا الزخرف الخيالى ، أمكننا أن نخلص من هذا المصدر ومن غيره من المصادر ، أنه كان رجلا يحي حياة عبادة ونسك؛ مهيبا وقورا فى مسلكه ، بالغ الصدق والإخلاص دون شك ، عاش خلال شطر كبير من القرن الأول الميلادى ، ونال صيتا طيبا فى شخصيته المؤتلفة التى تجمع بين الفيلسوف والنبي . ويبدو أنه كان لديه ثمة اهتمام بالطقوس الدينية ، وعلى أية حال . فقد نسب إليه مؤلف فى القرابين والأضحيات ، ولعله أدلى كذلك بدلوه فى السحر ذى المرتبة العليا . وليس مما ينبو عن منطق أو عقل أن يكون أبولونيوس قد قام بإلقاء دروس فى الفلسفة ، بحسب إدراكه لها ، غير أن الشهرة التى لازمته إما باعتباره رجلا ذا مواهب فائقة للطبيعة وإما باعتباره عرافا ساحرا ، وذلك بقدر ما تكون الشهادة المنطوق بها محابية أو معادية له ، فإنها توحى بأنه كان شخصا غير سوى على نحو أو آخر ، ولعله كان عرضة لنوبات من الغيبوبة سواء كانت هذه من طبيعة تكوينه الخلقى أو مجتلبة مصطنعة ، وبعبارة أخرى فقد كان واحدا ممن يسمون اليوم فى بعض الأحيان الوسطاء .

وحسبنا هذا عن فرد شهير واحد ، وإنه لحقيق ألا يغيب عن الأذهان أنه قد كان ثمة طوائف وجماعات بأكملها من الصوفيين الذين يصطبغون على نحو

أو آخر بصبغة فلسفية ، وأن قدرا كافيا من كتاباتهم يكفل لنا الحكم على مذاهبهم قد آل إلينا . فقد عزى إلى « توت » المصرى الذى طابق اليونانيون بينه وبين هرميس فضل تأليف عدد هائل من الكتب حول موضوعات شتى تشتمل على الكيمياء الخرافية والتنجيم وغير ذلك من أساليب العرافة . ومن بين هذه المؤلفات مجموعة تعرف باسم « مجموعة الكتابات الهرمية » التى يمكننا استكمالها بمخلفات وثائق مشابهة مأخوذة عن مصادر أخرى ، وتتضمن هذه مؤلفا لاتينيا يحمل اسم « أسكليبيوس » وهو كما يتضح لنا ترجمة لأصل يونانى آل إلينا تحت اسم « أبوليوس من مادورا » وهو بلاغى ذو ميول صوفية تقع حياته فى غضون القرن الثالث المسيحى . وسواء كان لهذا الأمر صلة به أو لم يكن ، فإن تواريخ الآداب الهرمية تظهر وكأنها تمتد من قرابة الوقت الذى عاش فيه إلى مدة قرن أو يزيد . ولا تعتبر هذه نصوصا مقدسة تختص بنحلة واحدة محددة بعينها ، وهى لا تختلف فى ذلك عن الآداب الأورفية ، ولكنها أحق بالاهتمام لهذا السبب ذاته ، بالنظر إلى أنها تمثل اتجاها كان شائعاً إلى حد كبير بين السكان اليونانيين المصريين على أقل تقدير وتدل على مناهج التفكير التى كان يطرقها غير قليل من النفوس الورعة التقية . وكان يكمن وراء الفكر السائد لدى هؤلاء الصوفيين سواء كانوا ينتظمون فى جماعات صغيرة من الإخوان الدينيين أو كانوا من المريدين الأفراد ، مذهب منبثق عن تعاليم أفلاطون . إذ تأكد فى فكر ذلك العصر أكثر فأكثر ، الفارق بين العالم الحقيقى غير المادى الذى لا يمكن إدراكه بغير العقل ، أو بما هو أسمى أيضا من الفكر العادى ، وبين العالم المادى أو الظاهرى . وعلى ذلك فقد برزت هذه المشكلة وهى أنه كيف يمكن أن تكون لله الذى ينتسب كلية إلى الحقيقة ثمة صلة على الإطلاق بشىء فى مثل خبث المادة (التى كانت تعتبر فى بعض مناهج تفكيرهم شراً مطلقاً) وكان الجواب يتلخص عادة فى أن الله استعان بوسيط من نوع أو آخر أو بعدد من الوسطاء ، أدنى مرتبة منه ، وإن كانوا أسمى إلى حد بعيد من المادة ، لأنهم منبثقون عنه سبحانه وتعالى بطريق مباشر أو غير مباشر . وكان أكثر أنماط هذا الجواب شيوعا يقوم على نظرية اللوغوس Logos (التى تقابل فى الترجمة المعتمدة

للكتاب المقدس لفظة « الكلمة » وهى ترجمة غير وافية بل خاطئة مضللة) التى استخدمها كاتب الإنجيل الرابع . وللوغوس مدلولان رئيسيان فى هذا السياق ، هما « الكلام » (أى الفكر مترجما إلى لغة) و « التأمل » (أى الفكر فى صورة نشاط ذهنى) . فكما أن بوسع الإنسان أن يفكر أو يدبر ثم يفرغ فى كلمات ما كان قد فكر فيه أو دبره ، فى مقدور العقل الإلهى أن يقدم شيئا ما يوازى نشاطنا الذهنى ومجسماته اللفظية . وهذا الشىء ، أى اللوغوس الإلهى ، يلعب دورا كبيرا فى عدة فلسفات وديانات ظهرت فى أوائل العهد المسيحى ، كما أن دوره فى الكتابات الهرمية لا يقل خطرا . ولنا أن نضرب مثلا على ذلك بالمبحث الذى يحمل عنوان « بويماندريس » Poimandres فى الفقرة الأولى من مجموعة الآداب الهرمية . يقول الكاتب إنه بعد طول تأمل للحقيقة ، راح فى غيبوبة عميقة مثقلة تبدى له فى أثنائها كائن عرف نفسه باسم بويماندريس (ومعناها باليونانية راعى الناس) أو « العقل ذو السلطان » ثم كشف بويماندريس لهذا الصوفى عن رؤيا ، شهد فيها نورا عظيما وظلاما هائلا ، وهما على التوالى الحقيقة والمادة ، ومن النور خرج « لوغوس قدسى » اجتذب إليه الجانب النارى من المادة ؛ متبوعا بالهواء ، أما اليابسة والماء فبقيا فى القاع ، ولكن اللوغوس الذى يهب عليهما كالريح أخذ فى تحريكهما مهيئاً إياهما للإنصات . ومما يزعم أن هذا اللوغوس هو « الابن النورانى لله » وأنه مستمد من « العقل » ذاته ، أما « العقل » والإله الذى يؤمن به هذا الصوفى فمتطابقان كما أعرب عن ذلك صراحة .

وإلى هذا الحد يمكن اعتبار ماسلف نظرية رواقية عن نشأة الكون . فإن ترتيب العناصر من حيث لطفها وثقلها يتفق وآراءهم ، كما يتفق فى واقع الأمر وآراء المدارس الفلسفية كافة ، إذ يقوم على أساس من الحقيقتين الملحوظتين التاليتين وهما أن اللهب يميل إلى الصعود ، وأن الفقاقيع من الهواء والغاز ترتفع خارج الماء . ولعل اللوغوس رواقى أيضا ، إذ أكثر الرواقيون من التمثل بعبارة « اللوغيات الخلاقة » logoi spermatikoi ، باعتبارها قوى كونية نشطة فى حين أن معبودهم كان يستمد طبيعته من النار أو النور ، ولم يكن غير مادى تماما .

غير أن هذا الأثر الأدبي يمضي فيبين مرحلة أخرى من مراحل التكوين ، تتضمن انبعاثات أخرى عن «العقل» وتسفر عن ظهور الكون المادى . ويتضح من ذلك أيما وضوح أن الرؤيا الأولى بينت مراحل تكوين « الشكل » أو « الفكرة » الأفلاطونية عن الهيولى المنظم ، الذى يعتبر مفهومه حقيقة مستقلة ، لايعدو تجسيمها المرئى فى الكون المادى سوى محاكاة أو انعكاس لها . ومن ذلك يتبين لنا أننا بصدد مزيج مختلط من أفكار مدارس مختلفة ، الأمر الذى لم يكن من النادر فى الفترة اللاحقة على بوسيدنيوس . بيد أنه من بين الدروس الرئيسية التى يلقنها بويماندريس لتلميذه هى أنه كان من نتيجة هذه المرحلة الطويلة المتشعبة التى مرت بها عملية خلق الكون ، أن أصبح اللوغوس نفسه كامنا فى الإنسان ، وأبوه هو « العقل » ذاته ولا يمكن فى الحقيقة فصلها ، واتحادهما هو الحياة .

ولا يشار إلى هذا المذهب جميعه ، الذى يكشف عن دلائل واضحة على تأثره بمصادر غير يونانية ، تضم فيما يبدو الديانة الزرادشتية ، فضلا عن عناصره اليونانية التى سبقت الإشارة إليها ، باعتباره نتاجا فكريا ، بغض النظر عن كثرة المصادر المؤلف منها ، بل على اعتبار أنه وحى منزل ، ذلك أن بويماندريس كان يطلع تلميذه على رؤى ثم يعمد إلى تفسيرها فى اقتضاب وجزم . فهذا المذهب إنما هو معرفة بمفهوم « الغنوسيس » gnosis ، لايفوز بها سوى من كانوا على قسط واف من الأهبة والاستعداد لها ، وهو ليس بنتيجة يمكن التوصل إليها عن طريق الاستدلال الميتافيزيقى . وحسبنا فى الواقع ما يكتنف أسلوب هذا الأثر الأدبى من غموض ومايعتور مصطلحاته اللغوية من اضطراب معين دليلا على أن مؤلفه لم يكن فيلسوفا جدليا ، وإن لم يحرم من سعة الخيال وبعد التصور . وتقدم لنا مؤلفات أخرى تدور هذا المدار محاضرات دينية صادرة عن أشخاص إلهيين أو أشباه إلهيين ، إلى جانب الصلوات الطويلة التى تتميز عادة ببلاغتها وعميق أثرها ، إلى غير ذلك من ضروب التعبير عن مزاج وشعور لايحمل الصفة الفلسفية على أى من وجوهها السليمة ، كما أنه لا ينطوى دون شك على روح التمحيص والنقد ، إلا أنه شعور دينى راسخ عميق . ونتبين كذلك من كثير من الفقرات أن الهرميين ،

إن جاز لنا أن ندعوهم بذلك ، كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بقدرة الطقوس على عقد الصلة بينهم وبين معبودهم الأعلى ، من خلال سلم انبثاقاته وتوابعه . لقد كانت ديانتهم ديانة استشراقية رفيعة تسمو إلى حد بعيد عن العمليات المختلفة التى حاول بها رواد أدنى مرتبة منهم يسيرون فى اتجاه مماثل ، بلوغ غاياتهم عن طريق الكيمياء الزائفة والتنجيم وما إليهما ، غير أنها كانت تتفق معها فى أن القائمين بهذه العمليات كان لهم أيضا معرفتهم الأغنوسية gnosis الخاصة بهم ، كما كان لكل من التنجيم والكيمياء القديمة طابع دينى صوفى مميز . مثال ذلك أن مانيليوس Manilius ، وهو الشاعر ذو الشأن الوحيد الذى أنجبه علم التنجيم ، يؤكد أن علمه ذو أصل إلهى ، إذ يتساءل فى فقـــرة درج الكثيرون على الاستشهاد بها قائلا :

« من له أن يعرف السماء بغير هبة السماء ، أو يكتشف الله ، إذا لم يكن هو نفسه جزءا من الآلهة ؟ » .

وما قاله ما نيلوس فى شعر لاتينى رصين ، كان يحس به وإن لم يعرب عنه الكثيرون من الأدباء ممن لم يكونوا يدانونه فصاحة . كما أنه لا يعزو اكتشاف علم التنجيم إلى أى بشر ما فان ، بل إلى هيرميس ، وبذلك وصل مرة أخرى بين أفكاره وأفكار الهرميين .

وبالنظر إلى ذيوع مثل هذه العقائد وتلك المشاعر خلال القرون الأولى من العهد المسيحى ، فليس ثمة مايدعو إلى العجب فى أن المسيحية حين بدأت تنمو ويملأ خبرها الأسماع ، صادفت قبولا جزئيا من جانب من كانوا ينادون بآراء كالتى عرضنا لها فى العجالة السابقة . والحركة الغنوطيسية كلها ، أى مذهب من كانت المعرفة gnosis تمثل أهم أركان دينهم ، إنما هى على قدر ما تدلنا عليه سجلاتنا التاريخية الفعلية ، بدعة دينية منشقة عن الديانة المسيحية ، على الرغم من أنه من المحتمل إلى أقصى حد أنها كانت قائمة بين الأوساط الوثنية قبل أن تصطبغ جزئيا بالصبغة المسيحية . وإننا لنقف بين كتابات المجادلين المسيحيين على نبذ توجز المبادئ التى

يقوم عليها هذا المذهب ، ومن ثم فإن مالدينا عن تعاليم رجال من أمثال باسيليديس Basileides وفالنتينيان Valentinian وغيرهما ، لاتعدو ثبتا معاديا مناهضا لها . ورغم ذلك فقد آلت إلينا بعض النماذج القليلة من كتابات الغنوطين أنفسهم ، وعلى رأسها الأثر الأدبي القبطي المعروف باسم « بستس صوفيا » Pistis Sophia . ويمكن القول بوجه عام إن هذه المدارس جميعها — ذلك لأن الغنوطية لم تكن تمثل مذهبا واحدا بل عدة مذاهب — أكدت الفارق بين العالم غير المادى والعالم المادى بصورة تتجاوز فى صرامتها وجزمها ماذهب إليه أيضاً أشد المفكرين اليونانيين مثالية . فالمادة كانت تبدو فى نظرهم شرا مطلقا ، ومن ثم فقد استنوا فيما يبدو حياة زهد وتقشف صارمين ، على الأقل بالنسبة لمن كانوا يطلبون الكمال ، هذا على الرغم من أن البعض منهم ، إن جاز لنا أن نسلم بما قاله خصومهم ، كانو ينادون بأن جميع المميزات الخلقية المعهودة إن هى إلا أمور لاخيار فيها ، بل إنهم دعوا إلى أفحش الرذائل ، باعتبارها أمورا لابد للروح المتجسدة من الوقوع فيها مادامت فى مكان فى مثل دنس الجسد ، ومن ثم يحسن إنقاذها بأقصى سرعة مستطاعة حيث إن القوى السفلية التى تتسلط على العالم المرئى ، تصر كما هو دأبها على أن تعيد إلى الجسد من لم يكونوا قد استنفدوا بعد كل الآثام التى ينبغى عليهم اقترافها .

وأقحمت جميع هذه المذاهب على حد سواء بين المعبود الأعلى والمادة سلسلة من الفيوض القدسية التى اطردت تشعبا وتعقيدا بتطور هذه المذاهب ونموها ، ولم يكن فى مكنة غير أحط هذه الفيوض ، الاتصال بالمادة على أى وجه من الوجوه . وبإدماج هذه النظرية بالتراث العبرى ، انتهت هذه المذاهب إلى النتيجة المنطقية التالية ، وهى أنه ما دام رب التوراة هو الذى خلق العالم المرئى فإنه كائن أقل شأنا ، يبعد درجات ودرجات عن المعبود الأعلى الحقيقى . ووقع المبدأ المسيحى القائل بالتجسد والذى يتميز ببساطة وقربه النسبى من الأفهام فى شراك هذا المذهب ، فنمق وزين بالمفاهيم الدقيقة المعقدة . وكان أقل هذه المفاهيم مثارا للسخرية ، التمييز بين « يسوع » الذى كان إنسانا طاهر النفس قويها بصورة

تخرج عن المألوف ، مشهودا له بصلابته فى مقاومة عوامل الشر من جانب المراتب الدنيا من الخلق وبين « المسيح » باعتباره فيضا قدسيا ينتمى إلى مرتبة سامية نوعا ما ، دخل يسوع وقت تعميده وتركه من جديد قبيل صلبه . ولقد آلت إلينا دقائق كثيرة أخرى من هذا القبيل ، بفضل الاهتمام المشوب بالعجب الذى أبداه الكتاب المسيحيون الذين صحة عقيدتهم ، الذين كانوا يرون فى كل ذلك أقبح الزور .

ومن ثم يتبين لنا أن الديانة الجديدة عندما أخذت فى الذيوع والانتشار ، لم تقع فى النفوس موقع الشىء البعيد تماما عن المألوف . لقد كانت ديانة تؤمن بالإله الواحد ، وهكذا كانت فى الواقع أقرب العقائد القائمة إلى الطابع الفلسفى . وكان إلها علويا مستشرفا، وهكذا كان حال آلهة المذهب الهرمى ومذهب الأفلاطونية الجديدة ، ونيف من المذاهب الأخرى ، ولقد كان خالقا، ومن ثم كان فى قدرته أن يقيم نوعا من الصلة بينه وبين المادة ، رغم أنه هو بذاته يسمو عليها سموا هائلا وما كان ذلك ليثير دهشة أى أفلاطونى أصيل ، فإن أفلاطون نفسه قام ، فى واحد من أبعد مؤلفاته أثرا وهو تيمايوس Timaeus ، بشرح طريقة معقدة لنشأة الخليقة . وعلاوة على ذلك فقد سدت منذ زمن مبكر الثغرة التى تفصل بين الله والمادة بإحلال اللوغوس Logos محلا وسطا بينهما (ويبدو أن تاريخ الإنجيل الرابع يعود إلى نهاية القرن الأول تقريبا) . وكان للمسيحية عقيدة تؤمن بالخطيئة والخلاص ، وهما أمران ألفتهما كثرة من اليونانيين من الآداب الأورفية وغيرها من الآداب . ودعت المسيحية منذ البداية إلى وجوب التزام مستوى عال من السلوك الأخلاقى ؛ ولقد حظى الجانب الخلقى من الدين بالاهتمام منذ عهد سفسطائى القرن الخامس . وشرعت المسيحية منذ زمن مبكر يعود إلى بولس الرسول فى استخدام المصطلحات الدينية والفلسفية الخاصة بالمذاهب القائمة ، فى حين أن مفرداتها العبرية لم تقع موقعا غريبا تماما من الأسماع بالنظر إلى حمى نشاط الإرساليات اليهودية . كما أنها لم تلبث أن استحدثت لنفسها الطقوس والمراسيم ، وهو أمر مألوف مستحب فى ذاته ، وقد خلت هذه المراسيم

على خلاف كثير من العبادات القديمة ، من كل ما يستقبح أو يستهجن . فإنها لم تقدم ، على سبيل المثال ، الذبائح من الحيوان ، وهو طقس كانت تميل بعض المدارس الفكرية إلى معارضته ، لأسباب تتعلق بمذهبها القائل بتناسخ الأرواح ، ويقال إن كلا من فيثا غوراس وأبولونيوس من توانا قد امتنعا عن التزام ماجرت به العادة فى زمنيهما فى هذا الشأن ، مستعيضين عن ذلك بالقرابين غير الدموية . ومن بين مزاياها السلبية أنه لم يكن أمامها أكداس من الأساطير الهمجية أو غير الأخلاقية التى ينبغى لها التخلص منها بالتفسير والتعليل ، وكانت ، مؤلفاتها فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، من وضع من نسب إليهم تأليفها ، والحق أنه عندما حان الوقت لاختيار أسفار الإنجيل ، صادف مصنفوه نجاحا منقطع النظير ، بالقياس إلى سذاجة العصر الذى كانوا يعيشون فيه ، فى أنهم لم يضمنوه غير الكتب التى يحتمل أنها ، من حيث تاريخها على الأقل ، قد كتبت بأقلام الرسل الحقيقيين . ولا يقل أهمية عما سلف ، كون مؤسسها شخصية تاريخية ، قريبة العهد ، بدأت تكتب تراجم عنه فى غضون ما يقرب من جيل من تاريخ الصلب . فليس ثمة ما يدعو إلى العجب ، إذن ، فى أن العقيدة الجديدة اجتذبت اهتمام نفر كبير من الأفراد لا من أهل التقى والورع فحسب ، بل من الأذكياء جدا أيضا وليس ثمة ما يدعو كذلك إلى أقل القليل من الغرابة ، فى أن عددا غير يسير من أشياعها طفقوا ، بالنظر إلى مضاء فكرهم ودربتهم الفلسفية ، يفسرون عقائد صميمة فى ديانتهم ، وخرجوا بعد بضعة قرون من الجدل والتأمل ، بلاهوت «العقيدة النيقاوية» بالإضافة إلى العدد العديد من الهرطقة الدينية الفنوطية وغيرها ، التى تمثل تجارب لم تلق القبول من جانب الجمهرة الكبرى للرأى العام المسيحى .

أما اللاهوت الناتج ، فكان يونانيا فى قالبه ، يونانيا كذلك فى الجزء الأكبر من مضمونه . ونشير على وجه الخصوص إلى أن فلسفته المتعلقة بالعالم الآخر وفكرته عن طبيعة الكائنات التى هى دون المنزلة الإلهية يدينان بكل شىء تقريبا إلى التأملات اليونانية . انقسمت الأرواح (ديمون) daimones إلى ملائكة وشياطين ، ولقد كانت فكرة جهنم والمطهر والجنة ، من الأفكار الشائعة الجارية

فى بلاد اليونان منذ زمن طويل ، وكان من بين المفاهيم المألوفة إلى حد بعيد أن أرواح الصالحين ينبغى أن ترقى إلى ما هو أكثر من حالة الفناء والموت ، فما طال ترديده من التعاليم أن روح الرجل الصالح قد تتحول إلى « بطل » ، والبطل إلى ديمون daimon ، والديمون إلى إله فى نهاية الأمر . وذهب الأمر أيضاً إلى أن تحديد أماكن الثواب والعقاب ، اتفق والنظريات القائمة ، فالسماء هى المسكن الطبيعى للروح كما فى الفلسفة الأفلاطونية وغيرها من الفلسفات ، فى حين أن جهنم تنحدر عن «ترتاروس» Tartaros وهى السجن التقليدى للمتمردين على الآلهة القدماء . ورؤيا العالم الآخر ذاتها التى نقف عليها فى الآداب المسيحية الأولى ، مثل تلك الرؤيا المسماة برؤيا بطرس ، إنما تحوى من الصور الفكرية اليونانية قدرا مساويا إن لم يكن أكثر مما تحويه من صور فكرية أجنبية . ومن الجدير بالذكر أن رجلا مثل القديس كليمنص السكندرى الذى كان يحمل للفكر اليونانى ، على قدر ما تصوره ، ميلا أبعد ما يكون عن النفور ، قد نادى بأن هذا الفكر كان من الأشكال التى اتخذتها العناية الإلهية فى التمهيد للعقيدة الكاملة ، وأن المسيحية هى المعرفة الحقة gnosis .

ولكن ما عرضنا له بالمناقشة فى هذا الفصل ، لا ينبغى أن يؤخذ كما لو كان وصفا ينطبق على كل يونانى ، أو على الفرد من أوساط اليونانيين ، من أبناء العهود المتأخرة من العصر القديم . فالأتقياء الورعون والقديسون الأبرار نوادر فى كل قطر وفى كل زمان ، أما ذوو الاحترام عامة ، ممن يلتزمون عادة بما يتفق أن يكون سائدا من التقاليد الدينية فهم كثيرون . ولا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن الديانات التى ناقشت المسيحية ردحا من الزمن كانت ديانات مدن ، وأن الدين المسيحى ذاته انتشر أساسا بين مجتمعات أشد من ذلك ضخامة . أما الريف فقد بقى فى الغالب الأعم على الحال التى كان عليها دائما ، وذلك فيما يتعلق بالطقوس الدينية المرعية . فبالنظر إلى أن دورة الفصول لم يعترها تغيير أو تبديل وأن أعمال الزراع وشواغلهم ظلت كذلك ، فقد كان طبيعيا للغاية أن يظل جل اهتمامهم منصبا على الطقوس التى كانت عونا لهم ، كما استقر فى عرفهم ، فى مواسم بذرهم

وحصادهم . وهناك ما يدعونا إلى الشك فى أن نفرا كبيرا ممن دخلوا فى أى من المذاهب المتطورة الحديثة، بنظرياتها اللاهوتية المعقدة وخصوماتها المحتدمة ، كانوا يعيشون خارج المدن . ولقد كانت الإلهة « ديميتر » وابنتها ، أو ما كان يوازيهما فى الأوساط المحلية ، كما كانت الحوريات وغيرهن من المعبودات الصغرى ، يستأثرن جميعا أيما استئثار بحب الريفيين .

وكان من نتيجة ذلك، أنه عندما اعتنق، فى النهاية، العالم المتحضر جميعه رسميا الديانة الجديدة ، كان الريف أقل استعدادا لها من الحضر . لقد تغيرت الأسماء ، وحلت الكنائس محل المعابد ، بتحويل المعابد إلى كنائس فى أحوال غير نادرة ، وحرمت الشعائر القديمة بموجب عقوبات صارمة ، غير أن الأنفس قليلة الحظ من التهذيب والتثقيف، والتى نشأت على الإيمان بتعدد الآلهة ، لم تتغير بالقدر الذى أوحت به المظاهر الخارجية . وغنى عن البيان أن القديسين قد تولوا فى أكثر الأحيان وظائف الآلهة والأبطال ، وبذلك حلوا محل المعبودات المحلية الصغرى التى ظهر الشعور بافتقادها حين وفت الطقوس الكنسية الرسمية بحاجات المدن . وثمة حقيقة لا تقل عن ذلك ثبوتا ، وإن صعب الإلمام بتفاصيلها ، وهى أنه قد كتب البقاء لكثير من المعتقدات والعادات القديمة تحت غلالات وأقنعة شفافية . وتبيان ذلك فى إيجاز سيكون من مهمة الفصل الختامى .

الفصل السابع

الآثار الباقية

يندر أن يتطلب موضوع من الموضوعات من الدقة والمهارة فى معالجته ما يتطلبه موضوع بقاء اليونان القديمة فى اليونان الحديثة . فأوجه الشبه بين عادات أهل الريف وأساطيرهم ومعتقداتهم فى الوقت الحاضر وبين أساطير وطقوس العصور القديمة عديدة معروفة ، غير أنه من خطل الرأى أن نزعم كما كان شأن الباحثين زمنا ما ، أن هذه تنحدر مباشرة عن تلك ، ذلك لأنه من الميسور أن نقف على أوجه شبه مماثلة فى بلاد لا تمت إلى اليونان القديمة بأية صلة تاريخية على الإطلاق . فضلا عن أن بلاد اليونان تعرضت للغزو مرات كثيرة منذ ختام آخر عصر من العصور الكلاسيكية (ولنا أن نتخذ ، رغبة فى التيسير، حكم جستنيان ٥٢٧ — ٥٦٥ ميلادية حداً فاصلا) كما أن نسبة معينة من سكانها الحاليين ، تختلف الآراء فى تقديرها ، ليسوا من أصل يونانى . كما تأثرت ثقافتها أيضا تأثرا كبيرا بالصلات الأجنبية وعهود الاحتلال الأجنبي ، وشاهد ذلك تلك الألفاظ الإيطالية والتركية التى تميز ، إلى جانب بضعة ألفاظ سلافية ونتف من مصادر أخرى منها الإنجليزية والفرنسية ، مفردات اللغة اليونانية الحديثة . وعلى ذلك فإن نحن وقفنا فى قرية من قرى الريف اليونانى على شيء يذكرنا بوصف مطابق لكاتب يونانى قديم فينبغى لنا أن نتفحص هذا الشيء جيدا لكى نتيقن من أننا لسنا حيال أحدوثة أو عادة نقلها السلافيون أو الألبانيون أو الإيطاليون أو الأتراك فى زمن ما خلال القرون المضطربة التى انصرمت منذ وفاة جستينيان . ومما زاد المسألة غموضا ، حماس بعض علماء الآثار اليونانيين ، وهو حماس طبعى له مايبرره ، عن حاولوا ، وهم يشعرون عن حق بالفخر بتاريخ أسلافهم المجيد ، أن يبرهنوا على أن كل ما فى بلاد اليونان ، يونانى أصيل . ومع ذلك فبعد تمحيص كل ما يمكن

تمحيصه وإسقاط كل ما يمكن إسقاطه ، تبقى ثمة رواسب صلدة ، قوامها مادة حديثة ؛ هذه المادة الحديثة إما مقطوع تماما بنسبها إلى الفترة الكلاسية القديمة وإما أنها مدعمة بالقرائن بالقدر الذى لا يدع فى واقع الأمر مجالا للجدل فى أصلها القديم . وسوف يقتصر هذا الفصل على إيراد بعض الأمثلة القليلة التى تنتسب إلى هذه الفئة ، مغفلا كثيرا من التأملات الطريفة وجانبا كبيرا مما يستهوى أى باحث فى الفنون الشعبية لقيمته فى حد ذاته بغض النظر عن أصله .

وإننا لا نقف ، كما هو منتظر ، إلا على نزر يسير من آثار الآلهة الكبرى ، فيما عدا شذرات قليلة من المعارف الأثرية التى عرفت طريقها إلى العامة . فهناك على سبيل المثال ، بعض الأثر للإله زيوس فى جزيرة كريت ، إذ ترد إشارات عـــدة إلى قبره ، ولا يقتصر ذلك على الوثائق العلمية فحسب بل يتعداه إلى التقاليد المحلية . وغنى عن البيان أن اسمه قد جرى به شىء من التحريف (فهو الآن زياس Zias) كما أننا لا نقف لقبره على موضع ثابت ، غير أن الرواية تعود على أية حال إلى أخريات العصور الوسطى . ولكنه ينبغى لنا أن نتذكر أن « زيوس » الكريتى هذا كان من بين الأمثلة المفضلة لدى جمهور المدافعين عن العقيدة المسيحية ، للتدليل على النظرية القائلة إن الآلهة الوثنيين إن لم يكونوا فى الحق شياطين من الجن ، فهم آدميون موتى ، كما يجدر بنا أيضا أن نتذكر أن الباحثين البيزنطيين كانوا على علم تام بهذه الحجة .

ومن ثم فإنه يكاد يكون من المقطوع به أن مثل هذه الأساطير الشعبية السائدة اليوم ، قد تسربت إلى الصعيد الشعبى عن دوائر أوسع ثقافة وأشد تفقها ، ولا غرو فبلاد اليونان لم تعدم قط العلماء والباحثين منذ بواكير العصر الكلاسيكى القديم ، وقد كان هؤلاء على جملتهم يعنون بتاريخ بلادهم وتراثها المكتوب . أما أرتميس فهى فى وضع أفضل من ذلك ، إذ أن لدينا من الروايات الموثوق بها والتى تؤرخ من القرن الحادى عشر فصاعداً ، ما يفيد بوجود عقيدة

تؤمن بكائن يدعى « ربة الجبال الصالحة (أو الجميلة) [1] ؛ والقول بأن هذه هى أرتميس قول لا غبار عليه على أقل تقدير . غير أنه يمكن القول بصفة عامة ، إن دعاة الإصلاح المسيحيين أفلحوا فى سحق الإيمان بالمعبودات الكبرى سحقاً تاماً ، حتى إنه ندر أن يكون قد تخلف عنها اسم واحد ، فيما عدا بضعة أسماء قليلة كتبت لها الحياة فى كنف التراث الأدبى الذى أخذ اليوم فى الرواج بين الجماهير ، فالأشعار الشعبية اليوم قد تدعو بين حين وآخر امرأة جميلة بأفروديتى ، أو تتحدث عن لواعج الهوى لدى المحب قائلة . إن ذلك الذى رماه بها هو إيروتاس « Erotas » أى إيروس، كما يمكن أن يطلق اسم إيروتاس أيضا على طفل جميل .

وأهم من هذه بعض المعبودات الصغرى . فإن خارون Charon ذلك الذى لم يكن يمثل فى الأساطير القديمة غير شخصية ثانوية ، هى شخصية صاحب القارب الذى يحمل الموتى إلى مملكة هاديس ، لم يقدر له أن يحتفظ بمكان بارز فحسب (مع تحريف طفيف فى اسمه ، إذ يدعى الآن خاروس Charos أو خاروندا‌س Charondas) بل إنه أصبح فى المعتقدات الشعبية إلهاً من آلهة الموت. والحقيقة أن اسمه يرادف اسم الموت ، أما لفظة « هاديس » فقد باتت فى الوقت الحاضر كما كان الحال إبان المراحل المتأخرة من اللغة اليونانية القديمة ، علماً على مكان معين لا على شخص من الأشخاص . ولكنه قلما كان يصطبر على قيادة قاربه ، بل كان يمتطى ، عوضاً عن ذلك ، صهوة جواد أسحم ، وهناك قصص شعبية لا تقع تحت حصر تصوره وهو يختطف فى غير رحمة أو شفقة الشيب والشبان إلى داره الكئيبة ويتفق فى بعض الأحيان أن تكون له زوج ، وهذه تدعى خاروننيسا Charontissa ، كما أن من أخباره المتواترة دخوله مع أحد الشبان البواسل فى صراع كانت تكتب له فيه الغلبة على الدوام. وقد يحدث بين حين وآخر أن يستعيض عن مباريات المصارعة ، بالدخول فى مسابقات للقفز ، كان يحرز

---

(1) Kalé تعنى فى اللغة اليونانية القديمة « جميل » وفى اللغة اليونانية الحديثة « طيب » .

فيها النصر بقفزة هائلة منه ، وبذا يحصل على الرهان الموعود وهو روح منافسه المقهور . وعلى الرغم من جميع الجهود التى بذلها المعلمون المسيحيون ، فإن أخيلة العامة مازالت تقف من الموت والعالم الآخر الموقف ذاته الذى كانت تقفه زمن هومر ، فدار خارون خلو من كل لذة ، مظلمة ، كئيبة ، ملؤها الخراب ، ينعدم فيها كل وجه من أوجه النشاط المحبب الذى تزخر به الحياة على الأرض . وتقف هذه الصورة جنباً إلى جنب مع الصورة الأخرى المستمدة من تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية ، والتى تناقضها بالطبع كل التناقض . بيد أن هذا التناقض الذاتى ، إنما هو سمة مميزة لأفكار العامة المتعلقة بالعالم الآخر ، بين جميع الشعوب . فاليونانى من العامة شأنه اليوم كشأنه فى الزمن القديم ، مقبل على الحياة راغب فيها بالصورة التى يدركها ، أى الحياة فى الجسد وتحت الشمس التى يألفها ، وقد يكون مقتنعا ذهنياً بخلود الروح وبالثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، ولكن ذلك لا يستأثر من وجدانه باهتمام كبير . وقد يكون لنا أن نتخذ ذلك دليلا على أن أيا من الديانات التى تنادى بالعالم الآخر ، بل تلك التى نالت منها فى النهاية أكبر قسط من الذيوع بين العالمين ، لم تتغلغل تغلغلا بعيداً فى صميم الوجدان الشعبى . ويمكن أن نضرب على ذلك مثلا أو مثلين . ففى أغنية من جزيرة خيوس ، يتفق الراوى عند تسلقه جرفاً رغبة فى بلوغ شجرة تفاح ، أن يحل بساحة من ساحات الدفن وتعثر قدمه بأحد القبور ، فيصدر عن هذا القبر صوت يقول :

أما كنت مثلك شاباً يافعاً ؟ أما كنت بطلا ؟ ألم أكن أسرى بالليل والقمر ساطع وضاء ؟ ألم أكن أحمل سيفا طوله أربعون ذراعاً ورمحا طوله ستين ؟ وبعد كل ذلك تطأ فوق رأسى ؟ » .

كان من الممكن أن ترسم صورة شبيهة بهذه الصورة التى يظهر فيها الميت محتجا على ما يلقاه جثمانه فى قبره من مهانة وازدراء ، فى أى زمن من الأزمان خلال ثلاثة آلاف السنة الأخيرة أو نحو ذلك . وهى لا تحمل أى طابع مسيحى مميز كما أنها لا تدين بشىء لأية فلسفة لاهوتية . أما المقطوعة التالية ، وهى من كيفالونيا ، فهى تمزج بالفعل بين صورة «هاديس» كما تظهر فى بشاعتها الهومرية وبين قليل من مصطلحات الديانة المسيحية :

«أود أن أكون تاجرا ، لأهبط إلى هاديس، وأحمل الثياب للفتيات والأسلحة للفتيان ، والطرابيش التونسية كذلك للوجهاء من العزاب . شبكت ما بين أصابعي وتوسلت إلى خاروس ليعيرني المفاتيح ، مفاتيح الجنة ، حتى أرى كيف حال الشبان ، وكيف تقضي الفتيات أوقاتهن. فوجدت الفتيات وثيابهن رثة، والرجال بغير سلاح ، والأطفال الصغار البائسين لم تستر أبدانهم الثياب قط » .

وقد سبقت الإشارة إلى الحوريات القديمة المعروفة باسم « نيرأيديس » Nereides والحوريات الحديثة التي يطلق عليها اسم «نيرايغديس» Neraïdhes . أما هؤلاء الأخيرات فيمثلن جنيات الريف اليوناني ويتصفن بكل خصائص جنسهن. فهن جميلات مثقفات ؛ وقد يختطفن في بعض الأحيان أطفالا آدميين ، كما عرفن بتحولهن إلى عشيقات لرجال من البشر ؛ وهن متقلبات المزاج سريعات الغضب يخضعن لشتى النزوات والأهواء ، ومن ثم يحسن مخاطبتهن بعبارات الإطراء والمديح . وقد يظهرن للعيان بين حين وآخر ، متميزات بثيابهن البيضاء (والحقيقة أن من بين الأسماء الشعبـــية التي تطلق عليهن اسم « لابسات الثياب البيض » asprophores) . ويحكى عن بعضهن تلك القصة الشائعة عن القابلة الآدمية التي استدعيت لمعونة إحدى الجنيات الحوامل ؛ وتقول إحدى رواياتها إن القابلة (وهي امرأة حقيقية كانت معروفة شخصيا لدى بعض الناس ممن عاشوا في أواخر القرن الماضي) قد استدعيت في منتصف الليل ، وقامت بمهمتها ، ونقدت شيئا أشبه بذهب جني معكوس ، إذ دفع إليها بقطعتين من قشر البصل ، ولكنها اكتشفت عندما عادت إلى البيت انهما كانتا قطعتين من العملة الذهبية التركية . وقد كن مولعات كذلك بذريتهن ، رغم أن هذه الذرية قد تبدو بالقياس إلى القيم الخلقية الإنسانية كريهة مقيتة بشكل ملحوظ ، ويستدل على ولعهن هذا بالقصة التي تروى عن لقاء أحد القساوسة بإحدى الميليغانات Milighanes كما تسمى « النيريغديس » في بعض الأحيان . فقد تقدمت منه وهو راكب بغله وطلبت إليه أن يأذن لطفلها بالركوب ، فأجابها إلى طلبها . وعند ذاك جمح البغل ، فسارع القس عن حكمة بالغة إلى حماية نفسه برسم شارة الصليب ، وولى وجهه شطر كنيسته لا يلوي على شيء،

ولم تجرؤ الميليغانا على أن تتبعه إلى داخل الكنيسة . ثم أمكن الوصول إلى اتفاق، إذ رد الطفل إلى أمه ، على شريطة أن يحفر الميليغانات بئرا ويقمن بستانا للكروم، وقد أوفى الطرفان ببنود الاتفاق فى أمانة وصدق .

فى هذه الأقصوصة التى كانت أو ما زالت تروى فى ميستا Mestà بجزيرة خيوس ، نقف على الصراع القائم بين القوى القديمة والقوى الحديثة. على نحو يألفه كل من تصفح الأدب المسيحى فى مراحله المبكرة فى موضوع قوى الظلام (أو « الخارجين فى الظلمة » كما يعرفون فى اللغة اليونانية الدارجة الحديثة) . ولكنه يبقى أن نجيب عن هذا السؤال، وهو : هل ترجع «النيرايغديس» أو «الميليغانيس» أو ماشئنا أن نختار لها من أسماء شعبية أخرى ، إلى أصول يونانية قديمة عريقة ، بمعنى كونهن خليفات ليس « للنيريديس » Nereides فحسب بل للحوريات أيضاً nymphes ؟ لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن ثمة شخوصا شابهة تظهر فى الآداب الشعبية لأكثر من شعب واحد من شعوب البلقان ، غير أن مواقف النيريغديس فى انتسابهن إلى أصول هلينية أثبت وأقوى . فالواقع أن كل الأعمال والصفات التى تنسب إليهن ، نجد لها ما يضارعها فى العصور القديمة .

فقد تلعب الحوريات فى بعض الأحيان دور العرائس الجنية وتزف إلى آدميين (فإن دافنس : نصف الإله الذى تحكى به الأساطير اليونانية فى صقلية ، قد هامت به إحداهن ، وأصابته بالعمى حين تبينت خيانته لها) ؛ وهن ذوات حسن طاغ ؛ وقد يختطفن الإناس فى بعض الأحيان ، وإن كان لا يبدو أنهن يختطفن الأطفال الرضع ويضعن فى مكانهم أطفالا من الجن كما يفعل النيريغديس فى بعض الأحيان . وفى وسعهن أن يمسسن الناس بالجنون ، وإن كان فى مقدورهن كذلك شفاء العلل والأسقام ، وذلك إذا ماقربت لهن القرابين الصحية ، ومما يقال إن الأرواح فى العصر الحديث تقوم بنشاط مماثل .

ويحمل فى هذه الحالة الأخيرة أن تقدم للأرواح قرابين من فطائر الشهد أو أية حلوى مماثلة ، وقد تصادف أن كانت هذه من القرابين الشائعة فى العصر القديم : ويميل النيريغديس أشد الميل إلى سكنى الآبار ، بمعنى أن طباعهن كانت قريبة الشبه من طباع حوريات الماء القدامى أو ما يعرفن باسم النياديس Naiades .

ومن بين الكائنات التى تخلفت أيضاً عن العصور القديمة ، كائن يتميز بالشر المطلق ، هو الغول[1] Ghellou ويعرف فى اللغة اليونانية القديمة باسم جيلو Gello ، ويتمثل فى جنية مخيفة اعتادت سكنى دور الحضانة اليونانية منذ زمن يعود إلى القرن السابع ق . م ، وكان يعتقد أنها تتسبب فى موت الأطفال موتا مفاجئا ، وأنها تنتقم بذلك لموتها المبكر . أما اليوم فإنه يبدو أن الغول أو الغيلان Ghelloudhes ، ذلك لأن هذا الكائن — شأن معظم الكائنات الغامضة — يدعى تارة بالمفرد وتارة بالجمع ، قد أصبحت تغتال بوجه خاص الوالدات الشابات إذا ما أمكنها التحايل على دخول البيت بأية أحبولة .

وأهم من ذلك الكائنات المعروفة باسم « مويريس » Moires وهذه كانت من أغوال الولادة فى العصر القديم ، ومما يذكر عنها أنها تزور حجرة الولادة وتقرر مصير الطفل الوليد . وهذا هو حالها اليوم ؛ فهى تزور الدور التى تقع فيها حالات للولادة — وتأتى فى أيجينا فى اليوم الثالث وتعد لها وليمة بهذه المناسبة ضمانا لاعتدال مزاجها — وتقع زيارتها عادة بعد حلول الظلام ، وقد تبكر عن ذلك فى بعض الأحيان إذا ما كانت الوالدة نائمة ولا أحد فى الحجرة سواها .

وتختلف أوصاف العامة لها ، وإن بدت فى الغالب متأثرة بالأساطير القديمة وبموضوع الغازلات التقليديات الثلاث كما يظهرن فى فنون التصوير المختلفة ، إلا أن هذه الأوصاف تثبت فى بعض الأحيان تحررها الكامل من كل هذه المصادر الثقافية ، كما هو القول الراجح فى حقيقة الأمر . وتظهر فى بعض الأماكن علامات يمكن الاستدلال بها على ما قدرته « المويريس » للطفل من حظ سعيد أو تعيس . ويمكن استحضار المويريس فى أخريات الحياة . وإليك على سبيل المثال قصة الوصيفة الجميلة التى كانت تحسد سيدتها القبيحة . فقد صعدت بها السيدة إلى سطح

---

(١) فى اللغة العربية ، كل ما اغتال الانسان فأهلكه فهو غول (المترجم)

المنزل فى المساء وهناك قالت : « ياموريس ، ياموريس ، دعن « مويرتى » تأتى إلى » ، فظهرت « المويرة » فى صورة فتاة جميلة بهية الشباب . وعندئذ أمرت الوصيفة بأن تتلو هذه التلاوة ذاتها ، فبدت « مويرتها » على هيئة عجوز شمطاء منفرة مهلهلة الثياب . وبذلك تبينت الوصيفة علة ما هى عليه من ضعة الشأن ، ورضيت بحالهـا . وثمة قصص أخرى تجرى على هذا المنوال ، وفى بعض هذه القصص نلحظ أن حظ (Tyche) الشخص وليس «المويرة» هو المعنى المقصود .

والأمر هنا يتجاوز حدود البقاء المجرد لأثر من معتقد أو أسطورة . فقد تخلف للموريس شىء من طقوسها ، وهناك ما أشبه بالصلاة أو التلاوة التى يستعان بها عند الحاجة إليها ، ذلك لأن الكلمات التى تنطق بها كل من السيدة والوصيفة هى على السواء صيغة من الصيغ الشعرية الشهيرة المعروفة . كما أن الحظ Tyche لم يفقد أيضا كل ما كان له من أهمية فى الزمن القديم ، رغم إصرار علم اللاهوت ودعاته الرسميين على أن شيئا من ذلك لم يكن له وجود فى عالم القوى وأن كل شىء مرهون بمشيئة الله الواحد الأحد . ومن الحقائق الطريفة أيضا أن هناك أفراداً من المويريس والتوخيس Tyches . ومن الميسور أن نعود بأصل هؤلاء إلى نظريات العالم القديم عن الأرواح والشياطين ، وهى التى كانت تنادى فى الغالب بأن لكل إنسان روحا daimon خاصة تسهر عليه وتراقبه . وقد اودعت هذه النظريات ذخيرتها أيضا فى النظريات المسيحية المتعلقة بالملائكة ؛ فالملائكة الحارسة جزء من تعاليم الكنيسة الأرثوذوكسية ، كما أن الناس يؤمنون بها إيمانا راسخا . وهكذا نرى أن ثمة نظرية من النظريات الفلسفية التى قدر لها أن تحظى فى العصور القديمة بإيمان يكاد يكون عاما ، قد بلغت عقول أهل الريف فى العصر الحديث عن طريقين مختلفين أحدهما رسمى والآخر شعبى .

وأهم من ذلك أيضا تلك القطاعات الكبيرة من طرائق الحياة التى يمكن أن ترجع بأصولها فى شىء قليل أو كثير من اليقين إلى الزمن القديم ، وقد سبق أن ألممنا بموضوع الميلاد وطقوسه ، أما الآن فمن المجدى أن ننظر فى الأزمتين الكبيرتين

الآخرين وهما الزواج والموت بحثا عن تلك النواحى التى تتشابه فيها تقاليدهما مع العادات القديمة ، والتى يمكن أن نعتبرها فى شىء من الصدق من الآثار الباقية المتخلفة عن العصر القديم .

أما فيما يتعلق بالحدث الأول ، فتجدر الإشارة إلى أنه ، ســـواء بالنسبة لليونانيين المحدثين أو بالنسبة لأى شعب أوربى آخر ، فإن القداس الدينى الذى يقام فى كنائسهم إنما هو طقس دخيل لا يمثل جزءا حقيقيا من مراسيم الزواج ، بل هو طريقة معقدة لإنزال البركات على المراسيم — أو ما تبقى منها — التى تؤلف الزفاف الحقيقى . وهذه بدورها قد أثقلت بحشد كبير من العادات التى لا تمت ، فيما نعلم ، بصلة إلى أى شىء قديم ، حتى إنه يكاد يكون من العبث أن نحاول التقاط شذرات من العادات القديمة من بين أكداس من العادات الأقرب منها عهدا ، رغم أن الجانب الأعظم من الطقوس الشعبية التقليدية التى تصاحب أعراس الريف اليونانى ، ليست بلا ريب حديثة النشأة أو وليدة الأمس ، ولعل قسطا كبيرا منها يتجاوز حدود ما نعلمه ، قديم الأصل ، ذلك لأن حظنا من المعلومات الخاصة بالمراسيم القديمة ضئيل ، حتى بالنسبة لأثينا ذاتها ، وناهيك عن الأماكن الأخرى التى لا تدانيها شهرة . فالغناء على سبيل المثال وهو من الملامح المعهودة للأعراس فى الأزمنة الحديثة ، يقوم به مغنون وعازفون محليون ، ويتضمن كلمات المديح التقليدية المحكمة لكل من يعنيهم الأمر ولاسيما العروسين الشابين بطبيعة الحال ، ويقع قبل يوم وليلة الزفاف الفعليين وبعدهما كذلك . ولكننا نكاد نبلغ حد الشطط إن افترضنا أن هذا الغناء ينحدر مباشرة عن أغانى الزفاف فى العصر القديم ، وأشهرها « الإبيثا لاميون » epithalamion التى عرفت طريقها إلى الأدب ، ومن ثم تيسر لنا أن نلم من أشعار سافو وثيوكريتوس Theokritos بطرف من مضمونها ، فقد كانت تزجى المديح للعروس والزوج وتغنى خارج غرفتها . والحقيقة أن الجانب الأعظم من أغانى الزفاف فى العصر الحديث تقليدى قديم ، غير أن أوزانه وصياغته وقوالبه الشعرية ، تكشف جميعها فى وضوح عن حداثته ، فهى لا تحمل أثراً لأى شىء مستمد من مصادر قديمة أو حتى من

مصادر تعود إلى مستهل العصور الوسطى . ومن ثم فلا يسعنا إلا القول بأنه من الجائز إلى أقصى حد أن تكون هذه العادة قد استمرت ، مع تغير شكلها الخارجي تدريجيا ، تبعا للتغيرات التي اعترت اللغة والمفاهيم المتعلقة بأسس علم العروض وخصائص الأسلوب الشعري .

وربما كان أقوى من ذلك دليلا عادة نثر الأرز وقطع النقود والحلوى فوق هامتي الزوج والعروس، ولعل هذا أثر من آثار العادة القديمة المعروفة باسم katachysmata غير أن عادة إلقاء شيء من هذا القبيل فوق أو في اتجاه العروسين لهي عادة تبلغ من الذيوع والانتشار حدا لا يستبعد معه أن تكون قد انتقلت إلى بلاد اليونان من أي مصدر من عدد غير قليل من المصادر . وفي مثل هذا الضرب من العادات كافة التي تكني عن أفكار شائعة بين جانب كبير من الجنس البشري (ولعلها في هذه الحالة ترمز إلى تمني الخصب للزوجين بقدر ما للبذور من خصب ، وتدعو إلى أن تكون حياتهما رضية هنيئة ، كما تشير إلى ذلك قطع النقود والحلوى) ينبغي أن نضع في الاعتبار على الدوام أننا قد لا نكون حيال أثر حقيقي ، بل بعث يكاد يكون لاشعوريا للقديم . وربما كان أعظم من ذلك مغزى ما يلاحظ بين حين وآخر في الأعراس اليونانية الحديثة من وجود غلام صغير في رفقة العروس . وقديما جرت العادة في جزيرة خيوس أن ينام هذا الغلام مع العروس في الليلة السابقة على الزفاف ، وكان يشترط فيه آنذاك كما هي الحال حتى وقتنا هذا ، أن يكون أبواه لا يزالان بعد على قيد الحياة ، بمعنى أن تشتم منه ، إن جاز لنا هذا التعبير ، رائحة الخصب والنماء والحياة العائلية السوية ، دون رائحة الموت بأية حال من الأحوال : أما اليوم فإن هذا الغلام يظهر — في الحالة الوحيدة التي عرضت لي (وذلك في أوليمبوي Olympoi بخيوس) — ملازما لكل من العروس والزوج في روحاتهما وغدواتهما . وثمة نقطة تفصيلية أخرى ، لا توحي بجزء من طقس قديم ، وإنما تكشف عن كفاية أدبية قديمة مشهورة ، لا يستبعد على الإطلاق أن تكون قد كمنت وراءها طقوس معينة . إذ تشتمل احتفالات الزفاف في أماكن عدة على فاصل من التمثيل الإيمائي التقليدي الذي تجري فيه محاكاة ساخرة لعمليتي الحرث والبذر . غير أن الحرث،

فى اللغة اليونانية القديمة ، إنما هو تعبير شائع معروف يكنى به عن الجماع . وفضلا عن ذلك فإن من السمات الأخرى لمراسيم الزفاف الحديثة بكاء العروس ، بكاء تقليديا منتظما ، سواء فى أثناء قيام الفتيات من قريباتها أو صديقاتها بتزيينها ، أو فى أية لحظة أخرى ، إذ تختلف العادة فى ذلك وعلى أية حال ، فمثل هذا التظاهر بالبكاء يعد من السلوك السليم للفتاة يوم زفافها أو قبيله . وقد بلغت هذه العادة من الذيوع والرواج فى الزمن القديم ، أن أصبح البكاء « كما تبكى العروس » مثلا سائرا وقولا مأثورا ؛ والعلة الأولى لهذه العادة ، تكمن — فى أغلب الظن — فى كونها جزءا من مشهد التمنع والإحجام الذى يليق بكل شخص ، رجلا كان أو امرأة أن يؤديه عند هجره لأسرته الأصلية . فلا ينبغى أن يشعر آلهة البيت أو أرواح السلف أنه قد ازدرى بهم أو أن حماهم قد ترك فى غير اكتراث من جانب فرد من أفراد الأسرة وخاصة إن كان هذا إحدى كريمات البيت التى لا يقدر أن تعود إليه أبدا . ومع ذلك فإنه من الدقائق الأخرى التى نقف عليها هنا وهناك ، مشهد رسمى ويقدم فيه الزوج لعروسه ، تصحبه محاكاة وهمية رسمية لتجريدهما من الثياب ؛ وفى بورغوى Pyrghoi بخيوس يرفع جزء من ثوب العروس ، ومن « البوضيا » podhia كذلك التى يرتديها العريس ، وهى أشبه بميدعة ، تؤلف جزءا من زى الرجال القديم فى تلك الجزيرة . وإننا لنعلم أنه فى مناطق عدة من بلاد اليونان القديمة ، كان من مراسم الاحتفال « رفع نقاب » العروس ، على أساس من الافتراض السليم فيما يبدو بأن الزوج الشاب لم يكن بعد قد طالع محياها . وهناك فضلا عن ذلك بعض المناطق التى لا تزال اعتبارات اللياقة فيها تحتم على الزوج ورفقته زيارة العروس فى المساء واصطحابها إلى بيته وسط التهليل والغناء ، وغير ذلك من مظاهر الابتهاج . وإن هذه العادة ، التى لا تعدو فى الوقت الحاضر ضربا من التهريج والمزاح ، لحقيقة بأن تعد أثرا باقيا من العصور التى كانت تمثل فيها بالفعل الطقس الرئيسى للزفاف . وهى مستقلة ، بل إن لها الأسبقية فى واقع الأمر على المراسيم التى تقام فى الكنيسة والتى تعد فى الوقت الحاضر ، بطبيعة الحال ، المراسيم الملزمة التى يعترف بها القانون والرأى العام .

ويتضح مما تقدم أنه بوسعنا، إذا ما دققنا فى هذا الموضع أو ذاك، أن نكتشف على أدنى تقدير آثارا محتملة لطرق إجراء الزفاف كما كانت فى الفترة السابقة على المسيحية . ولكنه إن ثبت أن كان ديدن هذه المراسيم هو الحفاظ على تقاليد الأقدمين ، فإن تلك التى تتصل بالموتى لهى أشد منها إمعانا فى ذلك رغم كل ما قد يطرأ على النظريات المتعلقة بالعلم الآخر من تغييرات . فليس ثمة وجه للعجب ، إذن ، إذ نحن علمنا أن الاعتقاد هو أن الروح تبارح الجسد عن طريق الفم، شأن النفس تماما.

والحقيقة أن هذا الاعتقاد لا يحمل أى طابع يونانى متميز ، فاليونانية لا تعدو كونها لغة واحدة من بين كثير من اللغات التى تستخدم — للدلالة على «الروح» soul والنفس spirit — كلمات ترتبط من حيث الاشتقاق اللغوى بالكلمات التى تعنى الريح والنفس[١] . ومع ذلك فلا بأس من اعتباره معتقدا يونانيا حين يظهر داخل المنطقة اليونانية . وعلى الرغم من أن الشعور العام الذى يتعلق بمصير الروح عندما تصل إلى العالم الآخر ، قد تأثر بطبيعة الحال بالتعاليم الكنسية، فضلا عن عوامل أخرى يتعذر إرجاعها إلى العصور القديمة ، إلا أنه يحمل بين طياته الكثير مما يعد مألوفا لا غرابة فيه فى نظر اليونانى القديم . فلم يعد قضاة الموتى، كما فى الأساطير الكلاسيكية القديمة (الآثينية منها على أقل تقدير) هم الملك أياكوس Aiakos ملك أيجينا العادل والملك مينوس Minos ملك كريت ، ثم شقيقة رادامانثوس Rhadamanthys ، غير أن مجلس القضاء لا يزال فى بعض الأماكن ثلاثى التشكيل . فالقضاة هم الله ومريم العذراء والحواريون ، كما لا ينبغى أن نسقط من حسابنا تماما عامل الثراء فى الحياة الدنيا ، فقد جاء على لسان أفلاطون أن الشيخ العجوز كيفالوس Kephalos أوضح لسقراط كيف أنه من الخير للمرء أن يكون فى سعة من العيش إذا ما قضى حياته فى صلاح واستقامة . فمعنى ذلك أن ليس ثمة ديون من أى نوع ستكون فى عنق الشخص المحتضر ، فقد سوى حسابه مع دائنيه من البشر كما أنه قدم للآلهة أيضا قرابينها الواجبة . ولم تضطره

---

(١) كما هو الحال فى اللغة العربية . (المترجم)

الحاجة إلى خداع أى منهما ، ومن ثم فبوسعه أن ينتقل فى حبور إلى العالم الآخر . أما بالنسبة للقروى فى العصر الحديث ، فقد اتخذت هذه الفكرة قالبا مسيحيا ؛ فإذا ما كان الراحل ثريا ، فلن يعدم الوسائل التى تمكن من إقامة المأتم اللائق له وصلوات الجنازة الواجبة على روحه . وكلما كانت معاصى المرء قليلة كان احتضاره أقل مشقة وجهد ، ذلك لأنه من الأسباب الرئيسية فى طول النزع الأخير أن يرفض شخص ما الصفح عن المظالم التى ارتكبت فى حقه ، وغنى عن البيان أن الامتناع عن تسديد الدين إنما هو من أكثر المظالم شيوعا ، بل هو من أشدها كذلك إثارة للمقت والكراهية .

أما الجنازة الفعلية ، فثمة نواح تتصل بها يجوز لنا أن نقول إنها انحدرت عبر العصور دون تغيير أو تبديل ، فما زالت طقوس إسبال جفنى الميت قائمة (ويشترط أن تقوم بذلك إحدى قريباته) وتكفينه فى كفن أبيض وتشييعه إلى القبر حاسر الوجه فوق نعشه ، كما كان يحدث فى بعض الأحيان فى انجلترا زمن شكسبير . بيد أن أقدم طقس آل إلينا ، هو كذلك من أطرف الطقوس وأروعها مشهداً ، ففى معظم أنحاء الريف (وإن كانت هذه العادة فى سبيلها إلى الاندثار فى بعض المناطق على أقل تقدير) تجرى الأمور على النسق ذاته الذى جرت عليه فى جنازة هيكتور كما جاء وصفها فى ختام الإلياذة ، فإن المشيعين من كلا الجنسين ، والنساء منهم على وجه الخصوص ، يأخذون فى ندب الميت وتأبينه بكلمات مرتجلة فى بعض الأحيان ، وقد تكون منظومة ، إذا ما كان الخطيب أو على الأرجح المنشد على قسط من المهارة يكفل له نظم مايقول شعرا ساعة إلقائه أو قبل ذلك وتتبع هذه المنظومات قوالب الشعر التقليدية فى بعض الأحيان ، وتتألف عادة من بيتين إلى أربعة أبيات ، ولكنها قد تتجاوز ذلك أحيانا إلى قصائد أشد طولا وأعظم فحولة ، وهى تزخر فى الغالب بصور خيالية بالغة الروعة . وهذه المراثى حديثة فى لغتها ، لاتحمل من غريب اللفظ أو مبتذله سوى النزر اليسير ، إن لم تكن غفلا منه تماما ، كما أنها تنحو كذلك فى صياغتها الشعرية نحو التراث الشعبى الحديث ، ولا تدين بشىء مؤكد إلى الزمن القديم . وكيفما كان الحال ، فإن تلك

العادة فى حد ذاتها ، تنحدر ، فى سلسلة متصلة الحلقات فيما يبدو عن أقدم العصور التى تناهى إلينا عنها ولو أقل القليل من المعرفة ، ليس ذلك فحسب ، بل إن معظم مادة الرثاء (moirologhia) مستمدة من ذات المكان التى استمدت منها نساء هومر النائحات مادتهن ، وهى فضائل الراحل وأحزان من تركهم بعده وغير ذلك من أمثال هذه الموضوعات المألوفة .

وتوحى لنا إحدى العادات الجنائزية الأخرى بالأصل الذى نشأ عنه اعتقاد قديم . فإنه من المعهود اليوم ، وكان معهوداً فى الزمن القديم استخدام الماء بوفرة فى أثناء الدفن . ولعل منشأ هذه العادة ومردها الأول هو إلى تلك الفكرة البالغة القدم التى تقول إن الموت شىء مادى ، أشبه بمادة لزجة ضارة من شأنها أن تلتصق بمن يدنون من الجثة بل من الشخص المحتضر دنوا شديداً .

والوسيلة المباشرة وإن بدت بدائية ساذجة ، لعلاج ذلك ، هى أن تغسل هذه المادة من الأشخاص الذين اقتضتهم فروض الواجب أو دواعى المحبة إلى التورط فى مثل هذه المخالطة الوبيلة ، وكذلك من الأشياء المحيطة أيضا . مثال ذلك ما نعلمه من أنه فى زمن يوريبيديس ، وإلى عهد بعيد قبله وحقبة طويلة بعده دون ريب ، جرت العادة على أن يوضع إناء من الماء عند باب البيت الذى تقع فيه الوفاة . وتختلف الأساليب الحديثة المتبعة فى ذلك من مكان إلى آخر ، فمن صب إناء من الماء على الأرض إلى رش المياه ، المعطرة فى الغالب ، على الجثمان ذاته وقت نقله إلى القبر ، ولكنها تتفق أساسا فى استخدامها للماء . ولعلنا نذكر أن العالم السفلى القديم كانت تفصله عن هذا العالم مياه من نوع أو آخر ، يتحتم على الروح أن تعبرها لتصل إلى مثواها الأخير . وليس ببعيد الاحتمال فيما يبدو أن يكون مثل هذا الاعتقاد قد نشأ عن عادة استخدام المياه فى الجنازات وكيفما كان الحال ، فلا بأس من اعتبار هذه العادة فى حد ذاتها — بالنظر إلى أنها توجد فى كل من الطقوس القديمة والحديثة دون تغيير جوهرى ، وبالنظر إلى أنها لا تمت بصلة إلى التعاليم المسيحية الرسمية — أثرا باقيا متخلفا عن القديم وليس بدعة مستحدثة أو عادة مجتلبة .

وإذا ما نحينا جانبا اعتقادا أو اعتقادين لا يبدو أنهما يصدران عن أى تصور يونانى قديم ، وإنما يرجعان إلى عادات ومذاهب كانت شائعة معروفة فى مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية أو فى شطر كبير منها، فقد نلاحظ ثمة تشابها كبيراً بين التواريخ القديمة والحديثة التى تقام فيها طقوس فى ذكرى الموتى . وبحصر المعلومات المستقاة من مناطق شتى ببلاد اليونان نجد أن إحياء الذكرى يقع فى الوقت الحاضر فى اليوم الثالث والسادس والتاسع والأربعين من الوفاة، وكذلك فى آخر يوم من الشهر الثالث والسادس والتاسع ، إلى جانب احتفالات الذكرى السنوية . ونحن نعرف من الأسماء التى كانت تطلق فى العصر القديم على هذه التواريخ الاسمين الأولين (وهما تريتا trita وإيناتا enata على التوالى) والاسم الموافق للتاريخ الثالث ، غير أن القدماء كانوا يستخدمون اليوم الثلاثين بدلا من الأربعين .

أما السبب فى حدوث هذا التغيير ، فذلك ما لا ندريه ، وإن كان يرجع فى غالب الظن، إلى ما للرقم أربعين من أهمية وخطر فى التراث العبرى الذى تقوم على أساسه طائفة كبيرة من العادات المسيحية . وكانت الاحتفالات الجنائزية الشهرية تقام فى بعض الأحيان ، فى العصر القديم ، كما أن الاحتفالات السنوية كانت شائعة معروفة ، ولقد سبق أن ذكرنا احتفالات الجينيسيا genesia التى كانت تقام فى أثينا وفى غيرها من البلاد . وعلاوة على ذلك ، تقضى العادات والتقاليد فى الوقت الحاضر ، أو كانت تقضى فى الماضى ، بأن تقام فى أثناء الجنازة ذاتها، وبعد دفن الجثمان وليمة زاخرة للغاية ، كتلك التى عرفت عن العالم اليونانى والرومانى القديم منذ أقدم العصور التاريخية . وكانت هذه المأدبة تضم صنفا من الطعام لا يتغير ولا يتبدل ، ويحتل مركز الصدارة فى المراسيم الأخرى المتعلقة بالموتى ، وهو « الكلوفا » kollyva وهى لفظة قديمة تعنى فى الوقت الحاضر « البليلة » أى قمح مسلوق ، تضاف إليه عادة بعض المواد الأخرى لتحسين مذاقه ، ولكن هذه ليست مواد أساسية بل ثانوية . ولعل هذه الطريقة التى تعتبر من أوضح الطرق وأيسرها لإعداد حبوب سائغة

صالحة للأكل ، تعود إلى عهد أقدم إلى حد بعيد من العهد الذى اكتشفت فيه طريقة صنع أى نوع من الخبز ، وتظهر هذه الطريقة بشكل أو آخر فى الطقوس الشعبية الدارجة بمختلف أنحاء أوربا ، غير أننا إذا ما عثرنا عليها فى بلاد اليونان فلا حاجة بنا إلى أن نبحث لها عن أصل آخر سوى أنها تقليد موروث عن أسلاف من يصنعون هذا الصنف من الطعام فى الوقت الحاضر ويتناولونه بصورة طقسية رسمية .

ومن ثم يتضح لنا أن عددا ليس بالقليل من شذرات الطقوس التى يقطع بقدمها أو التى يرجح أنها كذلك ، إنما تكمن بين أضواء الحياة الحديثة . ومع ذلك ، فإن أبرز أثر تخلف عن العالم القديم فى بلاد اليونان ، كما فى غيرها من أقطار البحر المتوسط ، يكمن فى الموقف الشعبى (بخلاف الموقف الرسمى) من المواضع الصغرى للعبادة فى العقيدة المسيحية . ولاهوت الكنيسة اليونانية يطابق فى جوهره لاهوت الكنائس الغربية ، فهو مذهب توحيدى فى أنقى صوره وأسمى أطواره. فليس هناك سوى كائن واحد يحل أن توجه إليه العبادة بكل معانيها . غير أن الكنيسة اليونانية ، شأنها فى ذلك شأن عدة كنائس أخرى ، تبيح موقفا من الإجلال العميق تجاه عدد من القديسين ، ممن كانوا أمثلة بارزة على التقوى المسيحية فى الماضى ، الرسل والشهداء ومريم العذراء أولا وقبل كل شىء . ويحل للمرء تماما أن يكن لأى من هؤلاء التقوى والورع وأن يطلب شفاعتهم بل إنه من المعتقد فضلا عن ذلك ، أن الكثيرين منهم ، إن لم يكونوا جميعا قادرون بفضل البركة الممنوحة لهم ، على القيام بشتى المعجزات كشفاء المرضى مثلا. وعلى ذلك فإن مراعاة الأسلوب الواجب فى مخاطبتهم يعد من صميم العبادة الرسمية ذاتها . ولكن ذلك يبدو على أوضح صورة له فى التقاليد الشعبية ، وهو ما انتهيت إليه بعد كل ماصادفته من الصلوات والترانيم التى وضعها أفراد من الشعب والتى لا تنسب إلى القداسات الكنسية . وقد جرت العادة على أن توجه هذه الصلوات والترانيم إلى واحد من القديسين ، أما فى غير ذلك من الأحوال فتوجه إلى السيدة العذراء وتحمل فى أغلب الأحيان عنوانا معينا . فعذراء Panaghia

هذه الكنيسة أو تلك من الكنائس التى قد تكون مغمورة غير نابهة الشأن هى التى يطلب إليها أن تحقق كل ما يشاؤه الضارع من طلبات .

وقد تتحول العذراء فى بعض الأحيان ، كما هو الحال مع مواضع العبادة التى تتمتع بشعبية كبرى ، إلى إلهة للحرب ، فليس ثمة مايدعو إلى الشك فى أن للقصص التى تروى عن الجنود اليونانيين الذين ظهرت لهم العذراء فى رؤى وهى تقودهم ضد الغزاة الإيطاليين فى الحروب الأخيرة ، نصيباً كبيراً من الصحة . وقد يجنح بعض القديسين الآخرين كلما دعت الحاجة إلى التخصص فى وظائف معينة ، ترشدنا إليها أسماؤهم فى بعض الأحيان . على أن نستعين فى ذلك باشتقاقات لغوية لا تقل تطرفا أو جموحا عن أى من الاشتقاقات التى استخدمت فى الزمن القديم .

فالقديس إيزيدور Isidore على سبيل المثال ، (إيزيذوروس Isidhoros فى اليونانية) يوحى لمسمع العامة بكلمة « الحديد » زيذيروس sidheros ، ومن ثم يطلب إليه أن يجعل الشخص المريض « قويا كالحديد » . ويتحول القديس فوتيوس Photios من وقت لآخر إلى أنثى تحمل اسم فوتيا Photia ، وهى اللفظة الشائعة فى الوقت الحاضر للدلالة على « النار » ، وتنسب إليه قوات عظيمة فى الوقاية من النيران بما فى ذلك بنادق العدو ومدافعه . أما القديس اليوثيريوس Eleutherios ، أو ليفتيريس Lefteris كما يدعوه العامة ، ففى مقدوره ، كما يستدل من اسمه أن « يحرر » أو « يخلص » ، وفى استطاعته على وجه الخصوص معونة المرأة فى ولادتها ، وهى خدمة كثيرا ما يطلب إليه أداؤها . ولقد سبق أن أشرنا إلى القديسين كوزماس Kosmas وداميان Damian ؛ وهما ليسا بحال القديسين الوحيدين اللذين توليا مهام اسكليبيوس ، كما أن من بين أقرانهما قديساً مشهوراً فى موتيليني يحمل اسما على مسمى وهو ثيرابون Therapon أى « الشافى » . وعلى غرار أسكليبيوس أيضا ، فإن هؤلاء القديسين الشافين غالبا مايحثون من يلوذون بهم طلبا للعون ، على المبيت فى كنائسهم حيث يوافونهم إما برؤى للنطاسيين السماويين ، وإما بنصيحة طيبة للعلاج ، وعادة مايتلقون مثل اسكليبيوس القرابين والنذور وغير هذه من تذكارات الشفاء التى يقدمها المرضى الشاكرون . وإن هذه الحقيقة وكثيراً

غيرها ، لتذكرنا بأنه ما زال يكمن وراء التسليم باللاهوت المسيحى ، ذلك التسليم الذى يتسم عادة بالغيرة والحمية ويصحبه التزام صارم بالفرائض الدينية المعقدة التى ترتبط بالعشاء الربانى فى العقيدة الأرثوذوكسية ، قسط ليس بالهين بين البسطاء السذج من الناس ، من العقلية المرتطبة بالديانات المشركة التى تؤمن بتعدد الآلهة .

وهكذا تتبعنا ، فى عرض بالغ الإيجاز ، تاريخ الديانة اليونانية السابقة على الديانة المسيحية ، منذ أقدم أشكالها المعروفة إلى الآثار التى لم تزل باقية منها حتى يومنا هذا أو إلى عصور قريبة أما من أراد أن يحيط بالموضوع إحاطة أكثر شمولا فعليه بالرجوع ، فى المقام الأول ، إلى المؤلفات المدرجة فى ثبت المراجع .

المراجع

المؤلفات التى تناولت الديانة اليونانية تبلغ حداً بعيداً من الضخامة ولم تبذل هنا أية محاولة لإيراد ثبت كامل بالمراجع ، ولكن المؤلفات التالية ، وكلها بالإنجليزية ، مفيدة نافعة .

(١) الأصول والتاريخ المبكر :

Harrison, Jane Ellen. Prolegomena to the Study of Greek Religion. 3rd edition, Cambridge, 1922.
Themis, a Study of the Social Origins of Greek Religion. 2nd edition, Cambridge, 1927.

مادة طريفة مبتكرة ولكنها تحوى عادة محاولات غير مأمونة فى التحليل والتفسير فى ضوء عادات الشعوب المتخلفة .

Marett, R.R. (editor). Anthropology and the Classics. Oxford, 1908.

مقالات بأقلام كتاب عدة تتناول همزات الوصل بين العقائد القديمة المعروفة ومثيلاتها فى الثقافات غير الكلاسية .

Murray, G.G.A. Five Stages of Greek Religion. Oxford, 1925.

يسير هذا الكتاب ، على نحو ما ، على نهج مؤلفات مس هاريسون ، فيما يتعلق بالفترة المبكرة .

Rose, H.J. Primitive Culture in Greece. London, 1925.

(٢) الديانة الكريتية وآثارها الباقية :

Nilsson, M.P., The Minoan-Mycenæan Religion and its Survival in Greek Religion, Lund, London, Oxford, Paris and Leipzig, 1927.

كتاب عمدة .

(٣) الديانة اليونانية القديمة :

Farnell, L.R. Cults of the Greek States, 5 vols., Oxford, 1896-1909.

Farnell, L.R. Greek Hero-Cults and Ideas of Immortality. Oxford, 1921.

الكتابان السالفان من أكثر الكتب الإنجليزية استيعابا وشمولا ، وهما من بين أفضل الكتب التى ألفت فى أية لغة من اللغات. أما الكتب الأقل حجما فهى:

Farnell, L.R. Outline history of Greek Religion. London, 1920.

عرض موجز جيد للغاية . أما قائمة مراجعه ، فعلى الرغم من أن المؤلف أحسن اختيارها إلا أنها تعد الآن قديمة متخلفة .

Nilsson, M.P. A History of Greek Religion, trans.
F.J. Fielden. Oxford, 1925.
Nilsson, M.P. Greek Popular Religion. New York, 1940.
Nilsson, M.P. Greek Piety. سيصدر قريبا (Oxford).

(٤) معبودات معينة :

مثل هذه المؤلفات لا يقع تحت حصر ، وهذا هو الحال أيضا مع المؤلفات التى تتناول عقائد أماكن معينة ، بيد أن الكتابين التاليين يزخران بالمعلومات القيمة الثمينة :

Cook, A.B. Zeus. 3 vols., Cambridge, 1914-40

يحوى على وجه الخصوص كل ما هو معروف أو ما يمكن افتراضه فيما يتعلق بعقيدة زيوس وغيره من آلهة السماء المعروفين أو المرجح وجودهم . وكثير ما يختلف المؤلف الحالى مع الأجزاء النظرية من الكتاب السالف الذكر ، غير أن مادة الكتاب روعى فى اختيارها دقة بالغة كما أنها غنية وافرة .

Edelstein, Emma J. and Ludwig. Asclepius: a Collection and Interpretation of the Testimonies. 2 vols., Baltimore, 1945.

(٥) الأورفية :

Guthrie, W.K.C., Orpheus and Greek Religion. London, 1935.

أوفى كتاب فى اللغة الإنجليزية ، ينم عن سعة اطلاع وغزارة علم ، وتعقل واتزان بالغين ، ويتحاشى الكتاب ضروب المغالاة والشطط التى وقع فيها كثير من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع .

Linforth, Ivan M. The Arts of Orpheus. Berkeley and Los Angeles, 1941.

دراسة نقدية ممتازة .

(٦) روابطها بالمسيحية :

Halliday, W.R. Pagan Background of early Christianity, Liverpool, 1925.

ما زال من أعظم الدراسات الموجزة .

Nock, A.D. Conversion. Oxford, 1933.

يقدم هذا المؤلف معلومات وافرة عن الفترة المتأخرة ، فى مجال دراسة ظاهرة واحدة هى مراحل الانتقال من ديانة إلى أخرى .

(٧) روابطها بالأخلاق .. الخ

Farnell, L.R. Higher Aspects of Greek Religion. London, 1912.

Moore, Clifford Herschel. The Religious thought of the Greeks, 2nd edition, Cambridge (Mass.), 1925.

دراسة موجزة وفيرة المعلومات طريفة الأسلوب .

(٨) الآثار الباقية فى اليونان الحديثة :

Argenti, P.P., and Rose, H.J. Folklore of Chios. Cambridge.

كثير من الأمثلة الواردة فى الفصل السابع مأخوذة عن هذا المؤلف .

Lawsen, John Cuthbert. Modern Greek Folklore and Ancient Greek Religion. Cambridge, 1910.

طريف ولكن يخطىء فى كثير من المواضع .

وإنه لمما يؤسف له أنه لا يوجد مؤلف إنجليزى عرض للسحر القديم بدراسة وافية يعول عليها ، كما لا يوجد فى أى لغة من اللغات كتاب شاف تماما حول علم التنجيم اليونانى . .

وهناك ترجمات إنجليزية لمعظم المؤلفين اليونانيين . ولا حاجة بنا إلى أن نذكر بالاسم سوى مؤلف واحد هو :

Frazer, (Sir) J.G., Pausanias' Description of Greece, 2nd edition, 6 vols., London, 1913.

كتاب بالغ القيمة لحواشيه وتعليقاته الوافية كما يحوى أيضا فهرسا رائعا .

فهرس

هـذا الكتـاب
مـلك الأستاذ الدكتـور
رمـزى زكـى بطـرس



دار الهنا للطباعة ت ٧١٣٢٧